جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم سلسلة الدراسات القرآنية

وحدة علوم القرآن

فقه السورة القرآنية

مقدمة في الأصول العامة لمنهج دراسة البناء الموضوعي للسورة القرآنية
مع نماذج تطبيقية في التفسير

(السور ٩٩ - ١١٤)

تأليف

أحمد الوتاري

بسم الله الرحمن الرحيم

فقه السورة القرآنية

ٱلطَّبْعَةُ ٱلأُولَىٰ
١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م

ما ورد في هذا الكتاب يعبّر عن رأي صاحبه
ولا يعبّر بالضرورة عن رأي الجائزة

طبع بموجب إذن طباعة من المجلس الوطني للإعلام بدولة الإمارات
رقم (رق/ ٦٧٤/ ٢٠١٠، تاريخ ٢٠/ ٠١/ ٢٠١٠م)

جائـزة دبـي الدوليـة للقـرآن الكريـم
ص. ب: ٤٢٠٤٢ دبي ـ الإمارات العربية المتحدة
هاتف: ٩٧١٤٢٦١٠٦٦٦+ فاكس: ٩٧١٤٢٦١٠٠٨٨+
موقع الإنترنت: www.quran.gov.ae البريد الإلكتروني: quran@eim.ae

الافتتاحية

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد، رحمة الله للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد،

فإن كتاب الله ﷻ هو حبل الله المتين، والنور المبين، والصراط المستقيم، والحجة الباقية إلى يوم الدين، من تمسك به فاز في الدارين، ومن أعرض عنه تبوَّأ شرَّ المنزلين، لا يشبع منه العلماء، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم ينته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾[الجن: ١ ـ ٢]، الانشغال به عبادة؛ تلاوةً كان أو تدبراً أو حفظاً أو دراسة أو نظراً أو تعلّماً أو تعليماً. وقد تكفل الله سبحانه بحفظه فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[الحجر: ٩]، وجعله المعجزة الخالدة لنبيّه سيدّنا محمّد ﷺ إلى يوم الدين: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[الإسراء: ٨٨].

وقد صرف علماء الأمة ـ سلفاً وخلفاً ـ إليه هممهم، ووجّهوا إليه عنايتهم، ينهلون من معينه، ويتزودون من علومه، ويغوصون في أسراره، ويستخرجون اللآلىء من بحره، ويستضيئون بإشاراته إلى الكون ليقفوا على إعجازه العلمي، فوجدوا حقائق مذهلة ـ مما اكتشفه العلم الحديث ـ سبق

القرآن الكريم إلى ذكرها تصريحاً، أو إشارة وتلميحاً، ليبين للعالم اليوم أنه الحق منعند الله القائل: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣].

ومن منطلق رسالة جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم في نشر الثقافة القرآنية وتعميمها؛ يُشرِّفها أن تُسهم في خدمة كتاب الله العزيز، وتقدِّم إلى المكتبة الإسلامية في سلسلة الدراسات القرآنية هذا الكتاب، الذي ترجو أن يكون لبنةً مهمَّةً في المكتبة القرآنية، راجين المولى ﷻ أن يجعل هذا العمل وغيره من إنجازات الجائزة صدقةً جاريةً في صحيفة أعمال **صاحب السمو الشيخ محمد ابن راشد آل مكتوم، نائب رئيس دولة الإمارات العربيّة المتّحدة، رئيس مجلس الوزراء، حاكم دبي**، راعي الجائزة، الذي أنشأ هذه الجائزة لتكون منار خيرٍ تنشر ما تجود به القرائح في حقل الدراسات القرآنية، وتخدم القرآن الكريم بسبل شتى، فجزاه الله عن القرآن وأهله خير الجزاء.

وفي الختام: نسأل الله أن يجزل الأجر والمثوبة لمؤلف هذا الكتاب، ولكل من أسهم في خدمته وتصحيحه وتدقيقه وإخراجه في هذا الثوب القشيب.

وصلى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

وحدة علوم القرآن

جائزة دبي الدوليّة للقرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على عبده الذي أنزل الله عليه الكتاب:

يقول الله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣ ـ ٢٤].

وبعد:

فهذا جهدٌ بشريٌّ متواضع لإدراك موضع من مواضع إعجاز كلام رب البشر، قَلَّ مَن تطرَّق إليه من السابقين، وَفق منهجٍ يعين على **تلمُّس المعجزة الثابتة القائمة في «السورة القرآنية»، من حيث إنها القطعة المعجزة من القرآن، المتحدّى بها الناس جميعاً بكل ألوانهم وأجيالهم**، منذ زمن بعثة النبي ﷺ حتى زوال آخر الناس من على أرض الابتلاء.

وبين يديك إشاراتٌ في ظلال هذه المعجزة لِستَّ عشرة سورة من القرآن، كل منها حجة بنفسها على الناس جميعاً، ينتظمها هذا الكتاب الذي يشتمل على مقدمة في الأصول العامة لمنهج البحث في البناء الموضوعي للسورة القرآنية التي تؤسس لهذا العلم، ثم ليفصح المنهج عن نفسه من خلال ثمراته المتمثلة في السور التي تم البحث فيها وَفق أصوله بعد مراجعة غالب كتب التفسير المعروفة قديمها وحديثها، وحصد خير ما فيها من جهود مباركة

طيبة، تعاقبت عليها أمم من علماء اللغة والحديث والتفسير، ثم إعادة عرض السورة وفق دراسة بنائها الموضوعي، ومقصدها الكلي، وصولاً إلى البرهان الحيِّ على مصدر هذا القرآن، من **خلال الوعي بالمعنى الكلي المعجز الذي تشتمل عليه السورة القرآنية الواحدة.**

ويمكن للقارئ تذوُّق هذه الثمرات، والحكم على هذا المنهج من خلال ما تحدثه في النفس من انبهار ويقين بالمعجزة القرآنية، مقارنة بالمتحصل من أسلوب التفسير التحليلي المُتَّبع.

*** الفرق بين ثمرات منهج البناء الموضوعي ومناهج علوم البيان:**

إن الفارق النوعي بين هذا النوع من الإعجاز والإعجاز البياني الذي يمتاز به النظم القرآني هو: أن النوع الثاني من الإعجاز يتعامل مع أسلوب **استخدام الأداة اللغوية للتعبير عن المعنى الدقيق المراد،** وفق أعلى طبقات البلاغة التي هي أبعد من أن تنالها العقول المبدعة إنشاءً أو محاكاة، وهو إعجاز (مدهش) أطنب السابقون في وصفه وبيانه.

وأما الإعجاز الأول المقصود هنا فهو: **إعجاز المعنى الكلي القائم بالسورة ذاتها،** من حيث كونها القطعة المتحدّى بها من القرآن، وهو إعجاز من نوع متفرد بنّاء، يقف أمامه الوعي الإنساني خاضعاً أيّاً كانت بيئته ولغته، بمجرد وعيه ذلك المعنى، وصدقه في إرادة الحق، وعدله في الحكم على مصدر هذا المعنى.

فهذا الإعجاز مختلف في طبيعته عن الأنواع الأخرى من الإعجاز القائمة في القرآن، كالإعجاز العلمي، أو التاريخي، أو الرياضي، أو البياني، وكلها

أنواع (مدهشـة) من الإعجاز، أصلها إرادة الله تعالى لأن يعين قلوب الناس على الاسـتعداد لتقبل الحق الذي أنزله، كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[فصلت: ٥٣].

وإذا قال أهل البلاغة: إن إعجاز القرآن كامن في بلاغته، أو في أسلوب استعمال اللغة للتعبير عن المعنى، فإن هذا قد يكون صحيحاً عند إطلاقه على الآية أو الجملة القرآنية، ولكنه ليس بدقيق حين يراد بالإعجاز إعجاز «السورة القرآنية»، فإعجاز السورة أعلى قدراً من مجرد استعمال الوسيلة (اللغة) للتعبير عن المعنى، بل هو متعلق بـ «المعنى الكلي» الذي تؤلفه تلك الجمل التي تنتظمها السورة، والذي هو أعلى قدراً من قدرة الوعي الإنساني على إنتاجه أو الإتيان بمثله، عدا إن الإعجاز في استعمال اللغة لا يتحدى به سوى مَنْ يتقن لغة العرب، ولا يتذوقه بشكل تام سوى العرب، في حين أن القرآن حجة على العالمين.

إن هذا النوع من الإعجاز لا يهدف إلى مجرد إثبات أصل القرآن ومصدره فحسب، وإنما يتعدى ذلك إلى بناء الروح الإنسانية التي بثها الله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾[الحجر: ٢٩] بمصدر من جنس مصدر تلك الروح: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾[الشورى: ٥٢]، حيث تملك كل سورة روحاً حية، تكمن في المعنى الكلي القائم بها والقائمة به، تجعل ذلك المعنى الكلي في مقامٍ فوقيٍّ يعلو دوماً القدرة الإنسـانية على محاكاته أو التعالي عليه، مهما أوتيـت من علم أو عبقرية إو إرادة للتحدي.

وإن كل سورة هي لبنة كبرى، تدفع بالروح الإنسانية درجات إلى أعلى

في مقامات معرفة الله، وفي أنماط الاستعداد الأرقى للقائه، والذي يجعل من فرصة الحياة نوعاً عالياً من أنواع الوجود، يؤهل الفرد والمجتمع بحسب قدرتهما على استثماره ـ وفق ذلك النهج ـ إلى: ما لا ينتهي من آفاق الاستخلاف في وجودٍ أرقى خلقه الله تعالى.

وإن هذا القرآن: حق ومعجزة، «وإعجازه ليس غاية في ذاته، بل هو حقيقة القرآن الخالدة، ومعجزته الكبرى: قدرته الخلاّقة على تكوين أمة ـ على مدى الأزمان ـ تعمر الأرض وفق المبادئ والأهداف الإلهية، أمة تكون مناراً وقدوة، وتتكبد التضحيات الجسام لتحرير الإنسان»[1]، ليظهر هدى الله على الدين كله ولو كره الكافرون.

*** علاقة هذا النوع من البحث بالتفسير الموضوعي وأهميته:**

إن بيان المنهج الخاص بهذا النوع من التفسير تكفلت به المقدمة التالية عن «أصول منهج البحث في البناء الموضوعي»، حيث تمَّ استعراض أسس المنهج التي بُني عليها ذلك البحث، في التعامل مع السورة القرآنية، للوصول إلى رسم ملامح تلك المعجزة قدر الإمكان، والتي لن تنفك تعطي ملامح أدق مدى الأزمان ومع تنوع العقول.

وفي حقيقة الأمر: فإن البحث في البناء الموضوعي للسورة القرآنية نوعٌ من أنواع ما اصطُلح عليه عند المتأخرين بـ «التفسير الموضوعي»، وهو أسلوب من أساليب التعامل مع النص القرآني من حيث وحدته الموضوعية، ينتظم

(١) دراسة تحليلية لسورة الأنفال: د. أحمد مختار البزرة، ص: ١١.

إذا أُطلق خمسة أنواع[١]:

النوع الأول: الوحدة الموضوعية في إطار **المفردة القرآنية**: حيث يتناول الباحث فيه مفردة قرآنية كـ «الرزق» أو «الفقر» أو غيرها، ويتتبعها حيث وردت، ويستخلص منها المفهوم القرآني الشامل لهذا «المصطلح» القرآني. (وفي الملحق ـ ١ ـ أنموذج لهذا النوع من البحث).

النوع الثاني: الوحدة الموضوعية في إطار **المفهوم القرآني**: وهذا النوع أصعب من الذي سبقه، حيث يتناول فيه الباحث «المعنى» أو «المفهوم» الوارد في عدد من الآيات من سور مختلفة، تختلف فيها المفردات اللغوية المستعملة للتعبير عن المفهوم المعين، ويستخرج منها جميعاً صورة شاملة لهذا المعنى أو المفهوم.

وترى هذا النوع عند الأفذاذ من العلماء كأئمة المذاهب، والمحققين من أهل العلم كأبي حامد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ)، وعز الدين بن عبد السلام (ت: ٦٦٠هـ)، وابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ)، ومَنْ في طبقتهم رحمهم الله تعالى، (وفي الملحق رقم ـ ٢ ـ أنموذج لهذا النوع من البحث).

النوع الثالث: الوحدة الموضوعية في **إطار الجملة القرآنية**: وهو ما اصطُلح عليه بـ: «علم المناسبة»، ويتناول مناسبة ورود الآية المعينة وعلاقتها بما قبلها وبما بعدها من آية أو آيات، ولا يكاد يخلو كتاب من كتب

---

(١) ذكر بعض الباحثين أنها ثلاثة، وبعضهم عدها أربعةً، وانظر: التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، للدكتور صلاح الخالدي، ومباحث في التفسير الموضوعي، للدكتور مصطفى مسلم، والتفسير الموضوعي، للدكتور زياد الدغامين، وهي من خير ما كُتب في الباب.

التفسير منه، مع علو طبقة بعض المفسرين على بعض، كالرازي (ت: ٦٠٦هـ)، وابن عاشور (ت: ١٣٩٣هـ) في هذا الباب، أو تخصص بعضهم فيه كالبقاعي (ت: ٨٨٥هـ) رحمه الله في تفسيره «نظم الدرر».

النوع الرابع: الوحدة الموضوعية **للسورة القرآنية**: وهو ما اصطُلح عليه بـ: «علم المقاصد»، ويشتمل على ثمرات جهود أجيال وأمم من العلماء الذين شرَّفهم ربهم بالعمل لبيان كتابه، من أهل «التفسير التحليلي»، تضاف إليها ثمرات البحث في الأنـواع الثلاثة السـابقة من «التفسـير الموضوعي»، لتحصيل العلم بالبناء الموضوعي لـ «السورة القرآنية»، **وهو المقصود هنا في هذا الكتاب**، بكل ما يتناوله من علوم خصائص السورة القرآنية، في مفرداتها ومفاهيمها ومناسبات الآي فيها، ومقدماتها، وخواتيمها، والدلالة الاعتبارية للأقوام المذكورة فيها أو للشخصيات التاريخية الوارد ذكرها، ومواقف الأنبياء، ومفاهيم الحياة والموت وما بعدهما، وطبيعة زوايا تلقي الآيات، وأسلوب السـورة اللغوي، وأمثالها مما سـنبينه من الخصائص المؤدية إلى فهم روح السورة المعنوي الكلي.

النوع الخامس: الوحدة الموضوعية **للقرآن الكريم**: وهو علم لمّا ينضج بعد؛ لأنه ثمرة «علم المقاصد» وفقه البناء الموضوعي للسورة القرآنية الواحدة، مما يؤدي إلى فقه سر ورودها في القرآن بهذا الترتيب الثابت.

ومع ادعاء بعض أهـلِ العلم المعرفـة بهذا النوع من التفسـير، ولكن محاولاتهم جاءت متكلّفة وتفتقر إلى الدقة[1]، ما دامت غير مستندة إلى فقه

(١) كما تكلَّف بعضهم حين جعل القرآن كله شارحاً للسورة التي تُذكر فيها البقرة، أو =

مقصد السورة القرآنية فقهاً علمياً، **وتجد في خاتمة هذا الكتاب محاولة لفقه سر ترتيب ما ورد فيه من سور، هي من ثمرات البحث الوارد فيه.**

ولهذا المنهج أهمية عظيمة، ليس هنا موضع تفصيلها، ويكفي مجرد ذكر أنه يشتمل على البرهان الحي للوعي الإنساني على مصدر القرآن، حين يتم البرهنة على أن كل سورة من السور التي اشتمل عليها القرآن العظيم حجة بذاتها، وأن إعجازها أبعد من مجرد بلاغة استعمال اللغة؛ لأنه يتعداها إلى البرهان على إعجاز معناها الكلي الذي هو حجة على الناس بكل لغاتهم، عدا أنه يبين أن لكل سورة منهجاً تربوياً ولمسة مستقلة تبني لبنة في الروح الإنسانية، تختلف عن تلك التي تؤديها ما سواها من السور.

كما أن من ثمرات فقه المقاصد حسم كثير من الدلالات الخلافية للآيات، التي تنوعت اجتهادات أهل التفسير التحليلي فيها، من خلال دلالة السياق والمقصد الكلي، إضافةً إلى أن هذا النوع من العلم سيكشف تدريجياً علم «الوحدة الموضوعية للقرآن»، بكل ما يعنيه من إعجاز معنوي أعظم.

ولعل ثمرات هذا الكتاب تدفع إلى اهتمام أكبر بالموضوع، يقود إلى الإعداد لنوع من العمل المؤسسي الجماعي على طريق التحول من فقه (الفرد) إلى فقه (الأمة) لكتابها الأعظم، ويكون من ثمراته «إحياء فقه مقاصد السورة القرآنية» بجهد أكثر دقة وتنظيماً.

= تكلَّف غيره بجعل الوحدة الموضوعية للقرآن مبنية على ارتباط آخر آية في كل سورة بأول آية من السورة التي تليها، وفي هذا ما لا يخفى من التكلف حين نُغفل المقصد الكلي للسورة.

ختاماً نقول: ليس من عبارة تؤدي الإعجاز حقه وتصفه بما هو؛ إذ يظل اللفظ القرآني والروح القرآني المنبعث من اللفظ عبر سلسلة المعاني التي تشكل السورة القرآنية ظاهرةً متفردةً لا تؤدى كما هي إلا عبر النص نفسه، ذلك أن «طرائق العرض البشرية في هذا الباب كائنة ما كانت، لن تبلغ شيئاً مما تبلغه العبارة القرآنية والمنهج القرآني وطريقة العرض القرآنية، وهي ليست قاصرة عن أن تبلغ شيئاً مما يبلغه القرآن فحسب، بل ربما كانت مبعدة عن الحقيقة ـ كما هي صورتها القرآنية الفريدة البهية ـ مهما بلغ الكاتب من تحري المنهج القرآني وإدراك خصائصه»[١]، ولا يحيط بعظمة كلام الله وإعجازه لبني آدم سوى الله سبحانه، وذلك سر الفرق بين ما يكون من الخالق وما يصدر عن المخلوق: «سنة الله في آياته التي يصنعها بيديه ألاّ يزيدك العلم بها والوقوف على أسرارها إلا إذعاناً لعظمتها وثقةً بالعجز عنها، ولا كذلك صناعات الخلق، فإن فضل العلم بها يمكنك منها، ويفتح لك الطريق إلى الزيادة عليها»[٢].

وكل ما ستراه هنا ليس سوى علامات تعين على تلمس بعض تلك الروح (المعجزة) في السورة، فكل سورة هي حجة مذ أنزل الله القرآن، على كل من تطأ الأرض قدماه حتى قيام الساعة، في تعريفه بالله وإعداده للقائه، ولكل منا روح متفرد في اقتياته من روح القرآن والارتفاع بها؛ لأن كلاً منا لا يتكرر إلى قيام الساعة، وسيكلمه ربه ـ إن شاء الله ـ مخلياً به يوم القيامة، وله أن ينهل من كل سورة ما يرفعه استعداداً لذلك اللقاء، فكل سورة معنى كلي إعجازي

(١) مقومات التصور الإسلامي: سيد قطب، ص: ٣٧.

(٢) النبأ العظيم: د. محمد عبدالله دراز، ص: ٨١.

قائم بذاته، لا يعيق عن تلمس روحها في كيان الروح الإنساني سوى معاناة العمل بما تعلَّم من الحق، فاقرأ قراءة مَنْ كان له قلب أو ألقى السمع، ووهب من روحه لروح القرآن، حتى ينفتح القرآن لروحه، وتنفتح روحه لروح القرآن: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[قٓ: ٣٧].

□ □ □

﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٨]

مُقَدِّمَةٌ فِي ٱلأُصُولِ ٱلعَامَّةِ
لِمَنْهَجِ دِرَاسَةِ ٱلبِنَاءِ ٱلمَوْضُوعِيِّ لِلسُّورَةِ ٱلقُرْآنِيَّةِ

مُقَدِّمَة في الأُصُولِ العَامَّةِ
لِمَنْهَج دِرَاسَةِ البِنَاءِ المَوْضُوعِي لِلسُّورَةِ القُرْآنِيَّةِ

يؤصِّل منهج دراسة البناء الموضوعي لـ «فقه السورة القرآنية» من حيث كونها القطعة المعجزة من القرآن؛ التي تحدى مُنزل القرآن بها الإنس والجن على أن يأتوا بمثلها: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[البقرة: ٢٣ ـ ٢٤]، وليكون عجزهم دليلاً على مصدر القرآن: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[الإسراء: ٨٨]، ويهدف إلى التحقق من إعجازها المطلق، ثم إلى بيان هذا الإعجاز وعرضه على الخلق بما أمكن من طرق الإيصال في زماننا.

وينتظم هذا المنهج قسماً **تأسيسياً** في فقه الخصائص العامة للسور القرآنية، وعناصر هذا النوع من الفقه، وقسماً **تطبيقياً** يبين خطوات البحث في البناء الموضوعي للسورة، وكيفية التوصل إلى فقه نسيجها الخاص، ومحاورها الكلية العامة، ثم بناء أنموذج خطٍّ بنائها الموضوعي، وتسمية مقصدها الكلي الخاص، على طريق الوعي بالنسيج المعنوي المعجز للسورة، والذي هو غاية البحث وفق هذا المنهج.

وفيما يلي عرض موجز للقسمين:

أولاً ـ القسم التأسيسي: فقه الخصائص العامة للسور القرآنية:

ويتضمن البحث فيه ما يأتي:

١ ـ **التعريف بالسورة القرآنية**: من حيث كونها القطعة المعجزة من القرآن المتحدى بها الخلق[1]، مع بيان شيء من فوائد تقسيم القرآن إلى سور، ثم تحديد المقصود **بالبناء الموضوعي**، وعلاقته «بعلم المناسبة وعلم مقاصد السور» اللذين تعارف عليهما الأقدمون، حيث هو ثمرة لـ «علم المناسبة» بين آيتين، ثم إنه قائد إلى فقه محور السورة بعدما يُتوصل به إلى ربط السورة ككل، وليكون من ثمراته: «علم مقاصد» أدق ما يكون، يُستدل به على مدى التلازم بين ما اصطُلح عليه من اسمٍ للسورة وبنائها الموضوعي، ويتبين معه مثلاً الفرق بين قولنا «سورة كذا» وقولنا «السورة التي يُذكر فيها كذا وكذا» عند تعريفنا هوية سورة معينة، ولتمييزها عن غيرها.

---

(١) إن مما يثير الفخر والعجب في آن في نفس كل مسلم ـ في كل مسألة تتعلق بالقرآن ـ حجم ما بذله الأقدمون من جهود في محاولة تحديد المراد من كل ما فيها، وانظر مثلاً في سياق بيان معنى السورة بعض محاولات أهل اللغة في: معجم مقاييس اللغة: ٣/ ١١٥، والمفردات: ٤٣٣ و٤٣٤، وأساس البلاغة: ص: ٢٤٢، ولسان العرب: ٢/ ٢٣٧، والقاموس المحيط: ٥٢٧، وبعض محاولات أهل علوم القرآن في: البرهان في علوم القران ١/ ٣٣٢، ومعترك الأقران: ٢/ ٢٧٥، ومناهل العرفان: ٣٤٣، وبعض محاولات المفسرين: الزمخشري: ١/ ١٩٧، والرازي: ١/ ١٢٨، والقرطبي: ١/ ٦٥، والآلوسي: ١/ ١٩٣، وابن عاشور في التحرير والتنوير: ١/ ٧٠ ـ ٨٠، وغيرها مما لا يحصى من الجهود ذات القيمة العلمية المتفوقة، التي يدرك المسلم معها حجم الأمم من أهل العقول الذكية والأرواح العالية، التي سخرها الله لتكون أداة بيان القرآن للناس كما وعد: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾[القيامة: ١٩].

٢ ـ حكم هذا العلم: وأدلته الشرعية من الكتاب والسنة، والحديث عن تاريخ هذا العلم، باعتبار أنموذجه الأول ـ الحديث القدسي: «قسمتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي قسمين» ـ، ثم بيان جهود السابقين واللاحقين من أهل التفسير وغيرهم فيه، وتمحيص الأقوال في هذا الباب ونقدها، ثم بيان أهميته من حيث كونه أحد أبرز وجوه التحدي القرآني المعجز للخلق، وبيان فوائد هذا العلم من مثل مساهمته في ترجيح بعض الأقوال المختلفة على بعض في تفسير الآيات بدلالة السياق الذي يتم استخلاصه من خلال الترابط الموضوعي، كما تبرز أهمية هذا العلم من حيث كونه قائداً إلى النوع الخامس من أنواع التفسير الموضوعي: «الوحدة الموضوعية **للقرآن الكريم**»[1].

٣ ـ فقه خصائص المقدمة في السورة القرآنية: ويتناول أنواع المقدمات العامة في السور، ودور المقدمة في البناء الموضوعي للسورة، وبيان خطوط عامة في كيفية التعرف على حدود المقدمة في السور المختلفة.

٤ ـ فقه خصائص الخاتمة في السورة القرآنية: ويتناول أنواع خواتيم السور، ومنهج التكامل بين المقدمة والخاتمة في تأكيد مقصد السورة الكلي،

---

(١) وهو علم كتب فيه بعض السابقين، كابن الزبير الثقفي رحمه الله في: (البرهان في تناسب سور القرآن)، والسيوطي رحمه الله في: (تناسق الدرر في تناسب السور)، ومولانا أشرف علي تهانوي رحمه الله في: (سبق الغايات في نسق الآيات)، وعبدالله الغماري رحمه الله في: (جواهر البيان في تناسب سور القرآن)، وفيما كتبوا بعض قصور عن بلوغ المراد ـ مع عظيم اجتهادهم وجلالة قدرهم ـ؛ لأن هذا العلم يأتي ثمرةً لنوع سابق عليه من علوم الوحدة الموضوعية، ولا يمكن القفز إلى معرفته بمجرد الدعوى، **وترى في خاتمة كتاب (فقه السورة القرآنية) بعضاً من جميل نسيج هذا العلم.**

وبيان خطوط عامة في كيفية التعرف على حدود خاتمة السورة.

٥ ـ فقه خصائص المفردة القرآنية ودلالاتها: ويتناول خصوصية دلالات الألفاظ القرآنية، وجهود الأقدمين في هذا الباب، والصورة المطلوبة لمنهج التعريف بالألفاظ من خلال لغة القرآن نفسها، ويمثل هذا المنهجُ النوعَ الأولَ من علوم التفسير الموضوعي «الوحدة الموضوعية في إطار المفردة القرآنية»، وفي الملحق رقم (١) أنموذج للبحث من هذا النوع في فقه «الجنة»، كما ورد بيانها في مجموع آيات القرآن.

٦ ـ فقه المفهوم القرآني: مما يتعلق بعلم المقاصد الكلية للقرآن، التي يبينها قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[الكهف: ١١٠]، الذي حدد ثلاثة مقاصد كلية انتظمها كتاب الله:

* **الله**: من حيث التعريف به ببيان أسمائه وصفاته، أو التعريف به بدلالة آثاره في خلقه في الكون في عالم الشهود وفي عالم الغيب غير المشهود.

* **الوحي**: من حيث كونه الواسطة بين الخالق والمخلوق، فيقصد كتاب الله إلى التذكير بتاريخ الرسالات ومواقف الأنبياء، وتوكيد صدق رسول الوحي الأخير ﷺ وكونه الأسوة الحسنة للناس جميعاً.

* **الإنسان**: من حيث هويته كمخلوق، وتاريخ جنسه، ونظام وجوده الحالي، ومستقبل وجوده القادم، فالقرآن يتناول الإنسان من حيث التعريف بهويته، ومواقف جنسه أفراداً أو جماعات من الحق، من خلال نماذج تاريخية مختارة، كما يتناول التعريف بمراد خالق الإنسان، وبيان السنن الإلهية الحاكمة للفعل الإنساني وكيف يتشكل قدر الإنسان مع آثار ذلك الفعل، ثم بيان خصائص الموقف النهائي للوجود الإنساني عند لقاء الله.

وباعتبار أن **القرآن** هو (**المجموع المقروء من السور**)، يمكن استخلاص كليات المفاهيم من مواضع ورودها وبيانها في مجموع السور التي يكمل بعضها بعضاً، ثم يتم في سياق فقه هذه المقاصد الكلية، بناء الإدراك الجزئي للمفهوم القرآني المعين، من خلال النوع الثاني من أنواع علم التفسير الموضوعي: (الوحدة الموضوعية في إطار **المفهوم القرآني**) الذي أشرنا إليه عند استعراض أنواع التفسير الموضوعي، وتجد ملحقاً بهذا الكتاب أنموذجاً لهذا النوع يوضح المفهوم القرآني (للعلم والإرادة)، من حيث كونهما أخص ما استودع الله الإنسان من قدرات ـ الملحق رقم (٢) ـ.

٧ ـ **فقه الجملة القرآنية**: ويتناول خصائص «الآية القرآنية»، والفاصلة القرآنية، والأسلوب القرآني، والعرض الموضوعي القرآني، والحوار القرآني، مما أفاضت في البحث فيه علوم البلاغة والتفسير عند الأقدمين، ودراسات الأساليب اللغوية ونظرية التصوير الفني عند المعاصرين، كما يتناول بالبحث أنواع **فقه تلقي الآيات في السورة**[١]، من حيث توجهها بالخطاب إلى النبي ﷺ بشكل خاص، ثم إلى قومه وأهل زمانه بشكل عام، ثم إلى الخلق كافة مدى تاريخ الاستخلاف في الأرض من بعد بشكل أعم، ثم إلى كل إنسان وحده بشكل أخص، مما يعين على تدبر أوفق للنوع اللاحق من الفقه المتعلق بعلم المناسبة بين الآيات.

٨ ـ **فقه المناسبة بين الآيات**: وما يتعلق بأساليب الانتقال الموضوعي في القرآن، ومحاولة تقعيدٍ لبعض الأصول في هذا الباب، تُستخلص من

---

(١) وفي خاتمة السورة التي يذكر فيها (قريش) من هذا الكتاب أنموذج لهذا النوع من الفقه.

جهود علماء التفسير، وبخاصة المتفننين منهم في التخصص بهذا العلم الجليل، ولعل من أبرزهم الإمام «البقاعي» رحمه الله، وسواه كثير من أهل الشأن الذين تنوعت اجتهاداتهم، وهدى الله قلوبهم لكثير من النكت البديعة المبثوثة في ثنايا كتبهم.

٩ ـ فقه الدلالة الاعتبارية لنماذج الأنبياء والصالحين الواردة في السور القرآنية: وهذا من ثمرات النوع الأول من أنواع علم التفسير الموضوعي: «الوحدة الموضوعية في إطار **المفردة القرآنية**» ـ وفي الملحق رقم (٣) أنموذج للبحث من هذا النوع يتناول شخص «إبراهيم» عليه السلام ـ، وفيه يتم استقراء كل ما ورد في القرآن من آيات عن النبي المعين، وإيداعها نسيجاً موضوعياً واحداً، يعطي الملامح التي يريد الله أن يرينا إياها عن شخص ذلك النبي، من حيث خصوصية كل أنموذج في تجربته ونوعه الإنساني المتفرد، وخلاصة مواقف القمة التي تختصر تجربته في العمر الذي وهبه ربه، مما يوضح لاحقاً سر ورود بعض قصص الأنبياء في السور المتنوعة، وما يتعلق بالنبي من موقف نوعي معين مرتبط بشكل خاص بروح السورة.

١٠ ـ فقه الدلالة الاعتبارية لأنموذج القوم والمجتمعات الصالحة وغير الصالحة التي وردت في القرآن: وعلاقتها بالأنبياء، وغير ذلك من خصائصها المذكورة في كتاب الله[1]، واستثمار ما ورد من إشارات قرآنية لمعرفة خصائص

---

(١) على سبيل المثال: فإن قوم (فرعون) يمثلون ظاهرة الطغيان الفردي، أو (الحكم الفردي المطلق)، كما هو في مصطلح السياسيين، فيما يمثل قوم (عاد) ظاهرة الطغيان الجماعي، أو (الحكم الفئوي المطلق)، وهكذا مع كل أنموذج قومي ارتبط اعتبار ذكره بنوع معين من الفساد أكثر من غيره، كالفساد الأخلاقي (قوم لوط)، أو الاقتصادي =

أنظمتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية العامة، والتي رشحتها إلى أن تكون في موقف معين من الحق، وقادتها إلى نهاية معينة في الدنيا والآخرة ـ وفي الملحق رقم (٤) أنموذج للبحث من هذا النوع يتناول قوم «عاد» ـ، من أجل استثمار ذلك عند دراسة البناء الموضوعي للسورة، وفقه سبب إيراد الأنموذج المعين دون غيره في السورة، أو فقه سبب تسلسل ذكر هذه الأقوام وفقاً لسياق ورودها الخاص فيها.

ثانياً ـ القسم التطبيقي: الخطوات المنهجية العملية لفقه البناء الموضوعي للسورة:

وفيه يتم بيان **خطوات البحث في البناء الموضوعي للسورة**، من خلال ما تقدم ذكره من فقه للخصائص العامة، بعد جمع واستثمار جهود أمم من العلماء الذين اختارهم ربهم من هذه الأمة لبيان مراده بما وعد الخلق لما نزل القرآن: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾[القيامة: ١٩]، وبضمنها جهود **علماء اللغة، وعلماء الحديث والأثر، وعلماء الأصول، وخلاصات علماء الإنسان والكون، التي تضاف جميعاً إلى جهود علماء التفسير**، وتصب معها من أجل الفقه الأدق لمراد الخالق من الخلق.

لقد قيّض الله أمماً من **«علماء اللغة»** والصرف والنحو والبلاغة، ألفوا المعاجم، وقاسوا أصوات اللغة وعلاقتها بمعانيها، وكتبوا في الأشباه والنظائر،

= (قوم شعيب)، وغير ذلك، مما ينعكس على نمط العقوبة الإلهية التي سُلطت عليهم، بارتباطها بنوع معصيتهم لربهم، كما تمثل كل واحدة من شخصيات الأنبياء نماذج متفردة في أدائها لحق الله، بحنيفية (إبراهيم)، أو الصبر على الدعوة عند (نوح)، أو نصاعة الحجة البينة وحجم الجحود (صالح وثمود)، وهذا كله يُدرك في مظانه.

وجردوا المصنفات لمعاني المفردات القرآنية، وأسسوا علم «الصرف» لتدقيق ما يحصل من اختلاف في المعنى لدى اختلاف المبنى في تلك المفردات، واستثمروا خلاصات «علم النحو» في فقه تحديد الدور المحتمل الذي تؤديه المفردة في الجملة من خلال علامة أواخرها، وأوغلوا في معاني النحو حتى ظهرت علوم «البلاغة» على طريق فقه الأداء الأمثل للمعنى عند صياغة الجملة، بضمان الاحتراز عن الخطأ في الأداء في «علم المعاني»، ثم بأداء ذلك المعنى أتم ما يكون بأوجز عبارة تراعي مقتضى الحال في «علم البيان»، مع مراعاة تحسينه وتجميله في «علم البديع»، وكل ذلك من أجل فهم أقرب للصياغة المعجزة لكلام الله.

ولقد قيّض الله أمماً من **«علماء الحديث»** والأثر والجرح والتعديل، الذين جمعوا بيان هذا القرآن ممثلاً بأقوال النبي ﷺ وأفعاله، ومناسبات النزول(١)، وآثار صالح السلف، فيما يتعلق ببيان ما فهموه من القرآن، التي

(١) إن مناسبات النزول تعين في تفسير الآية التي وردت في مناسبة نزولها، لكنها لا تمثل بالضرورة الحكم النهائي المبين لسر ورودها في موضعها وهدف وجودها في السورة، مثال ذلك: أن مناسبة نزول قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾[الأحزاب: ٣٧]، وردت في قضية تزويج الله نبيه مطلقة متبنّاه، بما في ذلك من إلغاء للآثار النَسَبية للتبني، ولكن الهدف من هذا الحكم كان أعظم من مجرد هذا البيان الذي تؤشره مناسبة النزول؛ لأن سياق السورة بيّن أن الهدف نفي إمكان توريث أمر النبي ﷺ لأي كان، في بيئةٍ تقدِّس التوريث، وكان يمكن لها أن ترى في (زيد بن محمد) أولى الرجال بهذه الوراثة، فجاء الأمر القرآني =

بمجموعها تُشكِّل المرجع الأشـد مصـداقية في تحديد المراد بنصٍ نزل بين ظهرانيهم وفي زمانهم.

وأما «**علماء الأصول**»، فقد سطروا تاريخاً جديداً لقدرات العقل الإسلامي والإنساني في فقه مباحث الألفاظ ودلالاتها، وأنواع تلك الدلالات، وضوابط استنباط الأحكام من أدلتها، صيانةً للحق من عبث الجهال بالتحريف وبالتأويل.

ولقد خاضت الإنسانية مخاضاً عسيراً في طريقها إلى بناء الصرح الجميل الذي نعيشه في زماننا، حتى أذن الله لها بالعلم بمواطن جديدة في الكون وفي الإنسان: (القرآن المنظور) ما كانت معروفة من قبل، وهي جميعاً دالة على خالقها، وتمثل أدوات تخدم فقه «القرآن المسطور».

أما فقهاء القرآن من «**المفسرين**»، فهم أصحاب السبق ومن «أهل الله[1]»، وهم الحاصدون لثمرات جهود السابقين جميعاً، حيث إن ما سبق ذكره من العلوم جميعاً يصب في بوتقة «علم التفسير»، بجميع مدارسه الأثرية، والعقلية ـ الرأي المنضبط ـ، والفقهية، والإشـارية، والبيانية، وقد خلف لنا علمـاء هذه المدارس تراثاً ضخماً متمثلاً في مئات كتب التفسـير لكامل كتاب الله،

= أولاً بدعاء كل متبنى باسم أبيه: ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡ ﴾[الأحزاب: ٥]، ثم جاء الأمر لاحقاً بنفي كل إمكان لهذا التوريث: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴾[الأحزاب: ٤٠]، وليكون أمر الأمة من بعده شورى لا يدعي الأحقية فيه إلا من هو الأولى به.

(١) يقول النبي ﷺ: «أهلُ القرآن هم أهلُ الله وخاصَّته»، أخرجه ابن ماجه، في المقدمة، باب فضل من تعلم القرآن وعلمه، رقم الحديث ٢١٥، وصححه الألباني.

وما لا يُحصى من الجهود الجزئية، ومعرفة مظان هذا التراث الضخم المبارك هي الباب للشروع في فقه السورة القرآنية وبنائها الموضوعي.

وكلما زاد التمكن من تلك العلوم، واستُثمرت حصيلة جهود «أهل الله» بما تستحقه: زادت فاعلية الكشف عن المعاني الكامنة في السور، وكانت الثمرات أكثر قرباً من الروح المعنوية الكلية المعجزة للسورة، ولتكون العلامات أوضح في الطريق إلى إيداعها في أنموذج يبين خط البناء الموضوعي للسورة، وفق ملامح منهج «الوحي الأول» لهذا العلم، حين علمنا ربنا في الحديث القدسي كيف نفقه السورة، فيما رواه النبي ﷺ، قال: «قال الله تعالى: قسمتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل»؛ فإذا قال العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، قال الله: «حمدني عبدي»، فإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال الله: «أثنى علي عبدي»، فإذا قال: ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، قال: «مجدني عبدي»، فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قال: «هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل»، فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، قال: «هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل»[1]، وفي هذا بيان واضح لاشتمال السورة على بناء موضوعي محدد، يؤسس لمنهج العلم بما تشتمل عليه غيرها من السور، ومن الله العون وبه التوفيق.

*** الخطوات المنهجية العملية لفقه البناء الموضوعي للسورة:**

إن الخطوة الأولى على طريق فقه السورة تتمثل في جمع خلاصات العلوم

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، الحديث رقم: ٣٩٥، وأصحاب السنن.

السابقة لأهل التفسير ومَنْ سواهم، ممن تلقت الأمة عموم أقوالهم بالقبول، وذلك في بحثٍ لا يستثني قولاً، وجمع دؤوب يصهر خلاصات إراداتهم للكشف عن المعاني، في ظل ما تقدم ذكره من أنواع علوم اللغة وقواعد الفهم، ثم الشروع في طلب التعرف على **النسيج الموضوعي الخاص بالسورة**، مع مراعاة حقيقة أولية بالغة الأهمية، تتمثل في كون **كل سورة لها روحها الخاصة المتميزة، وإن الشروع في محاولة فقه محورها ومقصدها العام يجب أن يبدأ من دون مقررات سابقة**، مما يوجب مراعاة خصوصيتها التامة، وروحها الخاصة المستقلة(١)، المتمثلة بموضوعاتها وبلغتها الخاصة(٢) وبصوتها(٣)

---

(١) **وهذا أمر بالغ الأهمية قصَّر فيه كثير من أهل التفسير، حين جعلوا مقاصد القرآن المكي واحدة مثلاً، أو ـ على سبيل المثال ـ جعلوا السورتين اللتين تُذكر فيهما (الزلزلة) و(القارعة) متشابهتين في المقاصد إلى حد يشبه التكرار، وهذا أمر غير دقيق، ساق الفهوم إلى كثير من القصور في فهم مراد الله من كل سورة بهيئتها الخاصة.**

(٢) لغة السورة أمر يتعلق بالمصطلحات ذات الدلالات الأكثر محورية فيها من مثل (التقوى) ومشتقاتها في السورة التي تُذكر فيها (البقرة)، أو بالموضوعات الخاصة من مثل طبيعة ذكر (الملائكة) في السورة التي تُذكر فيها (الصافات)، أو بالدلالة الخاصة للمفردات، من مثل دلالة (الفسوق) على مجرد الخروج من الإيمان إلى الإسلام في السورة التي تُذكر فيها (الحجرات)، ودلالة المفردة نفسها على اليهود في السورة التي يُذكر فيها (الحشر)، وغير تلك الدلالات في السور المختلفة.

(٣) لكل سورة إيقاعها الصوتي الخاص (وانظر تفسير القاسمي: ١/ ٢٧٨)، المرتبط بدلالاتها المعنوية المتنوعة، حتى لا يكاد قارئ واحد للقرآن أن يكون قادراً على أدائه بالمستوى نفسه في كل السور، حيث يمكن مثلاً أن تناسب رخاوة صوت قارئ معين الإيقاع الرخي للسورة التي يُذكر فيها (المزمل)، ولكن أنى لقارئ رخي الصوت أن يوفي الخاتمة الشديدة للسورة التي تُذكر فيها (مريم) حقها!، أو يوفي حق الشدة في خواتيم السورة التي يُذكر فيها أهل (سبأ)!.

وبمصطلحاتها وبتوجيه زوايا تلقيها المتنوعة، ويتم التوصل إلى بناء أنموذج بنائها الموضوعي ـ بعد طلب هداية الله وحده ـ وفقاً للخطوات الخمس التالية:

١ ـ فقه الإيقاع الموضوعي: (من الجزء الى الكل):

وفيه يتم التقسيم الممكن للمواضيع المتتابعة التي يمكن كشفها في ظل ما تقدم بيانه من فقهٍ للخصائص العامة للسورة القرآنية، حيث يُنظر ـ بعد غربلة أقوال المفسرين ـ إلى حدود ومعالم **مقدمة** السورة المعينة **وخاتمتها**، وإلى خصائص أسلوبها، وإلى لغة المفردات **والمفاهيم القرآنية فيها**، وتنوع خطابها **وزوايا تلقيها**، والمواقف الخاصة ـ إن وجدت ـ **لنماذج الأنبياء والأقوام** الواردة فيها، وما ورد من **علم المناسبة** بين آياتها، على طريق كشف السياق العام لها، من خلال البحث الدقيق عن روابط النسيج المعنوي لكل مجموعة من الآيات، والتي تبدو معالمها أكثر وضوحاً كلما أوغل الباحث في تذوق روح ذلك النسيج في ظل ما تقدم من علوم، وهو أمر يُقتضى معه التحقق، وتكوين ظن غالب أقرب ما يكون إلى فهم مراد الله في كل مفردة، وتجنب تعدد الأقوال ما أمكن.

وعلى سبيل المثال: اختلف أهل التفسير في تحديد المراد بالقَسَم بـ «العاديات» في السورة التي ذُكرت فيها، واستغرقهم جهد غير قليل في محاولات الترجيح لمعرفة المقصود بها، خيلاً أو إبلاً، وتأمل هذا فيما يلي من استعراض لأقوالهم في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا﴾[العاديات: ١]، **نبين بعده طبيعة المقصود في البحث في إشارات السياق لكل جزء من النسيج**

على طريق فقه الإيقاع الموضوعي[(١)]:

قال الراغب الأصفهاني: «العدو: التجاوز ومنافاة الالتئام، فتارة يُعتبر بالقلب فيقال له: العداوة والمعاداة، وتارة بالمشي فيقال له: العدو»[(٢)].

وذهب جمهور المفسرين إلى أنه قَسَمٌ بخيل الغزاة في سبيل الله تعالى التي تعدو، أي: تجري بسرعة نحو العدو[(٣)].

وقال الآلوسي: «وأصل العاديات: العادوات بالواو، فقلبت ياءً لانكسار ما قبلها»[(٤)].

وقال ابن عاشور: «العاديات جمع العادية، وهو اسم فاعل من العدو، وهو: السير السريع، يُطلق على سير الخيل والإبل خاصة وقد يوصف به سير الإنسان، وتأنيث هذا الوصف هنا لأنه من صفات ما لا يعقل»[(٥)].

وروى الطبري بسنده عن ابن مسعود وعلي ورواية عن ابن عباس: أنها الإبل، قال الطبري[(٦)]: «حدثني يونس قال: أخبرنا ابن وهب قال: أخبرنا أبو

---

(١) النص بين القوسين مأخوذ من: البناء الموضوعي للسورة التي تُذكر فيها العاديات، لأحمد الوتاري، بحث مقدم إلى جامعة بغداد، كلية العلوم الإسلامية، ١٩٩٩م، ص: ٩.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني، ص: ٥٥٣.

(٣) سنذكر طرفاً منها بعد قليل.

(٤) روح المعاني: شهاب الدين السيد محمود الآلوسي ٣٠/ ٢٧٥.

(٥) التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور ٣٠/ ٤٩٩.

(٦) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: محمد بن جرير الطبري ٣٠/ ٢٧٢.

صخر[١] عن أبي معاوية البجلي[٢] عن سعيد بن جبير عن ابن عباس حدَّثه قال: «بينما أنا في الحجر جالس، أتاني رجل يسأل عن ﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا﴾ فقلت له: الخيل حين تغير في سبيل الله، ثم تأوي إلى الليل فيصنعون طعامهم، ويورون نارهم، فانفتل عني، فذهب إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو تحت سقاية زمزم، فسأله عن ﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا﴾ فقال: سألت عنها أحداً قبلي؟ قال: نعم سألت عنها ابن عباس، فقال: الخيل حين تغير في سبيل الله، قال: اذهب فادعه لي، فلما وقفت على رأسه قال: تُفتي الناس بما لا علم لك به، والله لكانت أول غزوة في الإسلام لبدر، وما كان معنا إلا فَرَسان: فرس للزبير وفرس للمقداد، فكيف تكون العاديات ضبحاً؟ إنما العاديات ضبحاً من عرفة إلى مزدلفة إلى منى، قال ابن عباس: **فنزعت عن قولي ورجعت إلى الذي قال علي رضي الله عنه**».

وقال السيوطي[٣]: «أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق الأعمش عن إبراهيم بن عبدالله ﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا﴾ قال: الإبل، قال إبراهيم: وقال علي بن أبي طالب: هي الإبل، وقال ابن عباس: هي الخيل، فبلغ عليّاً قول ابن عباس فقال: ما كانت لنا خيل يوم بدر، **قال ابن عباس: إنما كان ذلك في سرية بُعثت**».

وعلى قول أن «العاديات» هي الإبل، تكون ضبحاً بمعنى: ضبعاً، قال ابن فارس: «ضبح: الضاد والباء والحاء أصلان صحيحان: أحدهما صوت،

---

(١) أبو صخر (حميد بن زياد المدني) قال عنه في تهذيب التهذيب: صدوق يهم.

(٢) أبو معاوية البجلي لم يسمع من سعيد بن جبير كما في تهذيب التهذيب.

(٣) الدر المنثور في التفسير بالمأثور: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ٨/ ٦٠١.

والآخر تغير لون من فعل نارٍ، فالأول قولهم ضبح الثعلب يضبح ضبحاً، وصوته الضباح وهو ضابح، فأما قوله تعالى ﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا﴾[العاديات: ١] فيقال: هو صوت أنفاسها، وهذا أقيس، ويقال: بل هو عدوٌ فوق التقريب، وهي في الأصل ضبع، وذلك بأن يمد ضبعيه حتى لا يجد مزيداً، وإن كان كذا فهو من الإبدال»[١].

قال ابن عاشور: «وعلى تفسير (العاديات) أنها الإبل، يكون الضبح استعير لصوت الإبل، أي: من شدة العدو قويت الأصوات المترددة في حناجرها حتى أشبهت ضبح الخيل، أو أريد بالضبح الضبع على لغة الإبدال»[٢].

وقال البغوي: «قال بعض من قال هي الإبـل: قولـه (ضبحاً) يعني: ضباحاً تمتد أعناقها في السير»[٣]، والأصل في الضبح أنه للفرس، قال الراغب الأصفهاني: «والضـبح: صوت أنفاس الفرس تشـبيهاً بالضـباح هو صوت الثعلب»[٤].

وأخرج الطبري عن علي ﷺ: «الضبح من الخيل: الحمحمة، ومن الإبل: النفس، وعن عطاء قال: سمعت ابن عباس يصف الضبح: أح أح»[٥]، وقال الطبري: «وأولى القولين عندي بالصواب قول من قال: عنى بالعاديات:

---

(١) معجم مقاييس اللغة: أبو الحسين أحمد بن فارس ٣/ ٣٨٤.

(٢) التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور ٣٠/ ٤٩٩.

(٣) معالم التنزيل: الحسين بن مسعود البغوي ٤/ ٥١٧.

(٤) مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (مادة ضبح)، ص: ٥٠١.

(٥) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: محمد بن جرير الطبري ٣٠/ ٢٧٢.

الخيل؛ وذلك أن الإبل لا تضبح وإنما تضبح الخيل، وقد أخبر الله تعالى أنها تعدو ضبحاً»[١].

ونقل القرطبي عن ابن عباس: «ليس شيء من الدواب يضبح غير الكلب والفرس والثعلب»[٢]، وقال القرطبي «**وإنما تضبح هذه الحيوانات إذا تغير حالها من فزع وتعب أو طمع**»، ونقل أنها: «**كانت تكعم لئلا تصهل، فيعلم العدو بهم، فكانت في هذه الحال تتنفس بقوة**»[٣]، ونُصب (ضبحاً) على المصدر، أي: والعاديات تضبح ضبحاً، وقال البصريون: (ضبحاً) نُصب على الحال ـ أي: ضابحات ـ وقيل مصدر في موضع الحال»[٤].

وصورة القَسَم عند من قال إن العاديات هي الإبل: «تعدو ضبحاً، فتوري بأخفافها النار من حكِّ الأشجار بعضها ببعض، فتثير النقع ـ وهو الغبار ـ بعدْوِها، فيتوسط (جمعاً) وهي المزدلفة»[٥].

وفي الحقيقة: إن السياق يدل على أنها للخيل، وهو قوله تعالى ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾[العاديات: ٢]، والإيراء لا يكون إلا للحافر، وأما الخف ففيه لين واسترخاء، كما نقله ابن القيم عن الجرجاني[٦]، وقال الرازي: «واعلم أن ألفاظ هذه الآيات تنادي أن المراد هو الخيل؛ وذلك لأن الضبح لايكون

(١) المصدر السابق.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: محمد الأنصاري القرطبي ٢٠/ ١٥٤.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق، وقال مثله الرازي ٣٠/ ٦٤، والآلوسي ٣٠/ ٢٧٥.

(٥) التبيان في أقسام القرآن: شمس الدين محمد ابن قيم الجوزية، ص: ١٥٠.

(٦) المصدر السابق.

إلا للفرس، واستعمال هذا اللفظ في الإبل يكون على سبيل الاستعارة، كما استُعير المشافر والحافر للإنسان، والشفتان للمهر، والعدول من الحقيقة إلى المجاز بغير ضرورة لا يجوز، وأيضاً: فالقدح يظهر بالحافر ما لا يظهر بخف الإبل، وكذا قوله: ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾[العاديات: ٣] لأنه بالخيل أسهل منه بغيره، وقد روينا أنه ورد في بعض السرايا، وإذا كان كذلك فالأقرب أن السورة مدنية، لأن الإذن بالقتال كان بالمدينة»[(١)].

وقال ابن القيم: «وأعظم ما يثير الغبار عند الإغارة إذا توسطت الخيل جمع العدو؛ لكثرة حركتها واضطرابها في ذلك المكان، وأما حمل الآية على إثارة الغبار في وادي محسر عند الإغارة فليس بالبين، ولا يثور هناك غبار في الغالب لصلابة المكان»[(٢)]، ويضاف إلى ذلك أن «الإفاضة عن عرفات ثم من المزدلفة لا تحتمل هذا العدو، وليس هو فيها بمحمود؛ لأنه ﷺ كان ينادي (السكينة السكينة) فلو وُجد ـ أي: العدو ـ لما كان موضع تعظيم وتفخيم»[(٣)]، وكذلك فإن «قوله تعالى: ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾[العاديات: ٣ ـ ٥] جاء مرتَّباً بالفاء، وهي تدل على الترتيب والتعقيب، وقد تقدم ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾ وبعدها ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾، و(جمع): هي المزدلفة، وإنما يؤتى إليها ليلاً، فكيف يُغرن صبحاً ويتوسَّطن المزدلفة ليلاً؟»[(٤)].

---

(١) التفسير الكبير: محمد فخر الدين الرازي ٣٠/ ٦٤.

(٢) التبيان في أقسام القرآن: شمس الدين محمد ابن قيم الجوزية، ص: ١٠٦.

(٣) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن: محمد الأمين بن محمد الشنقيطي ٩/ ٤٤٣.

(٤) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن: محمد الأمين بن محمد الشنقيطي ٩/ ٤٤٣.

مما سبق: يتضح رجحان القول بأن (العاديات) هي الخيل، وأن القول بأنها الإبل ضعيف جداً، وبعيد عن سياق السورة، وقد ذهب إلى هذا القول جمهور المفسرين، ذكرنا منهم: الطبري والرازي والقرطبي والآلوسي، ـ وذُكر أن الخبر عن سيدنا علي لا صحة له ـ.

وننقل هنا طرفاً من أقوال غيرهم:

* قال الزمخشري: «أَقسم بخيل الغزاة تغدو فتضبح، والضبح: صوت أنفاسها إذا عدون»[١] ومثله قال النسفي[٢] والبيضاوي[٣] وأبو السعود[٤].

* قال البقاعي: «و(العاديات) أي: الدواب التي من شأنها أن تجري بغاية السرعة، وهي الخيل التي ظهورها عز وبطنها كنز»[٥].

* قال الصاوي: «قوله ـ أي: السيوطي ـ الخيل تعدو في الغزو، أي: تُسرع في الكر على العدو، و(قوله: هو صوت أجوافها) أي: صوتٌ يُسمع من صدور الخيل عند العدو، وليس بصهيل ولا بهمهمة»[٦].

نقول: وبعد مثل هذا الترجيح بين الأقوال يبدأ البحث في الإطار الذي ذكرنا لفقه الإشارات الواردة في سياق فقه الإيقاع الموضوعي، **ومحاولة إدراك**

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: جار الله الزمخشري ٤/ ٧٨٦.

(٢) مدارك التنزيل وحقائق التأويل: عبدالله بن أحمد النسفي ٣/ ١٩٩٠.

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ناصر الدين أبي سعيد البيضاوي ٣/ ٦١٥.

(٤) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: أبو السعود بن محمد العمادي ٥/ ٨٩٦.

(٥) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: برهان الدين البقاعي ٨/ ٥٠٨.

(٦) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين: أحمد الصاوي ٤/ ٣٢٦.

نسيج الجمل القرآنية، وأدناه أنموذج لهذا البحث يتناول حقيقة القَسَم القرآني في السورة التي تُذكر فيها العاديات ـ والتي أشكلت على كثير من المفسرين ـ؛ **ليعطي صورة عن المنهج العلمي المتبع بشكل عام عند البحث في البناء الموضوعي للسورة القرآنية**، فنقول[(١)]:

* **تشير صيغة الجمع الواردة في القسم: (وَالْعَادِيَاتِ، فَالْمُورِيَاتِ) إلى تعلُّقه بجماعة**، خاصة حين نسب إليها فعل الإغارة وتوسط الجمع، **ويشير** القسم بها إلى **علوها**، **ونبل مقصدها**، وشرف منزلتها عند ربها منزل القرآن، **ويشير** العطف بالفاء بين أوصافها إلى أن الأوصاف الخمسة المذكورة هي لذات واحدة أو **جماعة واحدة**. قال أبو حيان: «إن العطف بالفاء دليل على أن هذه الأوصاف لذات واحدة؛ لأنه ـ أي: العطف بالفاء ـ يقتضي التعقيب»[(٢)].

ويشير التحامها بالعدو وإغارتها وتوسطها جمعه إلى **طبيعتها الجهادية**، ولم تجتمع قبل الإسلام ولا بعد عهد النبي ﷺ جماعة على الجهاد مثلما اجتمع صحابة محمد ﷺ؛ ذلك أنهم خير القرون و﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١١٠]، ويُستأنس لذلك بما ورد في مناسبات نزول السورة، دون تحديد قاطع في أي سرية أو غزوة كانت؛ لضعف أسانيد روايات مناسبات النزول.

* أشار كثير من المفسرين إلى تقسيم آيات القَسَم إلى قسمين بحسب

(١) البناء الموضوعي للسورة التي تُذكر فيها العاديات: أحمد الوتاري، ص: ٢٩.

(٢) النهر الماد من البحر المحيط: أبو حيان الأندلسي ٢/ ١٢٩٣.

طبيعة تركيبها اللغوي، فقد ذكر في الآيات الثلاث الأول من القَسَم: **الاسم** **(وَالْعَادِيَات، فَالْمُورِيَاتِ، فَالْمُغِيرَاتِ)** لتفيد وصف لحظات **الإعداد للفعل**، وذكر في الآيتين الرابعة والخامسة: **الفعل (فَأَثَرْنَ، فَوَسَطْنَ)** ليفيد **وقوعه بعد الإعـداد**، قال ابن عاشور: «جيء بهما فعلين ماضيين، ولم يأتيا على نسق الأوصاف قبلهما بصيغة اسم الفاعل؛ للإشارة إلى أن الكلام انتقل من القَسَم إلى الحكاية عن حصول ما ترتب على تلك الأوصاف الثلاثة»[١].

ونقل الآلوسي عن الطيبي: «أن الخيل وُصفت بالأوصاف الثلاثة ليرتب عليها ما قُصد من الظفر بالفتح، فجيء بهذا الفعل الماضي وما بعده مسببين عن أسماء الفاعلين، فأفاد ذلك أن تلك المداومة أنتجت هاتين البغيتين»[٢] وقال مثله ابن قيم الجوزية[٣].

* **يشير** قوله تعالى ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾[العاديات: ٢ ـ ٣] إلى: أن تلك الجماعة قد **خرجت ليلاً**، ذلك أن قدح حوافر الخيل على الصخر لا يُرى إلا ليلاً، ثم إن العطف بين المشاهَد بفاء التعقيب أفاد أن ضبح العاديات وقدح حوافرها كان قبل الإغارة في الصباح، ونقل ابن الجوزي عن الزجاج قولـه: «إذا عـدت الخيـل بالليل فأصـابت بحوافـرها الحجـارة، انقدحت النيران»[٤]، وقال الآلوسي: «هذا هو المعتاد في الغارات، كانوا يعدون ليلاً

(١) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن: محمد الأمين بن محمد الشنقيطي ٩/ ٥٠٢.

(٢) روح المعاني: شهاب الدين السيد محمود الآلوسي ٣٠/ ٢٧٦.

(٣) التبيان في أقسام القرآن: شمس الدين محمد ابن قيم الجوزية، ص: ١٠٨.

(٤) زاد المسير في علم التفسير: جمال الدين عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي ٩/ ٢٠٨.

لئلا يشعر بهم العدو، ويهجمون صباحاً ليروا ما يأتون ويذرون»[١]، وكذا قال الرازي[٢] ومثله القرطبي[٣].

* يشير تلازم ذكر ضبح العاديات مع ذكر إيرائها القدح، مع أن حوافرها لا تقدح إلا إذا كانت جارية بسرعة، إلى أن **المراد ليس مجرد بيان صورة فعل الخيل، بل تأثير ذلك الفعل على راكبها، على سمعه أولاً** ـ كما يلاحَظ في تقديم مؤشر السمع على البصر في عموم السياق القرآني، كقوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[البقرة: ٧]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾[المجادلة: ١] ـ، **ثم على بصره ثانياً**، فقدَّم ما يؤثر على السمع: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ على ما يؤثر على البصر: ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾، وكان ذلك تأثيراً مقصوداً على تلك الجماعة في مرحلة الإعداد للفعل في سيرها الليلي.

ومما يعين على زيادة وضوح الصورة لمشهد ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾: ما نقله القرطبي عن الضبح، حيث إن الخيل «كانت تُكعم لئلا تصهل فيعلم العدو بهم، فكانت تتنفس في هذه الحالة بقوة»، ثم قال: «وإنما تضبح هذه الحيوانات إذا تغيرت حالها من فزع أو تعب أو طمع»[٤].

إن ما ورد من مثالٍ أعلاه في فقه إشارات السياق على طريق معرفة مراد

---

(١) روح المعاني: شهاب الدين السيد محمود الآلوسي ٣٠/ ٢٧٦.

(٢) التفسير الكبير: محمد فخر الدين الرازي ٣٢/ ٦٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: محمد الأنصاري القرطبي ٢٠/ ١٨٥.

(٤) الجامع لأحكام القرآن: محمد الأنصاري القرطبي ٢٠/ ١٥٨.

الله، يُعد أنموذجا طيباً لكل بحث يراد به الوصول إلى فقه الإيقاع الموضوعي، خاصة في المواضع التي أبهم كشفها على المفسر الذي غاب عنه المنهج الشامل في فقه السورة، أو تعددت وجوه الأقوال فيها.

وفي كل الأحوال: فإن الدخول في إيقاع نسيج السورة يقتضي تجرداً لله وتشبعاً بروحها، من قبل فريق من العقول الذكية والأرواح المخلصة التي تدلي بطرف من فقهها الخاص في ظل ما تقدم من علوم، ثم جعل تلك الإشارات علامات على طريق تحديد المواضيع والمحاور المتنوعة المحتملة للسورة، والتعرف على التسلسل العام لورود إيقاع هذه المواضيع والمحاور، قبل الربط بينها من خلال فقه الحبكة الموضوعية، كما سنبينه أدناه.

٢ ـ فقه الحبكة الموضوعية: (من الكل إلى الجزء):

وفيه يتم التجريد الممكن لعدد محاور السورة ومقاطعها، من بين المقاصد الجزئية لمجموعات الآيات، والنظر من زوايا مختلفة لكل مجموعة وفقاً للمقصد السابق واللاحق، مع مراعاة دقيقة للمفاهيم القرآنية الكلية، بحثاً عن الخيط الرابط للنسيج الموضوعي بعد تثبيت صورة محاور السورة الجزئية في ظل خصوصيات لغتها أو مفرداتها أو الموقف النبوي أو القومي الخاص ـ إن وجد ـ الذي يؤشر طرفاً من ذلك الخيط الرابط.

وعلى سبيل المثال: فإن ما تقدم من إشارات في فقه سياق القسم القرآني في السورة التي تُذكر فيها العاديات التي أوردناها في «فقه الإيقاع الموضوعي»، تؤدي إلى خلاصة تختلف عن تلك التي أشار إليها عموم المفسرين، باعتبار أن القَسَم كان بمجرد الخيل أو بالإبل، وإنما نرى من خلالها: «أننا في هذا القسم مع جماعة من أصحاب النبي ﷺ خرجت ليلاً على خيول الجهاد في سبيل الله،

لتصل إلى عدوها عند نهايته، وقد تضمن سيرهم الليلي إعداداً خاصاً، فقد استغرق طريقهم وقتاً لبلوغ العدو عند الصباح، وهم في هذا الليل الصحراوي البهيم، وقد **تعطلت منهم الحواس حتى لا يسمعون سوى صوت الخيول المُكعمة لمنعها من الصهيل (الضبح)، ولا يرون في ذلك الظلام سوى (قدح) حوافرها على الحجارة والصخور**، وفي ذلك إشارة إلى عملية متفردة في إعدادهم النفسي لخوض المعركة عبر إيقاع خاص تجردت حواسهم فيه ساعاتٍ **لإيقاع صوت متكرر وقدح نار متقطع** يكسر ظلمة الليل، ليستجمعوا عزائمهم وتجردهم لربهم، حتى تتفتح حواسهم مع الصباح بالإغارة على العدو، **ليبدؤوا بأداء الفعل المقدس الذي أُعدوا له**، وشَرُفوا به عند ربهم.

فأقسم بأحوالهم إذ يثور غبار المعركة ويلتحم الجمع بالجمع، فيكون فيهم من قال الله تعالى فيه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

ولقد شَرَّفَت هذه الجماعة المجاهدة تاريخ بني آدم من حيث أداؤها لحق ربها، بحيث أقسم الرب بلحظات القدر العالي من الفعل التي شكلت أداءها لذلك الحق، ابتداءً من الإعداد له وحتى قمة الأداء والتلاحم مع العدو، وبذل الروح في سبيل الله، ـ تلك اللحظات غير القابلة للتكرار بمستوى الجمع ذلك، وبمستوى شرفه ﷺ ذاك ـ، فشكل القَسَم صورةً نادرةً نابضةً بالحياة، معليةً للحق، مزكيةً شأن تلك الصفوة الفريدة صحبة النبي التي أُعدت للتجرد عما سوى الله أداءً لحقه، وبذلاً لأنفسهم وأموالهم في سبيله، فأقسم الله

تعالى ـ وله المثل الأعلى وهو الأعلم ـ بحق تلك الجماعة الشريفة، في تلك اللحظات العالية الأداء لحق الله من قبل النوع الإنساني، أن ابن آدم لربه خصوصاً جاحد وكفور، قاصر عن أداء ما يجب عليه من الحق تجاهه مهما فعل، ذلك أن نعم الله لا تحصى، وجهد المخلوق أدنى مرتبة من الوصول إلى كمال الأداء لحق الله تبارك وتعالى»[1].

يلاحَظ فيما تقدم: أن نضج فقه نسيج المقطع المعين للسورة قاد إلى فقهٍ أكثر دقة لرابط محاورها اللاحقة، وهكذا في تعلق الموضوعات ببعضها، وبالطبع فإن الفقه السابق على هذا ـ والمتمثل في محاولة تعريف محاور السورة ـ يتحصل من «فقه الإيقاع الموضوعي»، وقسم كبير منه مبثوث في كتب التفسير[2]، يحتاج إلى غربلة وتصفية، وبحثٍ وفق ما ذكرنا آنفاً، يقود إلى التمهيد لإدراك الحبكة الموضوعية، حيث يمكن بعد تلمس المحاور المختلفة، وفقه إيقاع تسلسل ورودها، الشروع بالتعرف على العلاقات القائمة لكل محور مع المحور السابق واللاحق له، وتحديد الثقل الموضوعي النسبي لبعض مجموعات

---

(١) البناء الموضوعي للسورة التي تذكر فيها العاديات: أحمد الوتاري، ص: ٣٢.

(٢) على سبيل المثال: أشار معظم المفسرين بشكل أو بآخر إلى تقسيم السورة التي تُذكر فيها العاديات إلى مقاطع ثلاثة: الأول: وشكَّل المقدمة لها متمثلاً بالقَسَم الإلهي (الآيات ١ ـ ٥)، والثاني: جواب ذلك القَسَم الإلهي ببيان حقيقة بني آدم (الآيات ٦ ـ ٨)، والثالث: إنذار شامل عام لهم (الآيات ٩ ـ ١١)، وهذا الفهم وأمثاله ضروري ليشكل البداية التي تعين على فقه حبكة السورة، وهو حتى وإن لم يكن صحيحاً بالضرورة، فإنه يمثل نقطة الانطلاق التي يتم تعديلها لاحقاً وفق النقد المؤسس على أنواع الفقه السابقة للسورة، والتي يؤسس لها هذا المنهج.

المواضيع على بعض، وعلاقتها بمقدمة السورة وخاتمتها، وصولاً إلى تشخيص المقاصد الأكثر شمولاً وعمومية مما هو مراد في السورة، وهو ما يتم عمله في الخطوة اللاحقة.

٣ ـ فقه المقصد الكلي: (من بين جملة المقاصد):

وفيه يتم تجريد المحاور الثانوية من حيث دلالتها على المحور الكلي الرئيس للسورة، والبحث في ارتباط منطق العرض بالمقصد العام للسورة، في ضوء ربط المحاور مع بعضها ومع مقدمة السورة وخاتمتها بالأسلوب الذي تقدم بيانه، وكذلك في ظل كليات المفاهيم القرآنية، مع محاولة إيجاد الكلمة المحورية أو الآية أو الآيات المحورية التي تختصر «صورة نسيج السورة»، ثم انتقاء التعبير الأدق عن صورة هذا النسيج بمفردة أو جملة محتملة، يتم التحقق من صحة دلالاتها من خلال مدى دقة تعبيرها عن تلك الصورة بكل محاورها المعنوية، وهو أمر يحتاج اجتهاداً جماعياً، وقد مثلنا له فيما اخترناه من عناوين للسور الواردة نماذج تطبيقية في هذا الكتاب، من خلال ما وعيناه من ثمرات دراسة الإيقاع والحبكة الموضوعية فيها، ولا ندَّعي الصواب المطلق فيما تم اختياره، لكن نسأل الله أن لا يكون قد جانب مطلق الصواب، والمجتهد في ظل هداية الله وتوفيقه.

٤ ـ بناء أنموذج أولي للبناء المعنوي الموضوعي:

في ظل ما تقدم يتم وضع **أنموذج لخط البناء الموضوعي للسورة**، يؤطره عنوان مقصدها الكلي، ويعرف في ثناياه عناوين المحاور الجزئية وتسلسها الموضوعي، مبتدئة بالمقدمة، ومنتهية بخاتمة السورة، وموضحاً فيه العلاقات العامة لهذه الأجزاء ببعضها، مما يعطي صورة أولية عن معناها الكلي.

إن بناء هذا الأنموذج يشبه عملية بناء الصورة التقريبية للحقائق التي لا يمكن إدراكها الدقيق بوسائل العلم المعروفة في العلوم التطبيقية، وذلك من خلال ما يتوفر من معلومات عن خصائصها، تسهم في بناء أنموذج أولي، يصدق عليه ما عُرف من تلك الخصائص، مما يساعد في عملية تصور حقيقته، ولا شك أن الصورة المعنوية الكلية المعجزة الكامنة في السورة أصعب تمثيلاً، ذلك أنها تهيئ الوعي الإنساني لتلمس الإعجاز، وتذوق الفرق بين علوم الخلق جميعاً وبين العلم بكلام الله العظيم.

٥ ـ نقد الأنموذج وإعادة البناء:

مهما تطاول البشر في دعواه، يبقى الوعي الإنساني قاصراً عن الإحاطة بما يعجزه، ومهما بذل من جهد للتوصل إلى فهم يقرب من نسيج المعنى الكلي، فإن ما يبنيه من نماذج تبقى مرشحة للمزيد من النقد وإعادة الصياغة، وفقاً لتباين العقول، وقدرتها في فقه النص، وتمكنها من أدوات التعبير، ووفقاً لهداية ربها لها قبل كل شيء، ولذلك وجب **إدامة إعادة النظر في الأنموذج من زوايا جديدة، تنطلق من تحديد أكثر دقة لحقائق معاني السورة وللعلاقات البينية في نسيجها المعنوي**، وكلما نشأ نقد علمي جديد للأنموذج، فإنه يجعله بعد التعديل في مرحلة أرقى وأكثر دقة في التعبير عن الحق، ونقل تذوق الإعجاز المعنوي إلى الخلق.

وبعد...

إن كل ما ستراه في هذا الكتاب من نماذج في بيان خط البناء الموضوعي للسور مجرد محاولات أولية، وهي رغم كونها ثمرات جهد فردي إلا أنها

اعتمدت على خلاصـات ما وصلت إليه يد الباحث من علوم أهل التفسير، وقادت إلى هذه الثمرات.

ورغم الإقرار بقصـور النماذج المعروضة في هذا الكتاب عن الكمال المنشود، ولكن نقول: **إن الفهم الجزئي لبعض ملامح الصورة الكلية خير من الفهم التجزيئي الذي يُبعد عن إدراك روح المعجزة المعنوية الكامنة في السورة**، ويقصرها على فقه الإعجاز البياني أو العلمي للجملة القرآنية، وإن الحكم الفصل في هذه القضية ينطلق من مطالعة الثمرات، وهي بين يديك في ست عشرة سورة تضمنها هذا الكتاب، وفي سواها مما لم يتضمنه، ويكفيك فيها مقارنة ما ورد في السورة التي تُذكر فيها (العاديات) أو (الهمزة) أو (المسد) بأي نص تفسـيري للسـورة ورد في كتب التفسير المعتبرة، لتعرف قدر هذه الثمرات، على أنها نماذج أولية ستنضج ـ بإذن الله ـ كلما كثر النقد، واجتمعت العقول لإصـلاح الخطأ المحتمل، أو لإتمام النقص القائم، ويكفي ما ورد هنا أن يكون نواة لبداية فقه جديد شامل للسورة القرآنية، يفتح أبوابا جديدة وعظيمة في الدعوة والإصـلاح بهذا القـرآن، ولعلها تقود إلى تذوق جمال الإعجاز المعنوي الذي معه ترتقي نفوس الخلق مراتب طيبة على طريق الاسـتعداد للقـاء الله، إلهنا الحـق الذي أوحى إلى قلب نبيه ﷺ هذا الروح المعجز، ليرقى بهذه النفوس في مدارج معرفته ومعرفة مراده، وفي العمل بما علمت من الحق استعداداً لذلك اللقاء.

❐ ❐ ❐

فِقْهُ ٱلسُّورَةِ ٱلقُرآنِيَّةِ

نَماذج تَطْبِيْقِيَّة في ٱلتَّفْسِيرِ

وفقَ مَنْهَج دِراسَةِ ٱلبِناءِ ٱلمَوضُوعي لِلسُّورَةِ ٱلقُرْآنيَّةِ

من وحي
السورة التي تُذكر فيها الزلزلة
(٩٩)

ما بعد الاستخلاف في الأرض

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]

البناء الموضوعي للسورة القرآنية
من وحي السورة التي تذكر فيها الزلزلة

(٩٩)

ما بعد الاستخلاف في الأرض

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[الأنبياء: ٤٧]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا
لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ
أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾.

* مقدمة:

في الأرض[١] بدأت قصتنا من حين: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[البقرة: ٣٠]، فكان أن تناغمت معها خلقتنا حتى جُعلت أجسادنا من طينها مخلوقة، وإلى طينها تعود، ومنه تخرج للقاء الله: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[طه: ٥٥]، فهي تكفتنا كأم لنا،

(١) تكرر ذكر (الأرض) صراحةً أو بما ينوب عنها من ضمير ظاهر أو مستتر ثماني مرات في هذه السورة ذات ثماني الآيات، عدا ذكر متعلقاتها.

أحياءً على ظهرها وأمواتاً في بطنها: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٥ ـ ٢٦]، وقد خلق لنا ربنا ما فيها: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[البقرة: ٢٩]، وجعلها مستقرنا المؤقت: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[البقرة: ٣٦]، ومهدها لنا: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾[النبأ: ٦]، وجعلنا فيها أجيالاً: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[يونس: ١٤]، وقسم لنا فيها أرزاقنا: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[هود: ٦]، ويسر لنا تلك الأرزاق فيها: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[الملك: ١٥]، وأمرنا باستعمارها: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[هود: ٦١] ونهانا عن الفساد فيها: ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾[البقرة: ١١]، وزين لنا ما فيها لنحقق جدارة الاستخلاف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[الكهف: ٧].

وهذه الأم الطيبة مخلوقة طائعة لربها: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[فصلت: ١١]، تلفظنا من جوفها وتتخلى عنا عند نهاية قصتنا فيها: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾[الانشقاق: ٤]، بل وتشهد على ما كان منا: «تحفظوا من الأرض فهي أمكم، وإنه ليس من أحد عامل عليها خيراً أو شراً إلا وهي مخبرة به»[1]، يُنطقها رب كل شيء: ﴿قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: ٢١]، حين تلبي النداء وتأذن لربها: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾[الانشقاق: ٢]، كما نلبيه نحن جميعاً: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٥/ ٦٥) وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٢٤١): (وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف).

دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ﴾[الروم: ٢٥]، فينتهي الاستخلاف المؤقت؛ لأن الوارث العظيم للأرض ولخلفاء الأرض هو خالقهما: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾[مريم: ٤٠]، **ولا يبقى من قصة استخلافنا فيها سوى حصاده.**

*** خط البناء الموضوعي للسورة:**

(ما بعد الاستخلاف في الأرض)

١ ـ تحقيق حتمية وقوع نهاية الاستخلاف في الأرض: (إِذَا)

٢ ـ علامات وقوع نهاية الاستخلاف:

* فعل الله: أمر للأرض: ﴿زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا﴾.

* **فعل الأرض** (موضع الاستخلاف): **طاعة رب الأرض**: ﴿وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا﴾.

* **فعل الإنسان** (خليفة الأرض): **بلا حول ولا قوة**: ﴿وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾.

٣ ـ حال الأرض وخلائفها يوم نهاية الاستخلاف:

* حال الأرض: ﴿يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا﴾.

* حال الناس: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتٗا لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾.

٤ ـ ما بعد الاستخلاف: الجزاء على كل فعل أداه إنسان في كل لحظة مدى استخلافه:

* **في الخير**: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ﴾.

* **في الشر**: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾.

* **العرض:**

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾:

هذا بيان من الله خالق الأرض وخالق الناس الذي استخلفهم فيها، أن وعداً عليه حقاً أن يكون لهذا الاستخلاف المؤقت يوم أخير قادم كائن حتماً، يعرفونه بعلاماته، مما سيكون من **أمر الله** إلى الأرض، ومن **شأن الأرض**، ومن **حال** خليفتها **الإنسان**: فـ (إذا[1]) جاء اليوم المقطوع مجيئُه: **﴿زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ[2]﴾**، إذ يحرك الله العظيم **بأمره** الأرض تحريكاً شديداً مكرراً من أسفلها، يعم الأرض جميعاً: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾[الواقعة: ٤]، وهو **﴿زِلْزَالَهَا﴾** الموعود المهول الأخير الأعظم: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾[الحج: ١]، تستجيب **الأرض** فيه كلها لأمر ربها **طائعة**، وتُخرج به ما أودع في جوفها من الدفائن التي أثقلتها من أجيال الناس بعد موتهم، وما سواهم: **﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾**، فيخرجون أحياءً من بطنها بعد موتهم بإذن الله: ﴿يَوْمَ

(١) قال الرازي في مفاتيح الغيب، ٣٠/ ٤٠: «قالوا ـ أهل اللغة ـ: كلمة (إن) في المجوز، و(إذا) في المقطوع به، تقول: (إن دخلت الدار فأنت طالق)؛ لأن الدخول يجوز، أما إذا أردت التعليق بما يوجد قطعاً لا تقول: (إن) بل تقول: (إذا)، نحو (إذا جاء غد فأنت طالق)؛ لأنه يوجد لا محالة، هذا هو الأصل، فإن استعمل على خلافه فمجاز، فلما كان الزلزال مقطوعاً به قال: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾»، كما قال البقاعي: «معبراً بأداة التحقق؛ لأن الأمر حتم لا بد من كونه».

(٢) قال في التحرير والتنوير، ٣٠/ ٤٨٩: ((زُلزل) مأخوذ من (الزلل): وهو زلق الرجلين، فلما عنوا شدة الزلل ضاعفوا الفعل للدلالة بالتضعيف على شدة الفعل، كما قالوا: كبكبه: أي كبّه، ولملم بالمكان: من اللم).

﴿تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾[قٓ: ٤٤]، حتى تتخلى وتلقي ما أودع فيها من الموتى وغيرهم: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾[الانشقاق: ٤ ـ ٥]، فيخرج خليفتها **الإنسان** إلى الحياة بعد موته المؤقت، مشدوهاً مبهوتاً برؤية ما لم يعهده من الأرض، فلا يملك الصبر على السكوت، ويتساءل عن قصدها كأنها (مريدة) لما حصل! متعجباً حائراً فزعاً: مالها تتزلزل وتُخرج الأثقال[1]؟ ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾؟ لما يرى من الهول وشدة العجز، ويرى نفسه على الأرض وقد نزع منه **القوة والحول**، بعد أن كان يوماً ما في الدنيا مستخلفاً فيها ذا حول وطول!

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾:

تتغير حال الكائنات بعد يوم زلزال الأرض العظيم ونهاية استخلاف الإنسان فيها، وإنما يخص ذلك اليوم مخلوقين عظيمين، الأول: «الأرض» موضع الاستخلاف، والثاني: «الإنسان» الخليفة، فأما حال الأرض (إذا) زلزلت زلزالها:

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾: أي زمان الزلزال تُحدِّث الأرضُ الناسَ أخبارَها، من شأنها بسبب وحي ربها: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ[2] لَهَا﴾، وتنطق عن

---

(١) قيل: هذا قول الكافر يوم البعث: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾، فيأتيه الجواب الحق: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾[يسٓ: ٥٢].

(٢) قال في التحرير والتنوير، ٣٠/ ٤٩: «وعُدي فعل (أوحى) باللام لتضمين (أوحى) معنى (قال)، كقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾، وإلا فإن حق (أوحى) أن يتعدى بحرف (إلى)، والقول المضمن هو قول التكوين، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾».

نفسها بأن ربها أوحى إليها الأمر: فأطاعت **بلسان حالها** بأن تتزلزل وتُخرج أثقالها، وأطاعت **بلسان مقالها** بأن تتحدث بأخبار ما حصل منذ جعل الله فيها الإنسان خليفة، وتشهد على الناس الذين استُخلفوا فيها بما عملوا من صلاح وخير، أو فساد وشر، مدى استخلافهم فيها، إذ ينطقها الله: ﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[فصلت: ٢١]، كما رُوي أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾، فقال: «أتدرون ما أخبارها؟»، قالوا: «الله ورسوله أعلم»، قال: «فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأَمَة بما عَمِل على ظهرها، أن تقول: عمل كذا وكذا، يوم كذا وكذا، فهذه أخبارها»(١) ورُوي أنه قال: «تحفَّظوا من الأرض فإنها أمكم، وإنه ليس من أحد عامل عليها خيراً أو شراً إلا وهي مُخبرة به»(٢).

ولمثل هذا اليوم كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إذا فرغ بيت المال صلى فيه ركعتين، ويقول: «لتشهدن أني ملأتك بحق وفرغتك بحق»(٣)، تحفظاً من حديث الأرض عن خليفتها في ذلك اليوم العظيم.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْاْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾:

وأما الناس ـ خلفاء الأرض ـ فسيعلمون ذلك اليوم أن الزلزال كان إنذاراً ببعثهم:

---

(١) رواه أحمد في المسند (٢/ ٣٧٤)، وهو في سنن الترمذي، برقم (٣٣٥٣) وسنن النسائي الكبرى، (رقم ١١٦٩٣)، وقال الترمذي: (هذا حديث حسن صحيح غريب).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) التفسير الكبير: محمد فخر الدين الرازي ٣٠/ ٤٠.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ﴾: حين الزلزال الأكبر ينصرف الناس جميعاً بكل أجيالهم خارجين عن باطن الأرض راجعين في سرعة إلى ظاهرها بعد بعثهم، ﴿أَشْتَاتًا﴾: متفرقين أصنافاً وجماعات: في صفة وجوههم بحسب ما قدموا من خير أو شر: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾[عبس: ٣٨ ـ ٤١]، وفي تفرق جماعتهم في كل ناحية من الأرض: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾[القمر: ٧]، وفي تفرق أئمتهم التي بها يدعون: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾[الإسراء: ٧١]، ﴿لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾: ليريهم الله العظيم أعمالهم في الأرض التي استودعت كتباً مفصلةً: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، فيقرأ كل منهم حصيلة فرصة استخلافه المؤقتة في الأرض: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[الإسراء: ١٤].

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾:

بعد بسط حال الأرض وخليفتها يوم زلزالها، وتحديثها خلفاءها أخبارها بعد وحي الله لها، تبسط السورة حصاد ما بعد الاستخلاف، وقد انمحت آثار الوجود الإنساني وإنجازات أجياله في الأرض، وصارت تراباً مجرداً: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾[الكهف: ٨]، ولا يتبقى سوى الحساب والجزاء، على كل فرصة لفعل أوتيها إنسان استخلفه الله في الأرض ولو للحظة، في نفسه أو غيره أو شيء:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾: و«المثقال»: ما يُعرف به ثقل

الشيء الدقيق، وهو كـ «الميزان» في معناه، و«الذرة»: تطلق على أصغر النمل، والمراد بها: أصغر ما يمكن من شيء، و«العمل»: مطلق ما يكون من الإنسان من حركة؛ في القلب بالنية أو بالقول أو بالفعل في الأرض، فمن كانت منه مدى استخلافه في الأرض حركة: بنية في سريرته، أو قول بلسانه، أو فعل ببدنه في **الخير**: ـ بالإخلاص لربه، أو بالعدل مع خلقه، أو بالإصلاح لشيء استخلفه الله فيه ـ قلَّ أو كثر، ولو بقدر ثقل أصغر ما يمكن من شيء: يَراه حاضراً لا يغيب منه شيء[1]، مكتوباً عليه ومجازىً به، فأما المؤمن فيفرح بما يراه سبيلاً لرفعته في الدرجات التي أعدها ربه، وأما الكافر فتشتد حسرته؛ لأنه قد استوفى نصيبه مما عمل من خير «خيراً» يقدره الله له في الدنيا فحسب، كما روى الإمام مسلم في صحيحه عن رسول الله ﷺ قال: «إن الكافر إذا عمل حسنةً أُطعم بها طعمةً في الدنيا، وأما المؤمن فإن الله تعالى يدخر له حسناته في الآخرة، ويعقبه رزقاً في الدنيا على طاعته»، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾[النور: ٣٩]، **وإنما تعظم وتصغر أثقال الأعمال بالنيات، ثم بما يترتب عليها من أثر في الأرض إلى يوم القيامة.**

﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾: ومن كانت منه مدى استخلافه في الأرض حركة: بنية في سريرته، أو قول بلسانه أو فعل ببدنه في **الشر**: ـ بالكفر أو الشرك بربه، أو بالظلم لخلقه، أو بالإفساد لشيء استخلفه الله

---

(١) ذكر الرازي في مفاتيح الغيب، ٣٠/ ٤٢: قال ابن عباس: «ليس من مؤمن ولا كافر عمل خيراً أو شراً إلا أراه الله إياه، فأما المؤمن فيغفر الله سيئاته ويثيبه بحسناته، وأما الكافر فترد حسناته ويعذب بسيئاته».

فيه ـ قلَّ أو كثر، ولو بقدر ثقل أصغر ما يمكن من شيء: يراه حاضراً لا يغيب منه شيء، مكتوباً عليه ومجازىً به، فأما المؤمن فيفرح بما يراه ويعلم أنه قد غُفر له ليشتد فرحه، وأما الكافر فيراه ويشتد حزنه وترحه على ما فرط في جنب ربه الذي استخلفه، وما أضاعه من حياة واستخلاف جديد ممدود بعد نهاية الاستخلاف الأول المؤقت في الأرض.

*** صورة من جلال المعنى القرآني(١):**

(من وحي السورة التي يذكر فيها زلزال الأرض)

إلى خلفاء الأرض:

هذا بيان من خالق الأرضِ إلى من استخلفهم في الأرضِ!

اعلموا يا من أنتم اليوم خلفاء في الأرضِ، أنه سيكون حتماً زلزالٌ أكبر في الأرض، يُنهي يوم يأتي استخلافَ جنسكم في الأرض، فـ:

«إذا زَلزلَ ربُّ الأرضِ الأرضَ زِلزالَ الأرضِ الأكبر

وأخرجت الأرضُ ـ ما ضمَّته الأرضُ ـ من أثقالِ الأرضِ

وقال الإنسانُ ـ خليفة الأرضِ ـ: ما للأرضِ؟

(١) هذه محاولة لتأدية معنى السورة الكلي بإظهار المضمر وذكر المحذوف، مما هو دون التفوق المطلق للاستثمار القرآني لمكامن قدرات اللغة، وصياغته للجملة العربية المفيدة للمعنى في جوامع للكلم تأخذ بمجامع القلوب، والهدف من هذه المحاولة بيان الإعجاز المعنوي الكلي للسورة القرآنية الواحدة، الذي يمكن للوعي الإنساني تلمس ملامحه بمجرد تعريض العقل والقلب لهذا المعنى، ليستيقن أن مثلَهُ مما لا يمكن أن يخطر على وعي إنسان مثلِهِ، فضلاً عن أن ينتجه بهذا الأسلوب، وبهذه القدرة على استعمال اللغة كوسيلة لإظهار ذلك المعنى.

يومئذ تُحَدِّثُ الأرضُ أهلَ الأرضِ أخبارَ الأرضِ:

بأن ربك ـ يا من أنت اليوم خليفة الأرضِ ـ أوحى إلى الأرضِ:

(لتتـزلزل الأرضُ، ولتخرج الأرضُ أثقالَ الأرضِ)

يومئذ يصدر الناس ـ خلفاء الأرضِ ـ أشتاتاً في الأرضِ

ليريهم رب الأرضِ: أعمالهم في الأرضِ

فمن يعمل مثقال ذرة خيراً في الأرضِ ـ قبل يوم زلزلة الأرضِ ـ:

يره خيراً بعد يوم زلزلة الأرضِ

ومن يعمل مثقال ذرة شراً في الأرضِ ـ قبل يوم زلزلة الأرضِ ـ:

يره شراً بعد يوم زلزلة الأرضِ»

فقط اسأل نفسك: هل يمكن لوعيٍ بشريٍّ أن يُنتج مثل هذا المعنى؟!

*** خاتمة:**

تتضافر قوى الكون لتصنع لك من العمر لحظة، إذ تتفجر ذرات الشمس لتلد لك النور، وتدور الأرض الطيبة حولها لتتلقى ذلك النور، وتصعد قطرات الماء وتنزل مطراً لتهيئ للحياة في الأرض، وفيها تتخلق خلايا جسمك الصغيرة وأجهزته المعقدة المخلوقة من طين الأرض، ومعها قوى غيرها لا حصر لها تتعاون لتهيئ لك اللحظة وأنت تقرأ هذه الكلمات، ثم لتصنع لك الفرصة لتعمل عملاً تستحق به وجودك هذه اللحظة، وأنت لا تزال مستخلفاً في الأرض.

وكما تتضافر جهود الكون لتصنع لك لحظة، فحق عليك أن تحاسب على (الذرة) من عمل تصنعه في لحظة، فلا تحقرن أصغر فعل يصدر منك،

فرُبَّ كلمة أو حركة منك تقرر مصيرك النهائي بعد انتهاء استخلافك المؤقت وزلزلة الأسس التي قامت عليها كل الحصيلة المادية للجهد الإنساني في الأرض، ولا يبقى سوى ما قدَّمته في كل لحظة.

حين صادف قول الله قلباً حيّاً كقلب الصحابي صعصعة بن معاوية: حين أتى النبي ﷺ فقرأ عليه: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾، قال: «**حسبي! لا أبالي ألا أسمع غيرها**»[1]، وكذا قلب عبدالله بن مسعود حين قال: «**هذه أحكم آية في القرآن**»، وذلك مما تعلموه من سيد الخلق ﷺ بقوله: «اتقوا النار ولو بِشِقِّ تمرة، ولو بكلمة طيبة»[2]، وقوله: «لا تَحْقِرَنَّ من المعروف شيئاً، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط»[3]، وقوله: «يا نساء المؤمنات لا تحقرن جارة لجارتها ولو فِرْسَنَ شاة» ـ يعني: ظلفها ـ[4]، لعل قلبك يتعلم أن لا يحقر شيئاً من عمله خيراً كان أو شراً، ولا يقول: هذه صغيرة لا حساب لها ولا وزن، إنما يرتعش وجدانه أمام كل عمل من أعماله؛ **لأنه يعلم أن مجرد خاطرة صغيرة تمر في لحظة أحب فيها الخير، أو أبغض فيها الشر، في رفع لقمامة، أو حتى ابتسامة، فإنه سيراها يوم زلزلة الأرض!**.

❒ ❒ ❒

(١) رواه أحمد في المسند (٥/ ٥٩).
(٢) رواه البخاري، برقم (٧٥١٢).
(٣) رواه مسلم برقم (٢٦٢٦).
(٤) رواه البخاري برقم (٢٥٦٦).

من وحي
السورة التي تُذكر فيها العاديات
(١٠٠)

بين حق الله... وأفعال العباد

البناء الموضوعي للسورة القرآنية من وحي السورة التي تُذكر فيها العاديات

(١٠٠)

بين حق الله . . . وأفعال العباد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ۝١ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ۝٢ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ۝٤
فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ۝٥ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُ
لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۝١٠
إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ .

* مقدمة:

للعمل الإنساني قدر من حيث كونه عملاً لكائن «مختار» مكرم عند الله في الوجود، وخير ذلك العمل ما ابتغى به عامله وجه خالق الوجود! لأنه المستحق للعبادة والشكر: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[المؤمنون: ٧٨].

وليس كالجهاد في سبيل الله أداء لحق الله سبحانه وتعالى على الخلق، وقد يظن الناس بأنفسهم خيراً ويأخذهم العجب وهم يؤدون بعض حقه سبحانه في صلاة أو صيام أو صدقة، وقد يزيد العجب لو زادوا ركعات في الليل أو صدقات أو آيات أو علم يحفظ، وكل ذلك ليس كالجهاد، يقول تعالى: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[النساء: ٩٥]، فهو ذروة سنام الأمر،

وعلى أنه أنواع ومراتب فإن أعلاها جهاد المقاتلة، وحتى في جهاد المقاتلة، فإن المجاهد وهو في انتظار المعركة غيره عند الالتحام ـ إذ يتوسط الجمع الجمع ـ، **فلحظات بذل الروح والدم في سبيل الله حين لقاء عدو الله، هي أعلى ما يُتصور من أنواع الجهاد أداءً لحق الله!** .

*** خط البناء الموضوعي للسورة:**

(بين حق الله وأفعال العباد)

١ ـ **قَسَم**: بقدر **لحظات خاصة من تاريخ بني آدم** لنماذج عالية في أدائها لحق الله:

*** الإعداد للفعل**: ﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ① فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ② فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾ .

*** حصول المقصود**: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ④ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ .

٢ ـ **جواب القسم**: مهما كان قدر الأداء الإنساني **فهو بعيد عن قدر الحق الإلهي**:

*** الإنسان كفور** للمنعم: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ .

*** شاهد** على كفره للمنعم: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ .

*** متعلق بالنعمة** بدل المنعم: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ .

٣ ـ **تذكير بمآل الخلق**: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ⑨ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ .

٤ ـ **وعيد** بالحساب والجزاء: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ﴾ .

* العرض:

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾:

يُقسم الله سبحانه ـ وله المثل الأعلى وهو الأعلم ـ بوقفة خاصة من تاريخ بني آدم، في لحظات يندر أن تتكرر، قضتها على خيول الجهاد نماذج إنسانية فريدة خرجت بأمر محمد ﷺ لغزوةٍ[1]، رجال أنجبتهم مدرسة أعظم مُرَبٍّ يتنزل عليه الوحي بالقرآن طرياً، لتلين به قلوب تلك الصفوة وجلودهم إلى ذكر الله.

واجتهد يا أخي أن ترى نفسك موضع الرجل منهم، وقد ناداه منادي رسول الله ﷺ **ليلاً**، أن: (حيَّ على الجهاد)، فخرج تاركاً وراءه همومه وماله وبيته وزوجه وأولاده وما يملك، وانظر إليه في ذلك الرهط على دابته وقد توغل في الفلاة، وأحاط به **ظلامها العميق وصمتها المطبق**، فتعطَّل منه **السمع والبصر**، وتضاءل همه والعالم من حوله، **فلا يسمع** سوى صوت الخيل المجهدة وهي تعدو: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾، **ولا يبصر** سوى شرر انقداح حوافرها بالصخر والحجر: ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾، أي قلب هو قلبه!، وأي تنقية أرادها الله له في تلك اللحظات!، ليكون **أول ما تتفتح عليه حواسه** عند الصبح

---

(١) روى البزار وغيره بسنده «أن رسول الله ﷺ بعث سرية إلى أناس من بني كنانة فأبطأ عليه خبرها، وكان استعمل عليهم المنذر بن عمرو الأنصاري، وكان أحد النقباء، فقال المنافقون: إنهم قُتلوا، فنزلت هذه السورة إخباراً للنبي ﷺ بسلامتها، وبشارة له بإغارتهم على القوم الذي بعث إليهم»، وفي سنده ضعف.

هو: الإغارة ومواجهة العدو: ﴿فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا﴾، **في طريقه لأداء حق الله**، وليتصاعد غبار المعركة في الميدان: ﴿فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا﴾، وليلتحم ويحيط بعضهم ببعض: ﴿فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا﴾، ولتدور دائرة الحياة على لحظاتٍ لا يعود للجسد فيها من الروح نصيب!

في مثل تلك اللحظات ترتقي القلوب وترشد، وتتجلد على مرارة الأشياء وتتجرد، وتكون لله أعبد ما تكون، **ولا يُتصور أن تكون مثلها لحظات يؤدي فيها ابن آدم حق الله، خاصة وأنهم صحابة محمد ﷺ، وخاصة بعد جو الإعداد ذاك!**[١].

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ﴾:

يُقسم الله سبحانه ـ وله المثل الأعلى وهو الأعلم ـ بقدر تلك الهمم العالية في البذل والإخلاص وأداء حق الله، في تلك اللحظات المباركة التي خاضتها بإيقاعاتها تلك الصفوة، ـ القاصرة مهما كان منها البذل عن أداء ذلك الحق ـ[٢]: أن الإنسان لنعمة ربه خصوصاً شديد الكفران، وأنه في أداء

(١) وانظر ما ذكرناه في المقدمة العامة في منهج البحث في البناء الموضوعي من هذا الكتاب، من إشارات على طريق فهم البناء الموضوعي لهذه السورة بالذات، عند الحديث عن فقه الإيقاع الموضوعي ص: ٣٠ إلى ص: ٤٠، وفقه الحبكة الموضوعية ص: ٤٠، وهو منقول من بحثنا الموسوم: البناء الموضوعي للسورة التي تُذكر فيها العاديات، لعل فيه حجة كافية للبرهنة على صحة ما تم اعتماده من فهم للقَسَم في السورة، كما أنه يعطي صورة عن طبيعة المنهج المتبع في عموم هذا الكتاب في «فقه السورة القرآنية».

(٢) يقول رسول الله ﷺ: «لا يُدخل أحداً الجنة عَمَلُهُ» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: =

حقه مقصر: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾، فكالأرض الكنود التي تأبى أن تبث الثمر على ما بذل حارثها فيها من جهد وبذر، كنا نحن يا أخي: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[الملك: ٢٣]، وأبلغ الكفران كفران ابن آدم، وهو يشهد في كل تحريكة وتسكينة المنة والفضل من ربه: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾.

وإن تاريخنا الفردي والجماعي شاهد مؤسف على جحودنا ألوهية الخالق، فبدلاً من أن تتعلق الأفئدة بالواهب المنعم تراها وقد تعلقت بالهبة والنعمة: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾، تعلقٌ بالغٌ بمالٍ زائلٍ، ومنعه أن يُؤدَّى في حقه، فاجتمع فينا شهود الفضل وجحوده، يدفعنا إلى ذلك إنكارنا فطرتنا، وتعلقنا بالدنيا مع خوف الموت المعلَّق على رؤوسنا، وضعف يقيننا بالحياة الآخرة والبعث والحساب.

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ﴾:

«ثم تجيء اللفتة الأخيرة من السورة لعلاج الكنود والجحود والأثرة والشح لتحطيم قيد النفس وإطلاقها منه، مع عرض مشهد البعث في صورة تُنسي حب المال وتوقظ من غفلة البطر»[١]: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾، فكأننا لا نعلم ـ وهذا العلم في فطرنا ـ هول مطلع يوم أن يُبعث ويُنثر ما في باطن الأرض وتُنشر وتُجمع الأجساد من القبور ودقائق

= «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بمغفرة ورحمة» رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، برقم ٦١١٢.

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب ٨/ ٦٣٩.

النوايا من الصدور، وما أخفيناه عن سوى الله العليم العظيم، وذلك يسيرٌ يسير على الخالق السميع البصير، وويل لمن يناقش الحساب يومئذ ـ وهو لم يناقش قبل ـ فمن نوقش عُذِّب، ورب الناس عالم بدقائق شؤون خلقه، فهو الذي رباهم وتدرج بهم في وجودهم في الحياة أطواراً، وفي مراحل هذا الوجود أطباقاً: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾.

ووالله ما ندري ما يفعل الله بنا ونحن على ما ترى، ولن يسع تقصيرنا الشديد إلا رحمة من وسعت رحمته كل شيء، وفضله الذي يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

تذكر! وأنت تبذل بعضاً مما عندك في سبيل الله، أولئك الرجال في تلك اللحظات الخالدة، (المقصرين) في جنب الله، وانظر مكانك منهم، ومكانك من نفسك ومن ربك، واستغفر الله على تقصيرك الكبير، وقل كما أُمرت أن تقول: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[البقرة: ٢٨٥].

*** خاتمة في ظلال البناء الموضوعي للسورة:**

إن دعي النبوة، وإن كنت أنا أو كنت أنت، لا يرمي ببصرك إلى بعد حيث يتحد المكان والزمان في قدرٍ من الفعل بين الإنسان وربه، إذ علمُ حيثيات علاقة أغوار النفوس بربها قد اختص به خالقها، ويمنعنا منه قلق الموت المجهول في عقولنا، وطبيعة المقدمات المركوزة في غرائزنا وتفكيرنا، والأمر هنا ليس إيقاع أحداثٍ ينسجها «خيال» روائي محكوم بالموت، **وإنما صورة لقدرٍ من الفعل عالٍ، ومركزٍ ارتقى بالنموذج ارتقاءً واقعياً باتجاه الحقيقة العظمى: (الله).**

وهكذا تشهد في السورة براعة وإيجاز تصوير إيقاعات **وصف الإعداد وفعل الالتحام** المدبرة من اللطيف القادر، للوصول بتلك الزمرة من الرجال ـ الأولياء المخلصين الذين ليسوا بأنبياء ـ **إلى الذروة في أداء حق الله**، ثم استثمار صورة ذلك النموذج الفريد للموازنة بحقيقة كفرانك لنعمة الخالق، وكأنك كالأرض المجدبة مع شـهادتك على نفسك بذلك وتعلقك الساذج الخائف بالمال لبعدك عن حقيقة الوجود، ثم نقلة التهديد من القادر الخبير بعباده إذ يشير إلى يُسر حشر الأجساد والنوايا عليه، وإضماره الجزاء لتهويله! .

إن علاقة وعينا ذي المطامح المحدودة مهما اشتط في ادعائه لا ينطق بهذه القـوة ـ وهو القلـق الخائـف ـ في: «طي صـفحة الحياة»، وفي تقويم الفعل الإنساني وموازنتـه بحق خالق الفعل وخالق فاعله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾[الصافات: ٩٦]، وهذا هو إعجاز المعنى الذي هو أعلى من أن يرد في خاطرٍ إنسـانيٍّ ذليلٍ مقَّيدٍ بقيود «الزمان» و«المكان» و«حدود فرصة التلقي والأداء»، و«قصور القدرات الذاتية على الفعل».

وقد شهدت في هذه السورة ـ مع كل ما تقدم ـ إثبات ربوبية الخالق، ووجوب تأليهـه بالعمل الصـالح أداءً لحقه، وإثبات اليوم الآخـر والحشـر والحساب، وإثبات النبوة بتصديق القرآن، فهي ـ مثل كل سورة ـ تجمع كل مفردات العقيدة الإسلامية، وتكفي وحدها حجة للحق على الخلق، فهلا تكون على هذا الحق شهيداً؟ .

❑ ❑ ❑

من وحي
السورة التي تُذكر فيها القارعة
(١٠١)

قدر أعمال العباد

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ [الأعراف: ٨]

البناء الموضوعي للسورة القرآنية
من وحي السورة التي تُذكر فيها القارعة

(١٠١)

قدر أعمال العباد

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾[الأعراف: ٨]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾.

* مقدمة:

كما خلق الله تعالى الوجود بالحق: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾[الأنعام: ٧٣]، فقد وعد بأن يعيد الخلق للحساب على ما كان منهم من عمل: ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[النحل: ٩٣]، وبأن يكون وزن الأعمال للحساب بالحق: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[الأنبياء: ٤٧]، كما أن الحق وحده يجعل للعمل قدراً يُثقل الميزان: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[الأعراف: ٨]، وأما الباطل فيذهب هباءً منثوراً: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[الفرقان: ٢٣].

وكما أن الله قد بدأ أول خلق من دخان مختلط نشأت منه الأشياء، فإنه سيعيده، وستموج بعض الأشياء ببعضها جميعاً حين يُنفخ في الصور: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾[الكهف: ٩٩]، وتختلط الأشجار والبحار والنجوم والجبال، مع أجساد الناس المقبورين والديناصورات القديمة والأسماك والتراب، وهكذا مع كل ذرات الوجود، فلا يعود لشيء هوية ولا ملامح، وإنها لحظة مائجة رهيبة، يوم تأتي «قارعة» تَقرَع الوجود، وتُقرَع فيها كل الأشياء بكل الأشياء، ومعها تُقرع بعض ذراتنا في البعض من ذرات كل شيء آخر، ولا يبقى خالصاً إلا وجه ربك الملك القهار!، ثم يُنفخ في الصور للجمع، فتستخلص ذرات كل منا من بين ذلك الخليط الهائل العجيب: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ﴾[قٓ: ٤]، ويعاد جمع كل منا جمعاً دقيقاً: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾[القيامة: ٤]، ليكون حسابه **بالحق** مع الله رب العالمين!

*** خط البناء الموضوعي للسورة:**

١ ـ **تقرير الوقوع المهول ليوم لقاء الله:** ﴿ٱلْقَارِعَةُ ① مَا ٱلْقَارِعَةُ ② وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾.

٢ ـ **وصف حال الموجودات في ذلك اليوم:**

*** الناس:** متفرقة الآحاد: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾.

*** الجمادات: متفرقة الأجزاء:** ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾.

٣ ـ **موقف من عمل صالحاً على مراد الله واستعدَّ للقائه:**

* **الحساب**: ثَقُلَ قدر ما عمله في الأرض: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾.

* **الجزاء**: في حياة بلا موت، فأمه جنة عالية: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾.

٤ ـ **موقف** من فسد عمله ولم يستعد للقاء الله:

* **الحساب**: خَفَّ قدر كل ما عمله في الأرض: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾.

* **الجزاء**: لا يموت ولا يحيى، فأمه نار هاوية: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾.

* **العرض**:

﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾:

هذا خبر من الله خالق الوجود، أن ﴿ٱلْقَارِعَةُ[1]﴾ آتية، وهو يوم لقاء الله، حين تصطك مخلوقات الوجود بعضها ببعض اصطكاكاً شديداً يُقرع به كل شيء بكل شيء، بعد أن تنفطر السموات وتنشق، وتنتثر النجوم والكواكب، وتُنسف وتُدك الجبال التي تمسك الأرض، «فتقرع أسماع الناس وتدقها دقاً عظيماً مفزعاً»[2]، كما تقرع قلوبهم بأهوالها من الفزع وقد زُوجت الأرواح

(١) القرع: ضرب الجسم بآخر بشدة لها صوت، ثم سميت الحادثة العظيمة من حوادث الدهر قارعة، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾[الرعد: ٣١]، ومنه قرع الباب، وتقارعوا: تضاربوا بالسيوف. وانظر التحرير والتنوير: ٣٠/ ٥١٠، ومفاتيح الغيب: ٣٢/ ٨٠.

(٢) نظم الدرر للبقاعي: ٨/ ٥١٣.

بالأجساد، وعادت النفوس إلى الحياة بعد رقاد الموت، وقام الناس لله رب العالمين.

وشأن هذه القارعة شديد الهول، لا يعلمه الناس لو سُئِلوا عنه ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ[1]﴾؟، لجهلهم أمرها، كما لا قدرة لدى أي إنسان للعلم بها، ولا سبيل عنده لدرايتها أو لتحصيل العلم بها كما يحصل العلم بما سواها، لعظم شأنها وشدة هولها: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ[2]﴾!، وكيف يعلمها وحالها أنه مهما خطر في باله من عظمها فهي أعظم، ولا يوازن بها أي حدث عهدته كل الدنيا قبله، ولا يتسنى الوصول للعلم بها إلا من خبر الله الذي أخبرنا بها.

ولأن شأن ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ مما لا يتسع وعيك لوصف ماهيته ولا توقيته، فهذا إخبار الله لك عن حال الموجودات فيها حين يأتي يومها:

﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾:

فأما حال **الناس** بكل ألوانهم في ذلك اليوم: **فهم متفرقون آحاداً**، كالفراش[3] المنتشر الذي يطير في كل اتجاه، في كثرتهم عند اكتظاظهم

---

(١) قوله: ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾: استفهام يقصد به التجهيل، إذ لا يستقل وعي إنساني بالعلم بها.

(٢) قوله ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾: استفهام يقصد به التهويل، إذ لا سبيل لوعي إنساني للعلم بها دون خبر السماء.

(٣) الفراش من الحشرات، ونقل الرازي في تفسيره عن الزجاج قوله: «وسُمي فراشاً لتفرشه وانتشاره»، وقال: «ثم إنه تعالى شبه الخلق وقت البعث ههنا بالفراش المبثوث، أما وجه التشبيه بالفراش، فلأن الفراش إذا ثار لم يتجه لجهة واحدة، بل كل واحدة منها تذهب إلى غير جهة الأخرى، يدل هذا على أنهم إذا بُعثوا فزعوا، =

للحشر، وضعفهم وحركتهم إلى كل جهة فزعاً، حتى يموج بعضهم في بعض: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾[الكهف: ٩٩]، ضعفاً وتهافتاً بعد جمعهم من القبور.

وأما حال **الجمادات**: فأشدها عظمةً ورسوخاً من مثل الجبال بألوانها المتعددة: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾[فاطر: ٢٧]، فإنها جميعاً ستصير **مفتتة الأجزاء**، كالصوف متعدد الألوان الذي يُنْفَش[١] باليد فيصير هشاً مفتتاً، حتى يكون هباءً ويزول[٢].

فأما الناس ـ بعد جمع أجسادهم ـ فيتفرقون آحاداً؛ لأن كلاً منهم آتٍ ربه يوم القيامة فرداً: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾[مريم: ٩٥]، وأما الجبال والجمادات فتتناثر أجزاؤها وتستجيب لأمر ربها الجليل إذ ينسفها فتصير دكاً: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾[طه: ١٠٥]، فالناس يعاد تكوينهم، والجبال يضمحل تكوينها[٣].

= واختلفوا في المقاصد على جهات مختلفة غير معلومة، والمبثوث: المفرق، يقال: بثَّه إذا فرقه».

(١) قال الرازي في التفسير الكبير: «والنفش: فك الصوف حتى ينتفش بعضه عن بعض»: ٣٢/ ٨١.

(٢) يوم القيامة تُدك الأرض دكاً: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾[الفجر: ٢١]، وتُنسف معها الجبال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾[طه: ١٠٥]، حتى تصير كالعهن المنفوش: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾[القارعة: ٥]، وتمضي كالسراب: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾[النبأ: ٢٠]، وتعود من دونها الأرض مستوية: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾[طه: ١٠٧].

(٣) قال البقاعي في نظم الدرر: ٨/ ٥١٣: «فحصل في هذه الآية تهويل شديد بثمانية =

وبعد تفرقهم للقائه آحاداً، يقف الناس ليحاسبهم ربهم على قدر أعمالهم في الدنيا، وإنما الوزن والقدر يوم القارعة للحق وللعمل بالحق: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾[الأعراف: ٨]، وهم ذلك اليوم على صنفين:

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾:

فأما ﴿مَن ثَقُلَتْ [(١)]﴾: رجحت ﴿مَوَٰزِينُهُۥ﴾: مقادير حسناته عند الحساب، بما اتبع الحق ـ وهو الذي له وزن عند الله ـ، فهو مستغرق «في» عيش حياة بلا موت لأن أمه جنة عالية، وهي ذات «رضى»: وهو أروح النعيم، حيث هو راضٍ عن ربه ومرضي عنده.

فالصنف الأول من الناس يوم القارعة هم المفلحون من الذين آمنوا بالحق وعملوا الصالحات على مراد الله واستعدوا للقائه، وموقفهم أنهم **بما ثقل قدر ما عملوه باتباع الحق، سيقيم لهم ربهم يوم القيامة وزناً** بما عملوا، فيُستخلفون حيث الأرض غير الأرض، وقد جُعلت يوم القيامة «مَوَازِينُ»

= طرق، وهي: الابتداء باسم القارعة، المؤذن بأمر عظيم، والاستفهام المستعمل في التهويل، والإظهار في مقام الإضمار أول مرة، والاستفهام عما ينبئ بكنه القارعة، وتوجيه الخطاب إلى غير معين، والإظهار في مقال الإضمار ثاني مرة، والتوقيت بزمان مجهول حصوله، وتعريف ذلك الوقت بأحوال مهولة».

(١) قال الرازي في التفسير الكبير: قال مقاتل: «إنما كان كذلك لأن الحق ثقيل والباطل خفيف»، وقال أبو بكر ﷺ: «إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم، وحُقَّ لميزان لايوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلاً، وإنما خفت موازين من خفت موازينه باتباعهم الباطل في الدنيا وخفته عليهم، وحُقَّ لميزان يوضع فيه الباطل أن يكون خفيفاً»: ٣٢/ ٨٢.

متعـددة للأعمال: لأن ربك قد خـولك نعماً متنوعـة، في العلم والسـلطان والمال، وعلى كل منها حساب، فتثقل أو تخف على قدر حصادك من الحق، بعملك «بالحق للحق»، لأن الحق وحده ثقيل، والباطل لا وزن له.

واعلم أن ثقل ميزانك إنما يكون بعمل أديته إصلاحاً وعدلاً في سبيل الله مستعيناً بالله، ولو في وقت واحد في موقف واحد تكون فيه عبداً يغيِّر الحياة على تمام مراد الله، ولك أن تزيد، فعلى قدر ثقل الميزان تزيد في الدرجات، فالهاوية دركات، ودار الرضا درجات.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾:

وأما الصنف الثاني من الناس يوم لقـاء الله، فهو ﴿مَنْ خَفَّتْ﴾: قلَّت ﴿مَوَٰزِينُهُۥ﴾ من الحق، فرجحت مقادير سيئاته عند الحساب، بما اتبع الباطل ـ وهو الذي لا وزن عند الله ـ، فسيضمه موضـع عميق سحيق لا يموت فيه ولا يحيى: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ[(١)]﴾ لأن: مأواه وأمه التي تضمه إليها «جهنم»: دار الألم، وهي مكان لا يملك إنسان إدراك كنهه أو تصور وصفه: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ[(٢)]﴾؟، لأنه لم يعهد في الدنيا مثلها ليقيسها عليه، معدة لإحداث أقصى

(١) في التحرير والتنوير: «الهاوية: المكان المنخفض بين الجبلين الذي إذا سقط فيه إنسان أو دابة هلك، يقال: سقط في الهاوية». ٣٠/ ٥١٤.

(٢) قال الرازي في التفسير الكبير: «والهاء للسكت، فإذا وصل جاز حذفها، والاختيار الوقف بالهاء لاتباع المصحف والهاء ثابتة فيه»: ٣٢/ ٨٢، وقال البقاعي في نظم الدرر: «وهاء السـكت إشـارة إلى أن ذكرها مما يكرب القلب حتى لا يقدر على الاسترسال في الكلام، أو إلى أنها مما ينبغي للسامع أن يقرع بهذا الاستفهام عنها =

الألم، حيث تحوط من خفَّت موازينه ولم ينتفع من فرصة وجوده كما تحوطه أمه، في موضع من نار تزداد حرارة بلا انقطاع: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾، فسائر النيران بالنسبة إليها كأنها ليست حامية، وللإنسان قبل يوم القارعة أن يتأمل مقدار ما سيكون فيها من «ألم»، فيجاهد لينجو منها قبل ذلك اليوم، ويستزيد من الوزن الحق لكي لا تكون أمه هذه الهاوية.

*** خاتمة:**

فيما تتفرق أجـزاء الكائنات يوم (الْقَارِعَة) وتتفتت الجبال، تجتمع أجزاء الإنسان ويتوحد للقاء الله، وفيما يزول الكون بهيئته التي كانت، وتزول كل آثار أعمال الإنسان معه، تبقى اللمسات التي أودعتها إرادته محفوظة حيث سطرت: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾[القمر: ٥٣]، في سجل محفوظ لعمله ولما ترتب على حياته من أثر: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[يس: ١٢].

وفي هذا قدر عجيب جعله الله في الكون للفعل الإنساني، فمهما كان وجود هذا الإنسان طيفاً عابراً في برهة صغيرة من عمر هذا الكون، إلا أن هذا المخلوق ليس مخلوقاً عادياً في هذا الكون، بما اختصه ربه من «أمانة الوجود»، والقدرة على التغيير في الأرض.

فإذا جاء يوم (الْقَارِعَة)، ولم يكن ممن استعد بالإيمان بالحق والعمل بالحق للقاء ربه، فلن يكون له ولا لعمله قيمة: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ

= سمعه فيسكت لسماع الجواب وفهمه غاية السكوت، ويصغي غاية الإصغاء».
٨/ ٥١٥.

وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾[الكهف: ١٠٥] وإنما الوزن يوم القارعـة للحق وللعمل بالحق: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾[الأعراف: ٨]، **فالعمل بالحـق أثقـل من الجبـال وأثقـل من مجرد وجود الناس، إذ يتفرق الناس وما جمعوا في الأرض، وتُنسف الجبال التي تثبت الأرض، ويبقى ما كان من عمل غَيَّرَ الأرض**، مهما كان هذا العمل صغيراً أو كبيراً.

وكل لحظة من العمر فرصة لأداء عمل بالحق يُثقل الميزان، وهذه السورة دعوة من الله لمعرفة قدر كل عمل تؤديه في العمر، قد يرتقي بك في الدرجات أو يهوي بها في الدركات، **ودعوة للاستزادة بلا حـدود من العمل بالحق** لعلك تكـون ممـن ﴿ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ يـوم ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾؛ لأن الجـزاء بلا حدود، والدرجات لا تنتهي في دار ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾، بحسـب حصـاد العمل وآثاره إلى ذلك اليوم الموعود.

❑ ❑ ❑

من وحي
السورة التي يُذكر فيها التكاثر
(١٠٢)

مسؤولية النعمة

البناء الموضوعي للسورة القرآنية
من وحي السورة التي يُذكر فيها التكاثر
(١٠٢)

مسؤولية النعمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا
سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ
لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ .

* مقدمة :

ما من حقيقة في حياتي وحياتك آكد من حقيقة موتنا القادم!، ولئن جحد الجاحدون أصلهم وربهم، أو جحدوا لقاءه ومصيرهم، فلا يمكن لأي أحد أن يجحد أنه سيموت وحيداً: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾[الأنعام: ٩٤]، تاركاً كل ما أفنى العمر يجمعه، وأن هذا الموت سيأتي حتماً: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[الأنبياء: ٣٥]، مرة واحدة: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ۖ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[المؤمنون: ٩٩ ـ ١٠٠]، في وقت غير معلوم: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[لقمان: ٣٤] بل

إنه أمر لا نملك حتى اختيار فعله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾[آل عمران: ١٤٥].

وإن الموت إذ يلقي بظله اليقيني هذا على نهاية رحلة العمر، **فإنه لا يُبقي أي معنى للسعي أو للجمع أو للإنجاز ما لم يقترن العمر بحقيقة ثابتة تفسِّر وجودنا المؤقت هذا هنا**، وإلا صار العمر عبثاً لا يستحق المعاناة، مادامت النهاية حتمية أترك معها كل شيء خلفي!، ومن أعجب العجب أن ترى الناس لاهثين وراء الجمع، ودائبين بلا تساؤل عن المنشأ والمصير، ولاهين دونما تبصر فيما يستحق اللهاث مما لا يستحقه!

* **خط البناء الموضوعي للسورة:**

(مسؤولية النعمة)

١ ـ **خبر** من خالق الناس عن حقيقة حالهم: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾.

٢ ـ **بيان** إلى الناس:

* أن للوجود في هذه الحياة **نهاية** نغادره بعدها: ﴿حَتَّىٰ﴾.

* أن الوجود في البرزخ «زيارة» تتضمن **إتياناً ومغادرة**: ﴿زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾.

٣ ـ زجر لأن لا يلهيكم التكاثر، **ووعد**:

* بأن يتكشف لكم علمٌ عند **إتيان البرزخ**: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

* ثم بأن يتحصل لكم علم بعد **مغادرة البرزخ**: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

٤ ـ زجر مع بيان **حالكم** عند عودتكم **للغيب** الذي منه جئتم:

* بيان حالكم **بعد الموت**: العلم اليقيني **بأنكم سترون دار العذاب**: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾.

* **بيان حالكم بعد البعث: رؤية دار العذاب رؤية عينية ما بعدها علم**:
﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾.

٥ ـ **وعيد** من الخالق أن ما بعد الوجود (مسؤولية): ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾.

* **العرض**:

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾:

أربع كلمات حاسمات لا تفصل بينها إلا ﴿ حَتَّىٰ ﴾، تختصر تاريخ وجود كل منا بكل مراحله، فتوجز محطة الدنيا بـ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، وتفجأ اللاهين في نشوة الدنيا بصدمة ﴿زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ عند زيارة البرزخ في الهجعة المؤقتة في القبر، ولتشير إلى رحلة المصير والرجوع إلى الله **بعد انتهاء الزيارة!**

﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾: إنه الخبر من الله العالم بنا جميعاً أننا قد شغَلَنا التباري والتنافس في الجمع مدى العمر، عن العمل من أجل ما وجد لأجله العمر!، و«**اللهو**»: الانشغال بما لا يجدي مما يدعو إليه الهوى عما هو أهم، والاشتغال بأمر غير ذي شأن عن الأمر ذي الشأن!.

و﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾: حصول الكثرة فالكثرة، بتتابع متدرج دون توقف عند حد، وتكاثَر القوم: كاثر بعضهم بعضاً، فهو **المباراة في الاستكثار**، وهو مذموم حين يكون غاية بذاته، أو لمجرد التفاخر والتباهي مع الغفلة عن المبدأ والمصير[1].

---

(١) وهو ليس مذموماً بشرط أن يعلم العبد أن كل النعم من المال أو السلطان أو العلم =

﴿حَتَّىٰ﴾: تتضمن معنى الغاية، فغاية التكاثر إلى زيارة المقابر، وليس وراء هذا التكالب إلا المقابر، يأتي بها الخبر من الله ليبلغ الترويع منتهاه، كأنه يناديهم: «**أيها التاركون ما تتكاثرون فيه إلى حفرة ضيقة لا تكاثر فيها ولا تفاخر!**»[1].

و﴿ٱلْمَقَابِرَ﴾: جمع مقبرة، وهي مجتمع القبور حيث تمكث بقايا تلك الحشود من الموتى ممن مروا قبلنا في محطة الحياة، والتي ألهاها التكاثر، و«**الزيارة**»: إتيان الموضع بنية الانصراف لا الإقامة، والزائر غير مقيم[2]، وسوف تنتهي الزيارة ريثما يكتمل المجموعون بالموت، حيث يغادر الزائر القبر حتماً إلى بعث وجزاء، **وإذا كان مكوثك في البرزخ مجرد زيارة!، فكم هو بالله عليك مكوثك في محطة الدنيا!**

= إنما هي استخلاف سيسأله ربه عنها، ومكانها أن يستعملها ولا يعطلها وإلا فستؤخذ منه كلها ويسأل عنها كلها، وقرأ رسول الله ﷺ هذه السورة ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، فقال: «**يقول ابن آدم: مالي! مالي!، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت؟**» رواه مسلم (٤/ ٢٢٧٣)، فإن استعمل ما أوتي **لإصلاح نفسه أو إصلاح الحياة** استعداداً للقاء الله، فلن يكون التكثير في حقه مذموماً، وانما هو استزادة للفضل من الله ذي الفضل العظيم، كما أنه ليس من الخطيئة أن نحب الحياة، وإنما الخطيئة في أن «نستحبها» على الحياة الآخرة الحقة.

(١) في ظلال القرآن: ٨/ ٦٤٩.

(٢) يروى أن أعرابياً قال عند سماعه لفظ (زرتم): «**بعث القوم للقيامة ورب الكعبة، فإن الزائر منصرف لا مقيم**»، وعن عمر بن عبد العزيز: «**لا بد لمن زار أن يرجع إلى جنة أو نار**». وانظر روح المعاني: ٣٠/ ٢٨٧.

﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ :

ويأتي الزجر والردع بقوة من الخالق القوي العزيز!، وقد ألهانا التكاثر، فناسب هذا الإلهاء أن ينذرنا بما بعده من تلقف المقابر لكل ما نتكاثر به، وأن يردعنا بمصير لابد آتٍ، نعلم فيه حقيقة ما لهونا عنه:

﴿ كَلَّا ﴾ : أي ارتدعوا وانزجروا عن الاشتغال بما لا يجدي، فإنما خُلقتم لأمر عظيم.

﴿سَوْفَ﴾ : بعد مهلة طويلة يتذكر فيها من تذكَّر.

﴿تَعْلَمُونَ﴾ : أي هذا وعد لا خُلف فيه أن تعلموا بما أنتم عليه الآن من الخطأ، في يوم يأتي وينكشف لكم فيه ماخفي عنكم وما أنكرتموه وارتبتم فيه، **عند مواجهة ما يكشفه الموت الخاص بكل واحد**: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾[ق: ١٩].

﴿ ثُمَّ ﴾ : يدل حرف العطف «ثم» بوضعه اللغوي على الترتيب مع التراخي، وهو يدلُّ هنا على أن حصول العلم الذي يجيء بيانه في الآية التالية غير العلم الذي جاء بيانه في الآية السابقة من السورة، فهما: علمان، يتحصلان واحداً بعد الآخر.

ثم ﴿كَلَّا﴾ : ارتدعوا ارتداعاً أكبر من ذلك!

﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ : **أي يأتيكم العلم** من غير شك **يوم البعث**: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾[الأنعام: ٣٠]

فهو الوعد الحق من الله: إنكم سوف تعلمون عند الموت، ثم بعد ذلك

سوف تعلمون يوم الحساب قيمة ما ألهاكم بالقياس إلى ما لهوتم عنه(١)!

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾:

يدفع الناس إلى اللهو بالتكاثر قلق الموت الكامن في النفس، والرغبة في تحصيل الأمان، والبحث عن وهم الخلود في الدنيا: **﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾**[الهمزة: ٢ ـ ٣]، ولن يكشف الوهم إلا اليقين ـ وهو لغةً: إزاحة الشك ـ، فهو العلم الذي لا شك فيه، ولا يلتبس بوهم أو ظن أو ارتياب، فيأتي الزجر الرباني الثالث صادعاً! بـ «**كَلَّآ**»، ليشتد الارتداع!، **فإنكم لو علمتم علم ما بعد الموت الذي هو علم يقيني بأنكم سترون دار العذاب، لما ألهاكم التكاثر**، ولألهاكم العمل لما بعد الموت عما هو يلهيكم اليوم!.

وفي البخاري(٢): عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ أحدكم إذا مات عُرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة**»، وهذا العرض بعد الموت يعطي الإنسان **﴿عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾** بأن عذاب الجحيم حق.

---

(١) وفي البحر المحيط عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: «كلا سوف تعلمون في القبر، ثم كلا سوف تعلمون في البعث»، وهو أحد الأقوال التي أوردها الرازي، فتبقى (ثم) على بابها من المهلة في الزمان.

(٢) كتاب الجنائز، باب الميت يُعرض عليه مقعده بالغداة والعشي، الحديث رقم (١٣٢٤).

ثم يزداد اليقين بالجحيم، حين يصل الإنسان مرتبة العلم القائم على الشهود والرؤية العينية، وهو قوله: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾(١) ويكون يوم الحشر بعد البعث يوم القيامة، إذ يرد الناس جهنم وهم على الصراط: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[مريم: ٧١ ـ ٧٢]، فيشاهدونها، وتكون للكافرين داراً ومستقراً، وللمؤمنين معبراً وممراً، فيسمى هذا العلم ﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ لتحقُّق الرؤية به(٢).

﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾:

لن نلبث بعد لهونا الصغير في الجمع هنا: ﴿ٱعْلَمُوٓا أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾[الحديد: ٢٠]، وزمن البرزخ الطويل حين ينكشف بعض بما سيحصل لنا: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا

---

(١) وفي قوله تعالى ﴿لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾: اجتمع ما للرؤية من إدراك حسي، إلى ما للفظ (عَيْنَ) من دلالة التأكيد والبصر، وما لصريح لفظ (الْيَقِينِ) من ثقة وإزاحة لكل شك، فضلاً عن التوكيد باللام ونون التوكيد الثقيلة، وهو أقصى ما يبلغه البيان من تأكيد اليقين وترسيخه، «**إنها كلمات أربع قصار جمعت كل ما تعرف العربية من أدوات التوكيد وأساليبه اللفظية والمعنوية: (اللام) و(النون) و(التكرار) و(الرؤية) و(العين) و(اليقين)، فبلغت من ذلك ما لا تبلغه الصفحات المطولات**». **التفسير البياني ١/ ٢٠٦**.

(٢) وتقع للكافرين مرتبة العلم القائم على الإحساس الجسدي الكامل حين يذوقون عذاب النار في الجحيم، ويُسمى هذا العلم ﴿حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾[الواقعة: ٩٥] لتحققه في الواقع تحققاً تاماً لا يحتمل دخول التوهم فيه: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾[فاطر: ٣٧].

عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[ق : ٢٢]، ثم عرصات العبور المرعب فوق الجحيم بعد بعثنا: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾[مريم: ٧١]، أن يأتي اللقاء العظيم، حين **يسألنا الله** عن كل نعيم في كل لحظة من العمر، وعن كل ما استكثرنا منه من **أين أُخذ؟ وفيم وُضع؟**، بعد أن يكون أصلاً قد أُخذ منا كله منذ ساعة الموت[١]!.

ووالله ليكون سؤالاً شديداً عن كل يوم **نعمة وعافية وستر**، وعن كل ما استخلَفنا الله فيه من مال أو ولد أو علم أو سلطان، وانظر إلى رسول الله ﷺ وقد أخرجه وصاحبيه الجوع، حتى أتوا فأكلوا عند أحد الأنصار وشبعوا، أنه ﷺ قال: «**هذا والله من النعيم الذي تُسألون عنه يوم القيامة، خرجتما جائعين ثم لم ترجعوا حتى شبعتم من الطعام**»[٢]، فهم مسؤولون!، ولعلهم

---

(١) قال الحسن: «لا يُسأل عن النعيم إلا أهل النار»، وقال بعض المعاصرين: إن القرآن استعمل لفظ (النعيم) في نعيم الآخرة خاصة، ولم يستعمل النعيم قط في نعمة من نعم الدنيا: «فهم سيسألون يوم الحاقة حين يرون الجحيم عين اليقين عن النعيم الحق ماهو: ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟﴾، ويومئذ يدركون يقيناً حقيقة النعيم الذي ألهاهم عنه التكاثر». التفسير البياني: ١/ ٢١٦، والأحاديث الثابتة حجة على أصحاب هذا القول.

(٢) رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة، قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم ـ أو ليلة ـ فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: «ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟» قالا: الجوع يا رسول الله، قال: «وأنا، والذي نفسي بيده، لأخرجني الذي أخرجكما، قوموا»، فقاموا معه، فأتى رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة، قالت: مرحباً وأهلاً، فقال لها رسول الله ﷺ: «أين فلان؟» قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء، إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه، ثم قال: =

قد أجابوا عن السؤال بما قدَّموا، فيا ليت شعري ما يكون جوابنا!؟

* **خاتمة:**

ببساطة ستموت وحدك[1]!، ولن يبقى منك - إن بقي شيء - إلا الذكرى، ومن الجهل الكبير أن تقضي اليوم كما قضيت الأمس، وقد استغرقتك الهموم ذاتها، حيث كل ما حولك وكل من حولك يدعوك لنسيان مصيرك الأكيد القادم!، وإلى الانشغال بمجرد الجمع عن **التعرف على المنعم**، وعن استعمال النعم في مقصودها الأعظم: **الاستعداد للقائه بإقامة العدل وإصلاح الحياة!**

وفي غمرة اللهو بالتكاثر وزحام التفاخر، يأتيك نداء صادع رادع زاجر مشفق من الله المنعم العظيم، وهو وحده الأرحم بك من نفسك وأمك، برسالة تفرَّدت في القرآن بتكرار الزجر والردع بأم الروادع ﴿كَلَّا﴾ ثلاث مرات، لعلك تتذكر!، وكشفت جانباً من الغيب لا يعلمه إلا الله، أن تنبَّه!، فالأمر خطير، وبعد لهوك الصغير موت أكيد يُكشف عنك فيه الغطاء، ثم بعثٌ ترى فيه

= الحمد لله، ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني، قال: فانطلق، فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب، فقال: كلوا من هذه، وأخذ المدية، فقال له رسول الله ﷺ: «إياك، والحلوب»، فذبح لهم، فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا، فلما أن شبعوا ورووا، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر، وعمر: «والذي نفسي بيده، لتُسألنَّ عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم». كتاب الأشربة، باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك، الحديث رقم (٣٨٩٢).

(١) قال الحسن: «لا يغرنك كثرة مَنْ ترى حولك، فإنك تموت وحدك، وتُبعث وحدك، وتُحاسب وحدك». تنوير الأذهان من تفسير روح البيان للبروسوي: ٤/ ٥٩٢.

الجحيم!، ثم سؤالٌ شديد عن كل صغير وكبير مما أنعم الله به عليك!

فتأمل «كيف إذا كان السؤال من ملك تذوب لهيبته الجبال؟ وكيف إذا كان السؤال على وجه العتاب؟، وكيف إذا جرَّ إلى العذاب؟!»[1]، ألا يستحق منك ذلك تفكُّر ساعة قبل ذلك الحساب؟

رب أوزعنا أن نشكر نعمتك، وأن نستعملها فيما تحب، كما تحب...

❐ ❐ ❐

(١) نظم الدرر: ٨/ ٥١٦ ـ ٥٢٠.

من وحي
السورة التي يُذكر فيها العصر
(١٠٣)

أمانة الوجود
(فرصة العمر بين الفلاح والخسر)

البناء الموضوعي للسورة القرآنية
من وحي السورة التي يُذكر فيها العصر
(١٠٣)

أمانة الوجود
(فرصة العمر بين الفلاح والخسر)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾.

*** مقدمة:**

مثلما أنه خلقه وخلق غيره، وسوَّاه وعدله بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً، فقد اختار الله الإنسان ليؤتيه القدرة على أن **يعلم**: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾[البقرة: ٣١]، والقدرة على أن **يختار ويريد**: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾[البقرة: ٣٥]، وهاتان القدرتان هما أعظم ما يختص به الإنسان، **وإن هبة وجوده بهذه الخصائص (أمانة)** صعب على غيره حملها: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا **وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا** وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ **ظَلُومًا جَهُولًا**﴾[الأحزاب: ٧٢][1]، وبهذه الخصائص يمكن

---

(١) وإنما يكون ظُلمه حين يعمل بنقيض ما يعلم من الحق، وجهله يكون حين يعمل بلا علم، وهذان هما مدخل الشيطان إلى الإنسان، فهو إما يدخل إليه بشهوة مذلة =

له **تغيير** الكون بإذن ربه، لأن ما في السماوات عطية له من ربه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[الجاثية: ١٣]، وإنما يرشحه إخلاصه لربه في تحمل الأمانة بإصلاح الوجود بما آتاه في فرصة الحياة: لأن يُستخلف في وجود أرقى من هذا الوجود: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[العنكبوت: ٦٤]، في موضع خاص به، ذي درجات لا تنتهي: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾[الأحقاف: ١٩]، يستحقه بحسب مستوى تحمُّله للأمانة التي اختاره الله لحملها، أو أنه يغفل عن هذا كله، ويقضي العمر في جمع القوة لقضاء الشهوة فحسب، **وينسى ربه وأمانته، فيُنسيه الله قدر نفسه**، وهي سنة الله فيه: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾[الحشر: ١٩]، إذ «يضيع من الإنسان من معرفة نفسه، بقدر ما ضاع له من معرفة ربه»(١)، ويضيع بإضاعته أمانته كل عمله مدة وجوده، حتى أن لا يعود لوجوده أي قيمة: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[الفرقان: ٢٣]، **ويحيط به الخسران من كل مكان، وأي خسران بعد خسران أن تنسى «من أنت»؟!.**

*** خط البناء الموضوعي للسورة:**

(أمانة الوجود)

تقرر السورة حصيلة الوجود الإنساني، بتأكيد حقيقة تلك الحصيلة بقَسَم بزمان هذا الوجود، ويتبع ذلك التقرير استثناء من أدى حق أمانة الوجود من تلك الحصيلة:

= تمنعه من العمل بما يعلم، أو يدخل إليه بشبهة مضلة تمنعه أصل العلم.

(١) مفتاح علوم السر في تفسير سورة والعصر: الشيخ أحمد العلاوي.

١ ـ **قَسَم بتاريخ الوجود الإنساني**، وهو (عصارة) تاريخ الخلق: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾.

٢ ـ **جواب القَسَم**: إن وجود الإنسان **محوط بـ «الخسران مطلقاً»**، لتضييعه **«أمانة الوجود»** وما وهبه من قدرة «العلم» و«الإرادة»: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾.

٣ ـ **يُستثنى من «الخسران المطلق»** الإنسان الذي تحمل **الأمانة**:

* تحمَّل أمانة ملكة **العلم** فعرف الحق وآمن: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

* تحمَّل أمانة ملكة الإرادة واختار **العمل** بما علم: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾.

٤ ـ **ويُستثنى من «مطلق الخسران»** مَنْ تعاون مع غيره لتحمل **الأمانة**[1]:

* بالدعوة إلى **العلم** والإيمان بهذا الحق: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾.

* والدعوة إلى الصبر على مشقة **العمل** به: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾.

* **العرض**:

﴿وَٱلْعَصْرِ﴾:

العصر[2]: هو تلك الحقبة من تاريخ وجود الكون التي ضمَّت البشر

---

(١) لأن المؤمن العامل بالحق قد يلحقه النسيان وتضعضع العزم: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾[طه: ١١٥]

(٢) إن الزمن: هو مقياس التغير في الوجود، وكما يكون العصر لاستخراج خلاصات الأشياء، فإن العصر: خلاصة الزمان، فهو: خلاصة الدهر الذي أوجد فيه الله المخلوقات، أطلقه على مدة معلومة لوجود نوع من الخلق، هو النوع الإنساني، =

جميعاً منذ عهد أبينا آدم (عليه السلام) وحتى: قيام الساعة، ومنذ عاصر وجود النوع الإنساني حيناً من عمر الوجود، أو عاصر وجودك الشخصي حيناً من ذلك العمر، أقسم به ـ على كونه من مظاهر بديع التكوين الرباني الدال على عظيم قدرة الله ـ تأكيداً على الخبر الوارد في المقسَم عليه عن عاقبة ذلك الوجود وحصيلته.

فالوجود الإنساني طيف عابر في الكون الفسيح وتاريخه المديد، و«العصر»: كلمة واحدة تطوي تاريخ هذا الوجود وما تحقق فيه من تغيير، بكل إنجازاته العلمية والأدبية والحضارية، وأحلامه وشواهده في الأرض، وبكل صلاحه وفساده، وبكل أجياله وشعوبه وألوانه، منذ بدء الخليقة وحتى قيام الساعة.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾:

هذا خبرٌ مؤكَّدٌ من الله خالق الإنسان، الذي أودع فيه **«أمانة الوجود»** علماً وإرادةً، أن جنس بني الإنسان محوط بخسران لا حد له، يتفاوت بتفاوت ما أضاع من فرصة عمره في غير ما أراده منه خالقه(١).

= ويطلق العصر أيضاً على الصلاة الموقتة بوقت العصر، وهي صلاة معظَّمة، وبناء على رأي الجمهور: هي المراد بالوسطى في قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾[البقرة: ٢٣٨]، وجاء في الصحيحين عن النبي ﷺ: «من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله». صحيح البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب إثم من فاتته العصر، الحديث رقم: ٥٢٧، وصحيح مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب التغليظ في تفويت صلاة العصر، الحديث رقم: ١٠٢٦.

(١) وهذا الخسران بهذا الشمول والإطلاق حقيقة تلقي بجبروتها الرهيب على كل=

وقد أكد الخبر بخمسٍ من أشد أدوات التأكيد في لغة العرب، بالقسم، و«إن»، والتعبير بالجملة الاسمية، واللام الداخلة على الخبر، و«في» الظرفية، عدا تعريف «الإنسان» لشمول جنسه، وتنكير «خسر» لتهويل خسرانه؛ وذلك لشدة غفلة الإنسان عن أصله ومستقبله[1]، وكونه غير شاعر بخسران نفسه[2]، مما اقتضى توكيد ما ورد في هذا الخبر.

إنه خسران ونقص مطلق، مظروف ومغمور «فيه» كل الإنسان، ومحوط «فيه» من كل جانب بكل أعماله، حين لم يستثمر فرصته الوحيدة لوضع نفسه موضعها المراد لها في الوجود، عدلاً مع نظرائه من الخلق، وإصلاحاً لما ليس له بنظير من الحيوانات والجمادات، استعداداً للقائه بربه، وليكون جديراً بحمل

= الفعل الإنساني، وتختصر قصة الوجود الإنساني المؤقت في الحياة، وخصائص هذا الوجود وتحكم على ثمراته لما بعد الحياة، ولا يملك الوعي الإنساني إنتاجها بهذه القوة، **فمن له أن يختزل هذا الإنسان «سيد الأرض» بهذه القوة إلا ربه الخالق الجليل؟**

(١) إن الإنسان غافل عن غيبٍ منه أتى وإليه يعود، «والكائن في الكون ولم تفتح له ميادين الغيوب مسجونٌ في محيطاته ومحبوسٌ في هيكل ذاته». كما يقول ابن عطاء رحمه الله.

(٢) واعلم أنّ الإنسان لا ينفك عن خسر، والخسر هو تضييع رأس المال، ورأس ماله هو عمر، وهو قلّما ينفك عن تضييع عمره، فإن كان في معصية فهو في خسر لا شك فيه، وإن كان في طاعة فلا طاعة إلا ويمكنه الإتيان بغيرها وأحسن منها؛ لأن مراتب الخشوع والخضوع لله غير متناهية، فكان ترك الأعلى والاقتصار على الأدنى نوعاً من الخسران، فالكل مغبون وفي نقص وخسران بحسب مساعيهم في أهوائهم وصرف عصر وجودهم في جمع القوة لقضاء شهوتهم الحاضرة وحدها.

أمانة وجوده، ومستحقاً لجنة ربه، وهو إنما خسر لجهله بربه، وجهله بنفسه، وهو لا يشعر بذلك الخسران بما زُين له من سوء عمله: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾[الأنعام: ١٠٨]، ونسيانه أنه مسؤول أمام خالقه لأنه لم يخلق نفسه: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾[مريم: ٦٧].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

«إلا»: استثنى سبحانه قليلاً من الناس من حكم الخسران المطلق، لكونهم أدوا أمانة ما استودعهم من هبة العلم والإرادة، وهم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: أي أوجدوا في قلوبهم بعد **العلم** بربهم وبأنفسهم «الإيمان»: وهو التصديق المطمئن الذي لا يخالجه ريب بالله، والتصديق بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فهو **مقياس الاستعداد للقاء الله** بإفراده بالحب والخوف والرجاء في قلب العبد، لكونه الدافع **للعمل**: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فيزداد الإيمان باجتهاد العبد ليكون على مراد الله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[العنكبوت: ٦٩]، وينقص بالزيغ عن هذا المراد: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[الصف: ٥].

وأعظم **العلم**: العلم بالله وبمراد الله، ثم العلم بأحوال بني الإنسان، فالعلم بما سواهما، وكلها علوم ضرورية للقيام بحمل أمانة وجودك على أحسن الوجوه، **وفقه مقامك الخاص** الذي خُلقت له في الوجود، مع ربك، ومع الخلق، ومع من سواهم من بعد من الموجودات، و«كلٌّ ميسَّرٌ لما خُلق له».

والعمل الصالح: جنسٌ يدخل فيه كل فعل محمود، **يقوم فيه الإنسان في نفسه وفي الكون بأمانة العلم وقدرة العمل: لله رب العالمين**، وهو متنوع بلا حدود، وأصله اتباع أوامر الله واجتناب نواهيه، والعدل مع الخلق،

وإصلاح الحياة واستثمار قدرات النفس وطاقات الكون كما يحب، ولصلاح العمل شرطان: أن يكون **خالصاً** لوجه الله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[البينة: ٥]، وأن يكون **صواباً**، أي: كما يريد الله: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[الجاثية: ١٨].

﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾:

إن الإنسان العالم بالحق المؤمن به، الذي استجمع إرادته ليعمل صالحاً بما علم، هو وإن نجا من الخسران المطلق، فإنه لن ينجو من مطلق الخسران، وذلك لما يكون منه من تقصير بالغفلة **ونسيان ما يعلم**، أو بالكسل **وتضعضع العزم عن العمل** بما يعلم، وهذا من ضعفه الموروث عن أبيه آدم: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا﴾[طه: ١١٥].

وإن روح العلم دون التواصي بالحق تذبل، وهمة العمل دون التواصي بالصبر تكسل، وإن حصيلة عمر الفرد الإنسان محوطة بنسيجِ مطلقِ الخسران، مالم يُحِط هو نفسه بنسيجٍ من أهل الايمان[1]، فالإنسان لا يقوم وحده؛ لأن عدوه المتمرد على ربه لا ينفك موسوساً له «**بشبهات**» **تُفسد فهمه للحق**

---

(١) يقول ابن القيم رحمه الله في (التبيان في أقسام القرآن): «إذا تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر حصل لهم من الربح ما خسره أولئك الذين قاموا بما يجب عليهم في أنفسهم ـ من الإيمان والعمل ـ ولم يأمروا غيرهم به، وإن كان أولئك لم يكونوا من الذين خسروا أنفسهم وأهليهم ـ فخسروا كل شيء ـ، فمطلق الخسار شيء، والخسار المطلق شيء»، فالمؤمن العامل للصالحات ناجٍ من أن يرد إلى أسفل سافلين، كما ورد في سورة التين، فهو ناجٍ من الخسران المطلق، ولكنه إن ترك التواصي، فهو غير ناج من خسران يلحقه، بما ينقص من درجته في موضع وجوده النهائي القادم.

وتُعطل ملكة العلم فتجعلـه «جهولاً»، و«شهوات» تضعفه عن الصبر على العمل الذي يحبه الله حتى يكون «ظلوماً»، فينكل عن حمل الأمانة.

ولكي ينجو من مطلق الخسران فقد أمره ربه بالاعتصام مع من يشاركه الإيمان وإرادة صالح العمل: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾[آل عمران: ١٠٣]، وجعلهم له إخوة: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾[الحجرات: ١٠]، **يُثبِّت بعضهم بعضاً بالتواصي فيما بينهم، فجعل الله خير أنواع تلقي العلم جماعياً**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾[الجمعة: ٩]، وجعـل خير أنواع أداء **العمـل** في الصـلاة **جماعيـاً**: ﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[البقرة: ٤٣]، وكذلك في الجهاد في سبيل الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾[الصف: ٤]، ليعين بعضـهم بعضاً على حمل الأمانة الكبرى بالتواصي فيما بينهم:

بالحـق: وهـو الأمر الثابـت، فالله هو الحق: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾[الحج: ٦]، وقد خلق الوجود بالحق: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾[الأنعام: ٧٣]، وأنزل القرآن دالاً على الحق وحافظاً له: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ﴾[الإسراء: ١٠٥]، وبالتواصي بالحق يتذكر الناسي ويتنبه الغافل.

وبالصبر: وهو حبس النفس على مراد الله، وهو خلاصة الإنسان وسره وعصارته، الذي لا يوصل إليه إلا بضغط الإنسان لنفسه، وقهرها على الكون كما يريدها الله، ويشـمل تحمُّل مشـقة إقامة الحق في النفس والدعوة إليه، وتحمُّل الأذى من الخلق، وكف الأذى عنهم[١]، وبالتواصي بالصبر يشتد العزم

(١) يقول ابن القيم رحمه الله في (التبيان في أقسام القرآن): «والصبر نوعان: نوع على =

على العمل بالحق.

وباليقين بالحق وبالصبر عليه تُنال الإمامة في الدنيا والدين: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

*** في فضل السورة:**

يتمثل في هذه السورة الصغيرة ذات الآيات الثلاث منهج الحياة البشرية كما يريدها الله، ولذلك فقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يتخذون هذه السورة شعاراً، يذكّر بها بعضهم بعضاً في ملتقاهم.

روى الطبراني بسنده إلى عبيدالله الأنصاري ـ من التابعين ـ أنه قال: «كان الرجلان من أصحاب رسول الله إذا التقيا، لم يفترقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها».

وعن الشافعي: «لو تدبَّر الناس هذه السورة لوسعتهم»، وفي رواية عنه: «لو لم ينزل إلى الناس إلا هي لكفتهم». وقال غيره: «إنها شملت جميع علوم القرآن».

*** خاتمة:**

تطوي هذه السورة قصة الإنسانية، وتاريخ النوع الإنساني ومآله، في بضع كلمات مؤكدات حاسمات، تتحدث بجلال وعلوٍّ وقوة تكسر الغرور الإنساني: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾، وتحكي بنفسها عن مصدرها السماوي، وهي تُذكِّر الإنسان بثقل حمل الأمانة من دون الموجودات، وتدعوه للاتصال

= المقدور كالمصائب، ونوع على المشروع، وهذا النوع أيضاً نوعان: صبر على الأوامر، وصبر عن النواهي، فذاك صبر على الإرادة والفعل، وهذا صبر عن الإرادة والفعل».

ـ وهو الفاني الصغير المحدود ـ بالأصل الأزلي الباقي الذي صدر عنه الوجود، ومن ثَمَّ للتواصل مع الكون الصادر عن ذات المصدر، وفقاً لما يريده خالق الكل من منهج، والانطلاق مع هذا المنهج من حدود عمره القصير إلى امتداد الآباد التي لا يعلمها إلا الله، وهو يقضي فرصة العمر يبذل الجهد ليكون جديراً بحمل أمانة وجوده استعداداً للقاء الله.

ولقد أشفقت السماوات والأرض عن حمل أمانةٍ عاقبة إضاعة حملها **خسران مطلق** وندم عظيم يوم لقاء خالقك: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا﴾[النبأ: ٤٠]، ولكي لا تتحسر يوم اللقاء إلى حد تمنيك أن تكون تراباً ـ حين تشهد خسرانك ـ، فعليك وحدك تقع مسؤولية الجدارة بحمل **أمانة وجودك**، وبابها **استثمار هبة العلم** بحدودها القصوى لمعرفة ربك، ومعرفة نفسك، والتعرف على موضع استخلافك، **واستثمار ملكة الإرادة والعمل** بكل ما في وسعك لإصلاح واستعمار الكون الذي استُخلفت فيه على مراد الله، وفقاً لما آمنت به من الحق، ثم **سد منافذ الجهل والشبهات والنسيان**، التي يثيرها عدوك الشيطان **بالتواصي مع غيرك بهذا الحق، وسد منافذ الظلم الإنساني والشهوات، وتضعضع العزم عن العمل**، التي يوسوس بها العدو ذاته **بالتواصي بالصبر على مشقة الثبات عليه**، حتى يوم اللقاء.

□ □ □

من وحي
السورة التي يُذكر فيها الهمزة
(١٠٤)

وعيد الطغيان

(﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴾ [العلق: ٦ ـ ٧])

البناء الموضوعي للسورة القرآنية
من وحي السورة التي يُذكر فيها الهمزة
(١٠٤)

وعيد الطغيان

(﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦ ـ ٧])

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ
أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦
ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ﴾.

*** مقدمة:**

لقد خلقنا الله فقراء محتاجين إلى مدد ربنا القيوم ما دمنا في الوجود: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾[فاطر: ١٥]، **واستودعنا أمانة قوى عظيمة في العلم والإرادة** سخر بها لنا ما في الأرض من قوى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[الجاثية: ١٣]، وجعل التدافع بيننا في تحصيل وجمع هذه القوى سبيلاً للتعرف على ما آتانا، وللتنافس مع من سوانا: ﴿وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾[الحديد: ٢٠]، وإن تاريخ البشرية ـ بعيداً عن الاستعداد للقاء الله ـ: هو تاريخ الصراع على امتلاك القوة، وأهمها قوة المال، فالمال غاية غايات أهل الدنيا، وهو قوام حياتهم، وبه يشترون ـ بظنهم ـ كل أنواع القوى، كالسلطان والمكانة بين الناس، وبه يمكن قضاء كل شهوة.

وإنما يثير الغنى في الإنسان العجب والعزة، وينسيه فقره الأصيل إلى ربه، وكل زيادة فيما أوتيه يعمق ذلك الشعور فيه: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[العلق: ٦ ـ ٧][1]، حتى يدفع صاحبه إلى التعالي عن قلق الموت المعلق على الرؤوس بالبحث عن الأمان في ذلك المال وفي تلك القوة، وكلما ازداد قوةً ظنَّ لنفسه أماناً أكبر ينسيه موته القادم، ويُنسيه نفسه بعد أن نسي ربه وأمانة ما استودعه من قوى، فيطغى حين يفني فرصة العمر في مجرد «جمع القوة ليقضي شهوة[2]»، وكلما زاد جمعاً وقوة، ازداد على نظرائه من الخلق طغياناً، وفي خيرات الأرض طغياناً، وعلى قدره مع ربه طغياناً.

*** خط البناء الموضوعي للسورة:**

١ ـ وعيد لمن خان «أمانة الوجود» فطغى: ﴿وَيْلٌ﴾.

٢ ـ بيان ما استحق به الوعيد من الطغيان:

* الطغيان على نظرائه من الخلق: ﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾.

* الطغيان في ما استُخْلف فيه من قوى الأرض: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾.

* الطغيان في حق رب السماوات والأرض: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾.

---

(١) الطغيان: مجاوزة الحد، يقال: «طغى الماء» أي: جاوز حده بفيضانه وسيوله. طَغَى الماءُ والبحر: ارتفَع وعلا على كلِّ شيءٍ فاخْتَرَقَه. (وانظر: لسان العرب).

(٢) إن محور حياة الإنسان في الحضارة الحالية: «العمل والمتعة»، أو تحصيل القوة لقضاء شهوة، وذلك منذ «فقد اليقين بالله، فمات عنده الهدف، وطفق يملأ الفراغ باللامعنى». كما يقول أحد فلاسفة الغرب.

٣ ـ ردع وزجر له مادام في هذه الحياة: ﴿كَلَّا﴾.

٤ ـ **بيان الموعود**: إن جزاءه بعد الحياة من جنس عمله فيها:

* جزاء الطغيان **بالتكبر على الخلق**: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾.

* جزاء الطغيان **بالإفساد** بالجمع والمنع: جمعه وما جمع: ﴿فِي ٱلْحُطَمَةِ﴾.

* جزاء الطغيان **بالثقة بغير الله**: التعرض لنار الله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾.

٥ ـ وصف وجوده في دار الألم بما نكل عن حمل أمانة هذا الوجود:

* **في نفسه**: تطلع نار الألم إلى أدق مكونات ذاته: ﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾.

* **في مكانه**: المكان موصد بلا امتداد ولا مخرج: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾.

* **في زمانه** ومكوثه: هو موثق بلا نهاية: ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ﴾.

* **العرض**:

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾:

(وَيْلٌ): هذا وعيد بعقاب شديد[1] من الله رب العالمين، لكل إنسان خان أمانة وجوده، ونسي لقاء ربه، **فطغى** وجاوز حده مع **نظرائه من الناس**، ومع

(١) «ويل»: لفظة الذم والسخط، نُكِّر لأنه لا يعلم كنهه إلا الله، وقال أهل اللغة: «ويل له: دعاء على المجرور اسمه باللام بأن يناله الويل، وهو سوء الحال، والدعاء هنا مستعمل في الوعيد بالعقاب».

ما استخلفه فيه ربه من **خيرات الأرض**، ومع **خالقه** رب السماوات والأرض[١].

فأما طغيانه **على الناس**: فهو ﴿هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾، أي: يكثر منه الهمز واللمز لمن سواه، حتى يكون ملكة له وعادة وخلقاً ثابتاً، و«الهمز: الكسر»، و«الهمزة»: من يكسر الناس **بالتعالي عليهم** بالإشارة باليد أو بالرأس أو بالنظرة وغيرها، و«اللمز: الطعن»، و«اللمزة»: من يطعن في أعراض الناس بتحري معايبهم وعوراتهم، ويواجههم بها، **وينتقص منهم** بإظهارها ومناداتهم بها[٢]، **فهو يتعالى عليهم بإشارته بالهمز، وينتقص منهم بعبارته باللمز**، فيكسر الآخرين ويطعن فيهم ليعوض خسرانه لنفسه، وليصفو له كبره وطغيانه.

وإنما مقياس النفس السوية عدلها مع نظرائها من الخلق، وحبها لهم ما تحبه لنفسها؛ لأن كل نفس مهما كانت عالمة أو جاهلة، غنية أو فقيرة، فإنما هي متفردة ولها كرامتها المطلقة عند خالقها: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾[المائدة: ٣٢]، فمن اتصف بشيء من هذا الخلق الذميم، فإن فيه خصلة من خصال أهل الكفر، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾[الحجرات: ١١].

---

(١) وهذا ما يسمى مثلث العلاقات الإنسانية، حيث لا ينفك الإنسان مدى وجوده مرتبطاً بثلاثة أنواع من العلاقات من حيث نوع الجهة التي يتعلق بها: أوّلها: علاقته مع من لا نظير له: «ربه وخالقه»، والثانية: علاقته مع «نظرائه» من الخلق، والثالثة علاقاته مع «من ليس له بنظير» مما سخر الله له من الحيوان والجماد وغيرها.

(٢) قال مجاهد: الهمزة باليد والعين، واللمزة باللسان، كما رواه ابن كثير في تفسيره: ٨/ ٢٩٩.

﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾:

وأما **طغيان** «الهُمَزَة اللُمَزَة» فيما استخلف فيه من **خيرات الأرض**: فهو أنه يجعل جمع القوة المادية غاية لذاته، وليس وسيلة للاستعداد للقاء الله، فتراه **يجمع المال ـ وهو سبيل القوة ـ بنهَمٍ بلا حد يحده**[1]، **ويمنعه عن مواضع إنفاقه التي يحبها ربه، ويمضي المرة تلو المرة يحصيه ويعده عداً**؛ لأن المال وحده يعطيه القيمة، لأنه «هو» بلا قيمة منذ أن أضاع معرفة نفسه وربه، حتى أنه يظن الكمال لنفسه بنسبته المال لنفسه: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾[القصص: ٧٨]، فيطغى على الخلق ويتعالى عليهم وينتقص منهم بما ظنه من استغنائه عمن سواه بماله: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[العلق: ٦ ـ ٧].

وكلما زاد امتلاكه للقوة زاد طغياناً بما نسيه من لقاء الله، «فينطلق في هوس بهذا المال يعده ويستلذ تعداده، وتنطلق في كيانه نفخة فاجرة، تدفعه إلى الاستهانة بأقدار الناس وكراماتهم ولمزهم وهمزهم[2]».

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾:

وأما **طغيان** «الهُمَزَة اللُمَزَة» **مع ربه**، رب الناس ورب الأرض: فهو في **قطع رجائه من الله**، وظنه ـ لقلَّة عقله ـ الأمان بماله الذي عدده، حتى يتوهم به الخلود في الدنيا[3]، والإفلات من الحساب، فأحب ذلك المال كما يحب

(١) وإنما نكَّر «مالاً» لأن «المال» اسم لكل ما في الدنيا، أو نكَّره لأنه يجمع المال مهما كان هذا المال خبيثاً أو فاسداً في مصدره.

(٢) في ظلال القرآن: ٨/ ٦٦٢.

(٣) قال: «أخلده»، ولم يقل: «يخلده»: لأن المراد: يحسب هذا الإنسان أن المال =

الخلود؛ لأنه يحسب أن هذا المال بما يُخوِّله إياه من سلطة وقوة يشتري بها الذمم والأعراض والسلطان: «إله قادر على كل شيء، لا يعجز عن فعل شيء، حتى دفع الموت وتخليد الحياة، ودفع قضاء الله وحسابه وجزائه إن كان هناك في نظره حساب وجزاء[1]»، فالمال يقيه الموت ويجعله خالداً؛ لأن الخلود في الدنيا أقصى متمناه ما دام لا يؤمن بحياة أخرى خالدة، **فطغى مع ربه الذي استودعه ما أوتي من قدرات جمع بها ذلك المال وعدده**، ونسي أن الأمان بالله وحده: ﴿**ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ**﴾[الأنعام: ٨٢].

﴿**كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ**﴾:

«**كَلَّآ**»: هذا أمر من الله، بأداة الردع: «كَلَّآ» الجامعة لكل زجر، لكل طاغية ما دام في هذه الحياة، لعله يرتدع عن طغيانه بأنواعه، فليس الأمر كما يظن أن المال والقوة تخلده، بل الإيمان والإصلاح، ليكون جديراً بحمل أمانة الوجود.

ثم تطوي السورة صفحة الوجود الحاضر، وإن كان فيه بعض الجزاء على ما يفعله الإنسان، في الخير وفي الشر، ولكنه أقل شأناً من أن يكون هو الجزاء، **وإنما الجزاء الحق يوم لقاء الله، وسيكون من جنس ما فعله الطاغية**، وبما خان من أمانة وجوده، ونسي لقاء ربه، **فطغى** وجاوز حدَّه مع **نظرائه من**

= ضمن له الخلود وأعطاه الأمان من الموت وكأنه حكمٌ قد فرغ منه، ولذلك ذكره على الماضي.

(١) في ظلال القرآن: ٨/ ٦٦٣.

الناس، ومع ما استخلفه فيه ربه من **خيرات الأرض**، ومع **خالقه** رب السماوات والأرض.

فأما جزاؤه بما طغى وتكبر على نظرائه من **الخلق**، فإنه ﴿لَيُنۢبَذَنَّ (١)﴾: أي **سيُلقى ويُطرح باحتقار إلى موضع واطئ سافل**، كما يُطرح أهون شيء.

وأما جزاؤه بما **طغى** في جمعه ومنعه فيما استخلفه ربه فيه من **قوى في الأرض**: فهو نبذه مع ما جمعه، حيث يحوطهم موضع واحد **يحطم بعضه بعضاً**: ﴿فِي ٱلۡحُطَمَةِ (٢)﴾، فكيف بمن يلقى فيه وما يلقى فيه؟، وتلك هي جهنم التي وعد الله من خان أمانته: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾[البقرة: ٢٤]، ووصفُها بالحطمة هنا من جنس وصف الكافر بـ «الهمزة اللمزة»، وهي تحطمه وتدقه وتكسره كسراً لا يقاس به ما كسره من نفوس الناس بتعاليه عليهم وانتقاصه لهم.

وأما جزاؤه بما **طغى** مع خالقه **رب السماوات والأرض**، فدارُ «ألمٍ»(٣) هائلٍ أعدَّها رب السماوات والأرض، وعَظَّم شأنها بقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ﴾، أي: لا سبيل لعلمك مهما اجتهدت بوصف هذه الدار، فإنه ليس في الوجود الذي شاهدتموه ما يقاربها ليكون مثالاً لها، لأنها: ﴿نَارُ ٱللَّهِ﴾

---

(١) والنبذ: الإلقاء والطرح، وأكثر استعماله في إلقاء ما يكره.

(٢) قال المبرد: «الحطمة»: النار التي تحطم كل من وقع فيها، وأصل الحطم في اللغة الكسر، ويقال: «شر الرعاء الحطمة»، وهو راعٍ حطمة، كأنه يحطم الماشية، أي: يكسرها عند سوقها لعنفه.

(٣) الألم: حاجز الإدراك، وبه ينهض الوعي من السبات، ويتنبه بعد الغفلة إلى ما نسيه من أصله وخلقه وأمانته.

الذي استودعك الأمانة وغفلت عنه وأمنت بغيره، نسبها لنفسه لهولها، فعظمتها من عظمته، وسيعذب فيها من خان أمانة وجوده ونسي لقاء ربه، وهي ﴿ٱلْمُوقَدَةُ﴾ فلا تُطفأ ولا يزول لهيبها؛ لأن مددها من الحي الذي لا يموت.

﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾:

إن ما سبق بيانه من عذاب سيكون بما نكل عنه الإنسان من حمل أمانة ربه في هذا الوجود، وبما طغى، وكما أنه قد ذاق نعمة وجوده في هذه الحياة **بتفرده** الذاتي وتفرد روحه عمن سواه، وبمكوثه في **مكان** جميل **متنوع بلا حد**، وحركته في **زمان متغير** لا يتكرر فيه شيء[1]، فإن لوجوده القادم الموعود به خصائصه في حال ذاته وفي المكان وفي الزمان:

فأما **حال ذاته**: فإن نار الله التي سيكون فيها: ﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾، وتنفُذ من شدتها من الجسم إلى القلب، حيث موضع «الأنا» والهوية المتفردة التي تعالت على أمر ربها، وكان فيه ما كان من الخبث والفساد، فتعلو وسطه، وتشتمل عليه اشتمالاً بالغاً، وتصيب كل فؤاد بما هو حقه من شدة الألم، على حسب مبلغ سوء عمله وطغيانه.

وأما **مكانه**: فإن نار الله «مُوصَدَةٌ»: مطبقة بغاية الضيق، مغلقة عليهم دون سواهم، فهم محبوسون في المكان، بلا منفذ للخروج ولا أفق لمد البصر، يلازمهم فيها العذاب، ويلازمون مكانها، موصدة عليهم كما أوصدوا بجمعهم المال وحبسوه عن أبواب الخير.

وأما **الزمان** في نار الله: فإن مكوثهم في الحطمة الموصدة عليهم سيكون

---

(١) وهو ما يعرف بمثلث الوجود الإنساني: الإنسان والمكان والزمان.

﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾، أي: يكون في حال كونهم موثقين في عمد[1] كثيرة ممدودة، هي من طوق جهنم الذي لا أمل من الفكاك منه: ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢٦]، مقيدين لا يتغير عليهم الزمان مهما امتد تأكيداً ليأسهم من الخروج إلى الأبد، كما طغوا وظنوا أنهم سيخلدون بمالهم، فيخلدون في عذاب ممدود، في دهر ممدود لا انقطاع له.

*** لمحات من جمال التصوير الفني في السورة**

يجيء التهديد ووعيد الطغاة في السورة «في مشهد من مشاهد القيامة يمثل صورة للعذاب مادية ونفسية، وصورة للنار حسية ومعنوية، وقد لوحظ فيها التقابل بين الجرم وطريقة الجزاء وجو العقاب، فصورة الهمزة اللمزة: الذي يدأب على الهزء بالناس وعلى لمزهم في أنفسهم وأعراضهم، وهو يجمع المال فيظنه كفيلاً بالخلود، صورة هذا المتعالي الساخر المستقوي بالمال، تقابلها صورة «المنبوذ» المهمل المتردي في «الْحُطَمَةِ» التي تحطم كل ما يلقى إليها، فتحطم كيانه وكبرياءه، وهي ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾، وإضافتها لله وتخصيصها هكذا يوحي بأنها نار فذة، غير معهودة، ويخلع عليها رهبة مفزعة رعيبة، وهي (تَطَّلِعُ) على فؤاده الذي ينبعث منه الهمز واللمز، وتكمن فيه السخرية والكبرياء والغرور، وتكملة لصورة المحطم المنبوذ المهمل، فهذه النار مغلقة عليه، لا ينقذه منها أحد، ولا يسأل عنه فيها أحد، وهو موثق فيها بذلٍّ وثاقاً بلا انفكاك.

---

(١) والعمود: الأصل الذي يقوم عليه الشيء، ويقال: عمود البيت للذي يقوم به البيت، والممددة: المجعولة طويلة جداً.

وفي جرس الألفاظ تشديد: «عَدَّدَهُ»، «كَلاَّ»، «لَيُنبَذَنَّ»، «تَطَّلِعُ»، «مُّمَدَّدَةٍ»، وفي معاني العبارات توكيد بشتى أساليب التوكيد: ﴿كَلَّآ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾ فهذا الإجمال والإبهام، ثم سؤال الاستهوال، ثم الإجابة والبيان، كلها من أساليب التوكيد والتضخيم[1]»، عدا ما في إبهام الفاعل بالبناء للمجهول في (لَيُنبَذَنَّ، الْمُوقَدَة، مُّؤْصَدَةٌ)، من تهويل!.

* **خاتمة:**

بين الوعيد بـ «وَيْلٍ» لا حدود له، وزجره بكلمة جامعة لكل زجر: «كَلاَّ»، لعله يتذكر أو يخشى، تعالج هذه السورة نزعة الطغيان الكامنة، والتي تظهر في الإنسان كلما زاد جمعاً للقوة، وتمتد بلا حد حتى يصل طغيانه إلى نفسه، حين ينسى أصله ونفسه، وتتوعد الإنسان بجزاء من جنس عمله، **بالنبذ باحتقارٍ مقابل طغيانه بتعاليه ولانتقاصه من نظرائه في الخلق، وبجمعه مع حجارة الأرض في نار يحطم بعضها بعضاً مقابل ما طغى في جمع ومنع خيرات الأرض، وبدار ألم عظيم أعدها ربٌّ عظيمٌ جزاء ما طغى برجائه من سوى الرب العظيم.**

لقد ذقت في هذه **الحياة** جمال الوجود، **في الوعي بتفردك وتميزك** وهويتك بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً، **ثم في استخلافك في مكان ذي تنوع بلا نهاية**، تنتقي منه ما تستعمره، **ثم في ظرفك في نظام زمان حيوي مستمر التغير**، لا يتكرر فيه حدثان مدى الوجود، وهذا كله تقدمة لوجودك النهائي،

---

(١) في ظلال القرآن: ٨/ ٦٦٣.

حيث جزاؤك على الجدارة بحمل الأمانة موضع خاص بك، **متفرد كتفردك**: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾[الأحقاف: ١٩]، **في مكان ممتد بلا حد** بكل بعد: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾[آل عمران: ١٣٣]، **وزمان لا ينتهي** من بعد: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[البقرة: ٢٥]، فهل ترضى به بديلاً موضعاً **تمحى فيه هويتك** حين «تطَّلع» نار ألمه على فؤادك، وتحاصر فيه في **مكان «موصد»** مطبق عليك، **لا ترجو فيه تغيراً** ولا تحولاً، لأنك موثوق مدى **زمان** وجودك فيه وثاقاً ممدوداً لا يوثقه سوى ربك من أحد!، وهل بعد هذا الخسران من خسران؟

لقد زجرك ربك عن أن تطغى بـ «كَلاَّ» فازدجر، واعدِل مع الخلق، واحذَر أن تتعالى على إنسان، أو تنتقص منه مهما قلَّ شأنه، أو ظهر في عينه انكسار الحاجة إليك، لأنه متفرِّدٌ مثلك، وأصلح الأرض، واحذر قلة أدبك مع خيراتها أن تجمعها وتنسبها لنفسك، أو تُفسد فيها بشيء لا يحبه ربك، وأخلص دينك لله، ولا تطغى فتجعل ثقتك ورجاءك في غير الذي خلقك، وجَعَلَ فقرك إليه في أصل خلقتك، ولا تنازع ربك الكبرياء؛ فإنه وحده الغني المتكبر: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[الجاثية: ٣٧].

❑ ❑ ❑

من وحي
السورة التي يُذكر فيها الفيل
(١٠٥)

حين تطغى الأمم

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ
ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]

البناء الموضوعي للسورة القرآنية
من وحي السورة التي يُذكر فيها الفيل
(١٠٥)

حين تطغى الأمم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ﴾.

*** مقدمة:**

خلق الله الناس مختلفين: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨ ـ ١١٩]، وأدى اختلافهم عبر تاريخ الإنسانية إلى **التدافع** فيما بينهم: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾[البقرة: ٢٥١]، وأدى تدافعهم إلى ما أراده الله من **مداولة الأيام** بين الناس: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١٤٠].

وفي إطار مثلث الاختلاف والتدافع والمداولة الحضارية هذا[1]، يأتي حينٌ من الدهر على أمة من الأمم، فتظن في نفسها أنها قدرت أخيراً على الأرض: ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾[يونس: ٢٤]، **فتطغى** حتى ترى

---

(١) يُسمَّى «مثلث الحركة الحضارية».

نفسها الأشد قوة: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾[فصلت: ١٥]، وتنسى أنه مجرد استخلاف مؤقت: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤]، وأن الله الذي خلق الأمم هو الأشد منها قوة، وأنه آخذهم وهم أشد ما يكونون فرحاً بما أوتوا: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾[الأنعام: ٤٤].

*** صورة من التاريخ:**

في زمنٍ كان «الفيل» فيه رمزاً للرعب وللدمار الشامل في مواجهة السيف والخيل، أغرى الطغيانُ أبرهة الحبشي أن يهدم الكعبة بيت الله الذي بناه إبراهيم؛ ليصرف الناس عنها إلى المعبد الضخم الذي بناه في اليمن، وسار بجيشه الجرار يهزم ويأسر من وقف بوجهه من العرب، وأرسل مَنْ يبلّغ سيّد مكة أنه إنما جاء لهدم البيت، فإن لم يتعرَّضوا له فلا حاجة له في دمائهم.

وما كان للعرب من طاقة بحربه، فأمر سيد قريش الناس بالخروج من مكة، والتحرز في شعف الجبال يدعون الله ويستنصرونه أن يمنع بيته ويحميه، فكان أن حبس الله الفيل وجيشه عن مكة، وأهلك الله الجيش وفيله وقائده بجندٍ من جنده التي لا يعلمها إلا هو، وليحفظ بيته مثابةً للناس وأمناً، تأرز إليه عقيدة الحق، وتزحف منه إلى أصقاع الأرض حُرَّةً طليقةً، لا يهيمن عليها أحد من خارجها، ولتحكي هذه الواقعة الثابتة طلاقة مشيئة الله وقدرته من وراء السنن التي ألفها البشر.

ثم جعل الله دون تلك المعجزة فتحاً قريباً، فأذن للأرض أن تستقبل ولادة رسوله ﷺ تلك السنة، وليجعل تلك الموافقة بشرى أن الذي حمى بيته

سيحفظ للحق رايةً ورجالاً، لا ينالهم كيد الكائدين ومكر الماكرين مهما كان، ظاهرين على الحق، لا يضرهم مَنْ خالفهم ولا مَنْ خذلهم إلى قيام الساعة، وعلَّمنا في كتابه أن فعل الله وجنده ذاك سيتكرر كلما تكرر من الباطل وأهله التجبر.

* **خط البناء الموضوعي للسورة:**

(حين تطغى الأمم)

١ ـ **دعوة**: للشهادة على فعل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾.

٢ ـ **بيان**: قدرة الله في أن يفعل ما يشاء: ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾.

٣ ـ **دعوة**: للاعتبار بسنن الله: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ﴾.

٤ ـ **بيان**: سنة الله في عاقبة الأمم الطاغية:

* **إضلال تدبيرهم**: ﴿كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ﴾.

* **إتيانهم بتدبير من حيث لا يحتسبون**: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾.

* **عقابهم بشدة وألم**: ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾.

* **إزالة شأنهم من الأرض**: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾.

* **العرض:**

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾:

الاستفهام بـ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تكريمٌ لكل فرد في «الأمة الشاهدة»، وهو يدعوه ربه للشهادة على طلاقة قدرته، ثم هي دعوة للاعتبار، **وإلحاق أمر الأمم الطاغية مهما بلغت قوتها الظاهرة، في كل زمان من بعد، بما فعله رب الأمم جميعاً بـ ﴿بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾، حينما يبلغ الأمر بها حد إرادة استئصال**

الحق الذي لا حول له ولا قوة من الأرض.

ثم إن الذي تولى «**الفعل**» بكيفيةٍ تخرق سنن الكون في قتلهم وإبادتهم هو ربك وربهم: ﴿**كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ**﴾، ورب محمد ﷺ الذي خاطبه هنا، حيث أراد سبحانه أن يتم النصر من لدنه وحده، بما فيه من أسباب ظاهرة وباطنة، فلا يكون لقريش المشركة فضلٌ فيه لا تستحقه، كأنه يقول: إنما فعلت ذلك بأصحاب الفيل تمهيداً لظهور محمد ﷺ وتشريفاً له، فإذا كنت مربياً وراعياً له وللحق قبل بعثته، فهل أترك ذاك بعد أن أرسلته رحمة للعالمين؟ حاشا ربنا!

وقد كان «**أَصْحَاب الْفِيلِ**» ـ بطغيانهم ـ أشد من جنس الفيل في البهيمية وعدم الفهم، حيث إنهم كلما وجَّهوا الفيل إلى الكعبة فرَّ عنها وأبى التوجه إليها، أما هؤلاء فكانوا أدوَن من الفيل في إصرارهم على معصية الخالق وإرادتهم محوَ الحق: ﴿**إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا**﴾[الفرقان: ٤٤].

﴿**أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ**﴾:

اشهد يا من يقرأ القرآن أن ربك وربي أضلَّ ﴿**كَيْدَهُمْ**﴾: ـ تدبيرهم الخفي ـ حتى لا يبلغ غايته، ويكونوا كالذي ضل الطريق وما وصل إلى مبتغاه، حتى أنه «ظَرَفَ» فعلهم كله وتدبيرهم في الخفاء ليلاً ونهاراً ﴿**فِي تَضْلِيلٍ**﴾، فكأنه محوط ومحاصر بالتيه والجهل المركب، فلا يخرج من التضليل فعل من أفعالهم، وذلك مصير كل من تعرض لحرمةٍ من حُرمات الله في بيت من بيوته، أو آذى وليّاً من أوليائه فآذنه الله بالمحاربة.

﴿**وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ**﴾:

وقد أتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، وأرسل من فوقهم طيوراً متفرقة في

جماعات، ما يدرون قدرها، وقد غرهم طغيانهم، وهو الحال مع من كان اعتماده على جبروته من دون الله: أن يهلكه الله بأضعف خلقه.

وهكذا مضت سنة الله في هؤلاء وفي غيرهم من قبل ومن بعد، وتمت مواجهة الفيل ـ أمضى سلاح في زمانه ـ بأكثر مخلوقات الله وداعةً ولطفاً: ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ ـ **طيور مرسلة في جماعات** ـ، وكذلك كان أمر الله، وسيكون في شأن كل أمة تطغى وتتسلط في زماننا وفي غيره، لن يعدو قدرها أن يسلِّط عليها سوساً ينخر أسس قوتها وعرشها من داخلها، أو جنداً من جند الله من مثل ريح إعصار تقتلع بنيانها، أو زلزال يهز الأرض من تحتها ويهدم حضارتها.

﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾:

كان دمار هؤلاء بحجارة رمتهم بها تلك الطيور المحلقة جماعات، وكانت تلك الحجارة من ﴿سِجِّيلٍ﴾، أي: إنها لم تكن حجراً صخرياً ولكنها طين متحجر أُعدَّ لعذابهم، من جنس الحجارة التي أُمطرت على قوم لوط، حتى أن الحجر كان إذا وقع على أحدهم نفط جلده، جزاءً لمن أراد تدمير رمز الفطرة والحنيفية السمحة: بيت الله الذي رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[هود: ١٠٢]، وإن عذاب الله ليأتي من حيث لا يحتسب العبد، ليدوم الحذر منه سبحانه.

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾:

كان مآل الجيش العرمرم الذي اعتمد أقوى سلاح في وقته، وغلب عليه

زهوه وثقته الكاملة بالنصر، أن صار ﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾، وهو ورق الزرع الذي أكلته الدواب وراثته وداسته بأرجلها وأكلت أطرافه وطرحته على الأرض، وهكذا أصبح مصيرهم متساقطين هالكين بعد تلك النضرة والقوة، وليعلم الخلق أن القوة لله جميعاً، وأن له الأمر من قبل ومن بعد، وأن مَنْ جاهر بالمعصية أسرع إليه الهلاك بخلاف مَنْ تستَّر، فيهلكه الله بما يخزيه **ويجعله عبرة**: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾[مريم: ٩٨].

*** خاتمة:**

كرّم الله سبحانه سيد الخلق محمداً ﷺ وهو لا يزال جنيناً، فحفظه وحفظ أمه وأهله من الاسترقاق والسبي، وحفظ بيته من الهدم، من أجل الدين الذي بُعث برسالته، وليشهد وليطمئن من يتبع هذا النبي أنه سبحانه قادر من بعد وحتى قيام الساعة على أن يحمي كل من رفع وسيرفع راية هذا الدين.

وللتاريخ الإنساني شهادة تنطق بصدق ما دعاك الله للشهادة عليه في هذه السورة من كمال قدرته وسلطانه على خلقه، وعلى سنته الماضية في الأمم الصغيرة التي ظنت يوماً ما أنها قدرت على الأرض، لتعلم أن وعد الله حق في الدنيا والآخرة، وتشهد على صدق ما أنزل في قرآنه العظيم، ببقاء الدين محفوظاً كل هذه القرون رغم كل كيد الكائدين من كفار ومشركين.

ثم إن شهادتك هذه طريق لتكون من الشاهدين يوم تجثو كل أمة، وتأتي كل أمة لتجادل عن نفسها، والوزن يومئذ الحق، فمن ثقلت موازينه من ذلك الحق فأولئك هم المفلحون.

واعلم أنه قد تختلف مظاهر التمكين لأمة دون أخرى عبر العصور،

ولكن الطغيان واحـد، ومصـيره واحد، ولنا عبرة في جيش أبرهة صاحب الفيل، ومن بعده جيوش البغي والطغيان في كل زمان!، وإذا كان عبد المطلب عندما أخلص في الدعاء في دفع البلاء عن البيت، لم يخيب الله رجاءه وسمع دعاءه، وما كان الله ليضيع بيته، فكيف يضيع الإسلام وأهله؟، وإنَّما أُجيب «عبد المطلب» لأنه لم يسـأل الله لنفسـه، فكيف إذا دعاه المؤمن المخلص اليوم ليحمي دينه الحق؟، ألا تشهد بأن الله لن يضيع دينه؟.

❑ ❑ ❑

من وحي
السورة التي تُذكر فيها قريش
(١٠٦)

بين الأمم والنعم

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾[النحل: ١١٢]

البناء الموضوعي للسورة القرآنية
من وحي السورة التي تُذكر فيها قريش
(١٠٦)

بين الأمم والنعم

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾[النحل: ١١٢]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾.

*** مقدمة:**

إن للأمم كما للأفراد حياةً وموتاً، وأعماراً وآجالاً، ونمواً ونضجاً، وفتناً وابتلاءاتٍ، ولله عليهم حقوق، كما هو بين الله وبين كل فرد من النوع الإنساني، وأصل تلك الحقوق ما أسبغ الله على الكل من نعم، وأعظمها على الأمم: نعمة الهداية للحق، ثم النعم المادية التي تمثل قوام وجود المجتمعات، وأعظمها **الأمن الاجتماعي والأمن الاقتصادي**، وبهما يشاد صرح الحضارات، **مما يوجب على كل أمة حقاً لله، بتوجهها بكلها لعبادته وحده**، وفاءً بحق جزء صغير من تلك النعم.

وكما خوطبت كل الأمم بهذا القرآن لتستجيب لنداء ربها، فقد خوطبت

قبيلة سيد الخلق محمد ﷺ بهذا القرآن خطاباً خاصاً، على أنها عائلته الكبيرة التي منها خـرج، ومنها خرجـت أول صفوة مختارة من عباد الرحمن، كما أنها كانـت تجـاور البيت العتيق الذي جعله الله آية للإنسانية جمعاء: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾[آل عمران: ٩٧]، ومثابـةً وأمنـاً: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾[البقرة: ١٢٥]، وإليها كانت أول النـذارة والبشـارة، تكريماً لذكر هذه القبيلة بتخصيصها بخطاب يُتلى إلى قيام الساعة.

*** خط البناء الموضوعي للسورة:**

(بين الأمم والنعم)

١ ـ **دعوة قبيلة سيد الخلق لتذكر ما اعتادت عليه من اختصاص بالنعم:** ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾.

٢ ـ **أمر لهم ولمن سواهم بعبادة الله واهب النعم:** ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟﴾.

٣ ـ **جعل بيت الله آية للأمم لتعرف المنعم:** ﴿رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾.

٤ ـ **بيان نعم الله التي تقوم بها حياة كل الأمم:**

*** الأمن الاقتصادي:** ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾.

*** الأمن الاجتماعي:** ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾.

*** العرض:**

خاطب الله قريشاً بتذكيرهم بما امتن عليهم وجعلـه لهم من **اعتيادهم نعماً** من نوع خاص، قلَّما كانت لغيرهم: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾، وأوَّلُها الرفعة والشرف الذي لا يعلى عليه، ومنه اشتق اسم قبيلتهم «قُرَيْشٍ»، كما قال ابن عباس من اشتقاق اسمهم من دابة البحر «القرش»، حيث ليس في الأرض

نسب كنسبهم، ولا فرع كفرع ذلك النسب، فأصلها من إبراهيم عليه السلام، وفرعها الكريم محمد ﷺ، سيد الخلق، وأشرف من وطئ الأرض.

ثم إنه قد أنعم الله تعالى عليهم بمجاورة **البيت العتيق**، الذي هو أول بيت وُضع لعبادة الله، وجعله الله **رمز وحدة النسب الإيماني بين البشرية جمعاء** عبر تاريخها الطويل، على اختلاف ألوانها ومظاهر تمكينها، واختص الله قريشاً ببركة تلك المجاورة باعتيادهم نعماً لم تكن لغيرهم من العرب، ولم تُقطع عنهم حتى اعتادوها كاعتيادهم الماء والهواء، وهو ما سماه الله سبحانه الإيلاف: ﴿لِإِيلَـٰفِ قُرَيۡشٍ﴾، لاعتيادهم لعظيم النعم والرفعة والمكانة، ثم قيّده بالرحلتين: ﴿إِۦلَـٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ﴾، تفخيماً لأمر هذه النعمة بالذات في اعتيادهم رحلة آمنة إلى الشام وإلى اليمن، ضمنت رزقهم في ذلك المكان المقفر صيفاً وشتاءً.

وإنما كانت رحلة آمنة لما أودع الله من مهابتهم في قلوب الناس لمجاورتهم البيت العتيق، فضمن لهم قوام «**النظام الاقتصادي**»، المتمثل في وفرة الأقوات وسهولة التبادل: ﴿ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ﴾، وقوام «**النظام الاجتماعي**» المتمثل باستتباب الأمن وانتفاء الخوف: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾، وهما **المقومان الرئيسان لوجود أي مجتمع إنساني ودوامه**.

وبهذا حق عليهم الخضوع لرب البيت المهيب: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ﴾ شكراً للنعمة وطلباً لدوامها وامتداداً لفخر العلو بالإيمان ومعرفة الله الحق بعدما علت بالدم وبالنسب وبالإقامة في أطهر بقاع الأرض.

وفي الإشارة بالتعظيم إلى البيت العتيق تذكيرٌ بالمعجزة التي شهدتها

قريش، وتشهدها البشرية في كل زمان، بأن جعل هذا الموضع مثابةً للناس وأمناً، وجعل فيه آيات بينات تثبت كرامته عبر العصور، بعد أن رفع قواعده أبو الأنبياء إبراهيم، بوادٍ مقفرٍ غير ذي زرع، لا يغري أحداً بالوصول إليه، ثم أهوى رب البيت قلوب الناس إليه، فما من موضع في الأرض له من الهيبة والحب كما له، وجعل الثمرات تُجبى إليه من كل الأنواع، من كل مكان، والناس تقصده وتحج إليه رجالاً وركباناً، منذ أمر الله نبيه أن يؤذن في الناس بالحج: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[الحج: ٢٧]، **وفي ذلك كله حجة على البشرية جمعاء وعلى قريش، لأن يتوجهوا إلى رب هذه المعجزة القائمة، بما يأمرهم به.**

فإن استجابت قريش لتوحيد الله بالعبادة، فلها مالم يكن لقبلها من الأمم والقبائل من السيادة والمنزلة في الدنيا والآخرة، وإن أبت فسيحل عليها ما حلَّ بمن قبلها من مكذبي الرسل، وما سيحل بمن سيجيء بعدها من الأمم، التي يمكّن الله لها من أسباب النمو والقوة والتمكين في الأرض حين تتوفر لها مقومات الأمن الاقتصادي والأمن الاجتماعي، كما هو في كثير من الأمم التي جاءت بعد قريش مع اختلاف مظاهر التمكين، فتعتاد العلو وتنسى العلي الكبير الذي يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء.

فهي دعوة لكل أمة يُمكِّنها الله في الأرض، وتعتاد التمكين، لأن تخضع باستسلامٍ لإرادة القاهر فوق العباد، الذي أهلك الأولين وسيتبعهم الآخرين، وإلا سُلبت ما تتمتع به من أمن ورزق رغيد، وذاقت الخوف والجوع، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ

﴿وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾[النحل: ١١٢].

إنه إله واحد، وأمم مختلفة تساق في التاريخ الإنساني إلى أقدار محددة من التمكين والتمتع بالنعم، ولها أن تختار بين أن تعبد ذلك الإله الواحد، رب البيت العتيق، الذي جعله معجزة باقية عبر العصور، فتكون لها رفعة في الدنيا والآخرة أعظم من رفعة «قريش» إن أحسنت العبادة أكثر مما أحسنتها «قريش»، أو أن تجحد الله، فيسلبها الله ما وهبها إياه في الدنيا، ويخزيها في الآخرة.

*** خاتمة:**

في سياق تذكير الخلق بحق الخالق، وبيان حق الله على كل مجتمع إنساني، اختار القرآن قريشاً لتفرُّدها بأولية تلقِّي الوحي، حيث كانت مع جلال نسبها وعلو مقامها بين العرب أول من تشرَّف بتلقي رسالة السماء الأخيرة إلى الأرض، والبشارة والإنذار بين الناس، وإليها انتسب سيد العجم والعرب محمد ﷺ، فخُصَّت بذكر يُتلى إلى قيام الساعة، يتذكر به من تذكر من الأمم بعد أن جاء النذير.

وبجملتين قصيرتين، تكادان تكونان كلمتين، اختصر القرآن مقومات وجود المجتمع الإنساني والفعل الحضاري، ونسب تلك المقومات إلى واهبها، وأوجب له الحق الذي يريد باعتباره واهباً، ليجتمع النوع الإنساني كله في إطار الانتماء للرب الواحد، «رب البيت العتيق»: رمز توحيد ذلك الرب العظيم، الذي جعل هذا البيت محفوفاً بالكرامات التي تشهدها الأمم في كل العصور، فتكون حجة عليهم جميعاً كما كانت حجة على قريش.

أليس هذا المعنى الجليل وحياً من رب واحد عظيم؟

بلى، ونحن له عابدون!

❑ ❑ ❑

من وحي
السورة التي يُذكر فيها الماعون
(١٠٧)

الأمة الشاهدة
(روح المجتمع الإسلامي)

البناء الموضوعي للسورة القرآنية
من وحي السورة التي يُذكر فيها الماعون
(١٠٧)

الأمة الشاهدة
(روح المجتمع الإسلامي)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَرَءَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝٢
وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ
سَاهُونَ ۝٥ الَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾.

✱ مقدمة:

الناس صنفان: صنفٌ مصدِّق بلقاء الله، وقد جعل الحياة فرصة للاستعداد للقائه، فجعل الله القرآن له هدىً ونوراً: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[البقرة: ٢]، **وصنفٌ مكذِّب بهذا اللقاء،** ولا يرجو من العمر سوى **تحصيل قوة يقضي بها شهوة،** وهؤلاء على نوعين: **نوع يُظهر هذا التكذيب** ويجاهر به: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[البقرة: ٦]، وقد أصمهم الله وأعماهم عن النور: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[البقرة: ١٧١]، **ونوع يُظهر الإيمان ويبطن الكفر:** ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾[البقرة: ٨]، وهم مرضى القلوب المنافقون: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾[البقرة: ١٠]، وهؤلاء يتقلبون

بحسب تمكُّن مرض القلب منهم، فكلما أضاء لهم نور الحق مشوا فيه، وإذا أظلمت بصيرة قلوبهم قاموا متحيرين: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْ﴾[البقرة: ٢٠].

وقد رفع الله قدر الصنف الأول ـ أهل الهدى ـ، وأكرمهم بأن وضعهم في مرتبة الشهادة على الناس[1]: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾[البقرة: ١٤٣]، فيعرفون كل صنف بعلامات لهم: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ﴾[الحِجْر: ٧٥]، وهذه العلامات من النور الذي يُعلِّمهم ربهم: ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾[الحديد: ٢٨]، وهذه السورة من هذا النور الذي وعدهم به، وقد بينت العلامات الظاهرة التي تُعرف بها أصناف الناس، فهي دعوة لهم لأن يعرفوا كلاً من الناس بسيماهم، ويشهدوا لله بها عليهم جميعاً، كما أنها تدعو الأمة وكل فرد فيها للشهادة على أنفسهم، من خلال تخلقهم بنقيض ما وسم الله به المكذبين بلقائه من علامات.

*** خط البناء الموضوعي للسورة:**

١ ـ دعوة أمة الهدى للشهادة على الناس بعلاماتهم: ﴿أَرَءَيۡتَ﴾.

٢ ـ علامات الناس المكذبين بلقاء الله:

---

(١) وفي صحيح البخاري: كتاب الجنائز، باب ثناء الناس على الميت، الحديث رقم: ١٣٦٧، عن أنس بن مالك ﷺ، يقول: مرُّوا بجنازة، فأثنوا عليها خيراً، فقال النبي ﷺ: «وجبت» ثم مرُّوا بأخرى فأثنوا عليها شراً، فقال: «وجبت» فقال عمر ابن الخطاب ﷺ: ما وجبت؟ قال: «**هذا أثنيتم عليه خيراً، فوجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شراً، فوجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض**».

أولاً ـ الكفار: ومن علاماتهم:

* الطغيان على الضعيف **بالفعل**: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾.

* نبذ الدعوة إلى الخير **بالقول**: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾.

ثانياً ـ المنافقون: ولهم مع علامات الكفار:

* خصال **باطنة**، منها إعراض بالسر عن طاعة **الخالق**: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾.

* وخصال **ظاهرة** في العلن، منها عدم بذل العون **للخلائق**: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾.

٣ ـ **وعيد** للمكذبين بلقاء الله كفاراً ومنافقين: ﴿فَوَيْلٌ﴾.

٤ ـ إن كل من كانت فيه خصلة من خصال المكذبين فله من وصفهم بعض النصيب، **وأمة الشهادة على الناس**: هي أمة نصرة الضعيف والدعوة إلى الخير، والإخلاص للخالق بالسر والعلن، وبذل المعروف لكل الخلق، وهذا **جوابها** تصديقاً لإيمانها؛ لأنها **خوطبت بالسؤال**: ﴿أَرَءَيْتَ﴾، ولتستحق به مرتبة الشهادة على الأمم.

* **العرض**:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾:

هذا خطاب تشريف[1] واستئناس للمصدقين بلقاء الله من أمة محمد ﷺ،

---

(١) وهو تشريف أيضاً باستحقاق الخطاب من الله، أي: إنك أيها المصدق بلقاء الله تستحق شرف الخطاب من الله، ثم شرف كونك شاهداً لله على الإنسانية، بما خاطبك الله.

ونقلة لهم من تكليف الدعوة إلى رتبة **الشهادة لله على الناس** ممن يكذب بلقاء الله، كفاراً كانوا أم منافقين، فيخاطبهم الله بقوله: ﴿أَرَءَيْتَ[1]﴾: هل علمت يا محمد ـ وأمتك تبع لك في ذلك ـ علامة المكذب بيوم الحساب، الذي لم يجعل الحياة لما خُلقت له، لتعجب من حاله وسوء صنيعه، **وتعرفه بعلامته في الدنيا وتشهد عليه؟**

وشهادة الأمة توجب العذاب أو النعيم لمن شهدت له كما ورد في الحديث السابق: «**من أثنيتم عليه خيراً وجبت له الجنة، ومن أثنيتم عليه شراً وجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض**»، فتأمل أيَّ مكانة وأيَّ منزلة بوَّأها الله هذه الأمة المباركة!.

﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾:

إن للمكذبين بلقاء الله علامات يُعرفون بها، وكما يغرس حب الله في النفس جذور الإقبال على الخير، والانسياق إليه بدون كلفة تقرباً إلى الله، فإن إنكار القيامة كالأصل لجميع أنواع الكفر والفساد، وإن من يُكذب بلقاء الله فليس لديه ما يزرعه في هذه الحياة استعداداً لهذا اللقاء: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۝٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾[الحاقة: ٣٣ ـ ٣٤]، فاشتد في القرآن لهم الردع: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الفجر: ١٧ ـ ١٨].

وأُولى هذه العلامات التعسف في ظلم الضعيف ومن لا ناصر له،

---

(١) فعل الرؤية بمعنى «أخبرني»، ويمكن تقدير مفعول ثانٍ له مفهومه: «**أليس جديراً بالانتقام منه؟**». نظم الدرر: ٨/ ٥٤٤.

وإهانته بلا خوف الحساب، فيشير إليه القرآن إشارة البعيد عن كل خير: ﴿فَذَٰلِكَ [١]﴾، ويعرفه بأنه ﴿ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾: يعتاد أن يدفعه بعنف وجفوة عن حقه وماله بالظلم، أو بزجره وضربه لضعفه والاستخفاف به، و«اليتيم» لا يقتصر معناه على الصغير الذي فقد أباه، وإنما هو الصغير والكبير الذي فقد الإنصاف والنصرة[٢]، وهو أمر قبيح منكر بحسب الشرع وبحسب المروءة الإنسانية، ومثله أن ذلك البعيد لا يؤدي حق الملهوف في ما استخلفه الله فيه، ولا يكون منه مجرد الحث لغيره على فعل الخير وبذل المعروف وإعطاء الطعام للفقير الجائع[٣]، فهو: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾[٤]، **فعلامة المكذب بلقاء الله أن يتكرر منه فعل الظلم بالضعيف، والتهاون بالخير، ولو بمجرد الحث بالقول على إعانة الناس**، وهما باب لسائر ما يكون منه من إفساد في الأقوال والأفعال، يستحق بها العقاب: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾[الحاقة: ٣٠ ـ ٣١].

(١) والفاء في قوله: «فذلك» للسببية، أي: لمّا كان كافراً مكذباً كان كفره سبباً لدعِّ اليتيم.

(٢) قال ابن عباس: «وكتبت تسألني عن اليتيم، لعمري إن الرجل تنبت لحيته وإنه لضعيف الأخذ لنفسه، ضعيف العطاء منها، فإذا أخذ لنفسه من صالح ما يأخذ الناس فقد ذهب عنه اليتم»، وقال النووي: «إن حكم اليتيم لا ينقضي بمجرد البلوغ ولا بعلو السن». شرح النووي على صحيح مسلم، باب النساء الغازيات.

(٣) وكنى بنفي الحض عن نفي الإطعام؛ لأن الذي يشح بالحض على الإطعام هو بالإطعام أشح.

(٤) وجيء في (يُكذِّب، يدعُّ، ويحضُّ) بصيغة المضارع لإفادة تكرر ذلك منه ودوامه.

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ :

وصفت الآيات علامة المكذب المجاهر بتكذيبه بيوم الدين ليعرفه أهل الأمة الشاهدة، وفَرَّعت منه[١] نوعاً آخر من الناس فيهم التكذيب نفسه، ويتظاهرون بأنهم من المصدقين، وهم المنافقون الذين يُظهرون الإسلام ويُبطنون الكفر، ويتخلقون بخُلُق أهله، فوصفهم بقبح السريرة وما يُستدل به على قبحها من الفعل القبيح المنافي لما يُظهرون، وتوعَّدهم بعذاب أمثالهم من الكافرين: ﴿فَوَيْلٌ[٢] لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ[٣]﴾، فهم مصلون في الظاهر، ولا يعرف الخلق حقيقتهم التي بيَّنها الله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ

(١) الفاء في قوله «فويل» للتفريع ولإفادة الاشتراك، أي: ويل لهذا المكذب الظاهر التكذيب، ولأمثاله ممن يُبطنون التكذيب ويُظهرون الإسلام.

(٢) واعلم أن هذا اللفظ إنما يُستعمل عند الجريمة الشديدة كقوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾، ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾. قاله في التحرير والتنوير: ٣٠/ ٥٦٥.

(٣) السهو: الذهول عن أمر سبق علمه، والسهو المقصود هنا: سهو عن أدائها في وقتها الواجب، أو عن حضور القلب والخشوع الواجب فيها، فهو أثبت لهم الصلاة ووصفهم بالرياء، فهم يؤدونها كسالى أمام الخلق، ويغيبون عنها بغيابهم، يصلون في العلن ولا يصلون في السر، ولكل من اتَّصف بشيء من ذلك قسط من وصفهم وعقوبتهم، ومن اكتملت فيه النفاق العملي: «تِلْكَ صَلاَةُ الْمُنَافِقِ، يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَيْ الشَّيْطَانِ، قَامَ فَنَقَرَهَا أَرْبَعاً، لاَ يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً». (رواه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب التبكير بالعصر، برقم ٦٢١)، وليس المقصود هنا الوعيد على السهو الحقيقي عن الصلاة، لأن إثم النسيان مرفوع عن هذه الأمة.

يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[النساء: ١٤٢]، فهم عن صلاتهم لاهون، لا يقيمونها على وجهها، ولا يؤدونها في وقتها، ولا يستحيون من الله العالم بحقيقتهم التي ربما تخفى عن الخلق.

فوصفهم بعلامةٍ يُعرفون بها، لكيلا تخفى حقيقتهم عن الأمة الشاهدة: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾، فهم الذين يتظاهرون بأعمال الخير مراءاةً[1] للناس، ويقصدون أن يرى الناس أنهم على حال حسن، وهم بخلافه، فلا تُنشئ الصلاة آثارها في نفوس هؤلاء المصلين الذين لا يستحيون من الله، ولذلك فهم يمنعون ـ مرة بعد مرة ـ عن الناس ﴿ٱلْمَاعُونَ﴾، وهو الشيء القليل الذي لا يُمنع في العادة، وجرت عادة الناس أن يعين به بعضهم بعضاً، ويسأله الفقير والغني، ويُنسب مانعه إلى الشح بما لا يُكلِّفه شيئاً، وهم لو كانوا يقيمون الصلاة حقاً لله ما منعوا العون عن عباده، فبلغوا نهاية التكذيب باستهانتهم بأعظم دعائم الدين واستعظامهم لأدنى أمور الدنيا، فلا هم أحسنوا عبادة خالقهم، ولا هم أحسنوا إلى خلقه، وبهذه العلامة يُعرفون بأنهم من المكذبين بيوم الدين وإن أظهروا خلاف ذلك التكذيب، وحق على الأمة الشهادة لله عليهم في الدنيا ويوم الدين.

* صفة الأمة الشاهدة:

كما أن للمكذبين بالدين علامات يُعرفون بها، فإن علامة من ينتمي إلى هذه الأمة نقيض ما يكون من هؤلاء، فإن كانت من علامات هؤلاء المكذبين

---

(١) المراءاة: هي مفاعلة من الإراءة؛ لأن المرائي يُري الناس عمله، وهم يُرونه الثناء عليه والإعجاب به.

على أنواعهم: سوء الفعل بظلم الضعيف، وترك الحث ولو بالقول على أداء حق المحتاج، وعدم تعظيم الخالق، وعدم نفع الخلق بأقل العون، فإن للمسلمين سمات في التعامل مع الخالق ومع الخلق بها يُعرفون، ويشهدون بها على أنفسهم:

فأما مع **الخالق** فيخلصون له الدين، ويقيمون الصلاة، ويعرفون حق وقتها: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾[النساء: ١٠٣]، ويؤدونها بحضور القلب ما استطاعوا فيها: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾[المؤمنون: ٢].

وأما مع **الخلق** فهم أشد الناس **حرصاً على مصلحة الضعيف**: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ﴾[البقرة: ٢٢٠]، **ودفعاً للظلم عمَّن لا ناصر له**: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا﴾[النساء: ٧٥]، **ودعوة إلى الخير**: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ﴾[آل عمران: ١٠٤]، **وبذلاً للمعروف** في سبيل الله بلا حدود: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞ﴾[الحشر: ٩]، **يرجون وجه الله**: ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا﴾[الإنسان: ٩]، وهو بذل شامل **لا يستثني أحداً من الخلق**: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[الأنبياء: ١٠٧]، لعلمهم بأن أشد الناس إيماناً واستعداداً للقاء الملك الحق: أنفعهم للخلق، وهذه هي «روح المجتمع الإسلامي»، والتكافل الذي يتسم به نظامه الاجتماعي، وبقدر ارتباطنا بالأنموذج نرتقي للشهادة على الأمم التي رَشَّحنا لها هذا القرآن العظيم[1].

(١) إن الفصل بين المظهر الديني والمظهر الاجتماعي للعبادة تكذيب بالدين نفسه: يقول =

*** خاتمة :**

إنَّ هذا الخطاب الإلهي كما أنه دعوة إلى فهمٍ راشدٍ للحياة والأشياء، فهو تشريف للنوع الإنساني، ولك بالذات يا من صدَّق المرسلين، واستئناس وقرب من رب العالمين، **يدعوك فيه لتشهد لله على الناس في الأرض**: أن كل من طغى بظلم على من لا ناصر له، أو امتنع عن مجرد الدعوة إلى الخير في سبيل الله، بل وامتنع عن بذل أقل الخير لإعانة الخلق قربةً إلى الله، فإن فيه من علامات المكذبين بلقاء الله على قدر ما تتحق فيه هذه الصفات، مهما تظاهر بمظاهر الدين، وإن كل من نصـر الضعيف بما يستطيع، ودعا الناس إلى بذل الخير والمعروف، بل وأداه مما عنده بما يستطيع، **في سبيل الله**، فهذه له علامة أنه من المصدقين، **وبشرى وشهادة له من هذه الأمة أن قد وجبت له الجنة كما قال النبي ﷺ**.

وقد آتاك الله كل ما عندك من شيء، من دون أن يكون لك عليه شيء، وكلما بذلت من ما آتاك للناس من دون انتظار شيء، كنت أقرب لمن بيده ملكوت كل شيء: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾[الإنسان: ٩]، وأنت مسؤول أمام الله ما دمت منتمياً إلى الأمة الشاهدة، أن تبذل ما استطعت الخير، بالفعل وبالقول، من كل ما آتاك الله من علم أو سلطان أو مال، ومن

= صاحب الظلال: ٨/ ٥٤٦: «إن هذا الدين ليس دين مظاهر وطقوس، ولا تغني فيه مظاهر العبادات والشعائر ما لم تكن صادرة عن إخلاص لله وتجرد، مؤدية بسبب هذا الإخـلاص إلى تحولٍ في القلب يدفعـه إلى الخير والبر بإخوانه في البشرية، المحتاجين إلى الرعاية والحماية، فللإيمان علامات تدل على وجوده، ومالم توجد هذه العلامات فلا إيمان مهما قال اللسان، ومهما تعبد الإنسان».

كل نوع لكل الناس، ولا تستثني ابتسامة وسلاماً تلقيهما على من عرفت ومن لم تعرف، ليملأ وجهك النور وصـدرك الحبور يوم الدين، يوم تلقـى الله: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١].

❑ ❑ ❑

من وحي
السورة التي يُذكر فيها الكوثر
(١٠٨)

الكوثر
(عطاء الكلمة الطيبة)

البناء الموضوعي للسورة القرآنية
من وحي السورة التي يُذكر فيها الكوثر

(١٠٨)

الكوثر
(عطاء الكلمة الطيبة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾.

* مقدمة:

بدأ المد الإسلامي العظيم في الأرض من حقيقةٍ أضاءت في قلب رجل واحد، ثم امتدت في قلوب جماعة صغيرة من الناس، نشأت من بعدها أمم وشعوب تغطي غير قليل من بقاع الأرض اليوم، كلها تدين لذلك الرجل بالحب والولاء.

وهذه السورة بشرى لذلك الرجل الذي أخلص حبه لربه، فاتخذه ربه خليلاً، وأعطاه ما لم يعط عبداً قبله ولن يكون لأحد من بعده، فجاءت السورة إعلاناً عاماً لذلك الحب الذي أوتي به ذلك العبد المخلص خيراً كثيراً، شهد **قسماً معجلاً** منه هو بنفسه، وشهده الخلق، **ونشهده نحن في هذه اللحظة في الدنيا**، في كل ما علمنا إياه من الحق والخير، ثم ونحن نعيش صدى اسمه يتردد في كل مكان عبر الأجيال مقروناً باسم ربه في كل أذان.

وقسماً مؤجلاً يشهده الكل يوم اجتماع الخلق للحساب، ونيله المقام المحمود الذي وعده ربه، «حين يرتفع ذكره يوم القيامة ارتفاعاً يشمل البشرية كلها من آدم إلى أن تقوم الساعة، يوم الشفاعة العظمى، فيمتد ذكره لا بمن جاء بعده فحسب، ولكن بمن جاء قبله أيضاً!»[1].

*** خط البناء الموضوعي للسورة:**

(الكوثر)

١ ـ **وعد:** بعطاء لا حد لكثرته لمحمد ﷺ ولمن تبعه في إخلاص الدين لله، ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾، له آيات شاهدة:

* **في الدنيا:** امتداد الذكر، وهو عطاء **معجل مشهود**.

* **في الآخرة:** عطاء بلا حد من الله في الدرجات، وهو عطاء **مؤجل سنشهده**.

٢ ـ **أمر:** بالثبات على الكلمة الطيبة بإخلاص الدين لله في كل **عبادة**:

* **العبادات البدنية:** ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾.

* **العبادات المالية:** ﴿وَٱنۡحَرۡ﴾.

٣ ـ **وعيد:** **لمبغض النبي** ﷺ، **ومبغض دعوته**: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾، له آيات شاهدة:

* **في الدنيا:** يكون مبتوراً ومقطوع الذكر، وهو وعيد **معجل مشهود**.

* **في الآخرة:** يكون مقطوعاً عن رحمة ربه، وهو وعيد **مؤجل سنشهده**.

---

(١) المنتخب من تفسير القرآن الكريم: محمد متولي الشعراوي ٣/ ١٤٤.

* **العرض:**

الوعد: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾:

الآية الأولى وعدٌ وبشرى لمحمد ﷺ، صدرت بـ «**إنّ**» الدالة على التوكيد، المتصلة بضمير الجمع «**نا**» الدال على تعظيم الواهب هبة عظيمة، وجاء الوعد ﴿أَعۡطَيۡنَٰكَ﴾ بالفعل الماضي الدال على التحقيق[١]، بأن إعطاء الكوثر سابق في القدر الأول منذ قُدرت مقادير الخلائق، ثم خاطب الموهوب بـ «**ك**» الخطاب مباشرة، فهو كلام مباشر بين الله ذي الجلال وبين محمد ﷺ، فتأمل!

و«**الإعطاء**» في اللغة: الإنالة، وهو أخص من الإيتاء؛ لأن الإيتاء لا يكون إلا في العظيم، أما الإعطاء فيكون في القليل والكثير، وبالتالي **فهو خير غير متناهٍ؛ لأن كرم الله لا متناهٍ**، ولا يتعلق بمجرد مايؤديه العبد، «**وأين ما تورده عليه مما هو مورده عليك؟**»[٢].

و﴿ٱلۡكَوۡثَرَ﴾: فوعل من الكثرة، يعني المفرط الكثرة، وجاء بلام التعريف دلالة على إعطائه الخير كله كاملاً موفوراً، وهو وصف للخير الكثير في الدنيا والآخرة الذي آتاه الله محمداً ﷺ، وحذف موصوف الكوثر ليكون أبلغ في العموم، كما أنه اسم نهر في الجنة، له حوض تجتمع عليه الأمة يوم القيامة[٣] بعد اجتياز الصراط، ببركة اتباعه ﷺ، والاقتداء به.

---

(١) قال «أعطيناك» بصيغة الماضي، ولم يقل «سنعطيك»، للدلالة على تحقق وقوع الوعد، حتى كأنه حدث ووقع.

(٢) الحكم العطائية.

(٣) يدلُّ عليه قول السيدة عائشة رضي الله عنها في صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، =

كما أن لكل نبي حوضاً، وأنهم يتباهون أيهم أكثر واردة، وأنه ﷺ يرجو أن يكون أكثر واردة كما ورد في الحديث، وفي مباهاتهم إشـارة إلى أنّ الله تعالى يعطيه في الجنة بقدر أجور أمته كلهم من غير أن ينتقص من أجورهم، فإنّه هو السبب في هدايتهم ونجاتهم (ﷺ)، كما أن لكل واحد من أتباعه نصيباً من الحوض بحسـب ما بـذر في الأرض من الخيـر الذي جاء به، **فيكون له «كوثر» من أجور مَنْ علَّمهم من الخير الذي جاء به محمد ﷺ**[1].

وقد آتى الله نبيه من عظيم الخير ما لم يؤت أحداً من العالمين: قرآناً

= سورة إنا أعطيناك الكوثر، الحديث رقم: ٤٩٦٥: «هو نهر أُعطيه نبيكم ﷺ، شاطئاه عليه دُرٌّ مجوّف، آنيته كعدد النجوم»، وورد في وصفه أنّه أحلى من العسل وأشدُّ بياضاً من اللبن وأبـرد من الثلـج وألين من الزبد، ولا يظمأ من شـرب منـه أبداً. (المستدرك للحاكم، كتاب الإيمان، ١/ ١٤٨، برقم ٢٥٥) وبرواية الإمام أحمد (برقم ١١٩٩٦) عن النبي ﷺ: «نهر أعطانيه ربي ﷻ في الجنـة، عليه خير كثير، ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد الكواكب»، وقوله: «عليه خير كثير» يُشعر بذلك، وروى البخاري (كتاب التفسير، باب تفسير سورة الكوثر، برقم ٤٦٨٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما أنـه قال في الكوثـر: «هو الخير الذي أعطاه الله إياه»، وقول سـعيد بن جبير: «النهر الذي في الجنة من الخيـر الذي أعطاه الله إيـاه». وانظر مجموع الروايات في الباب في تفسير ابن كثير: ٨/ ٣١٠.

(١) كما أن لكل واحـد منهـم نصيبه من الشـفاعة، لما رواه النسـائي عن النبي ﷺ: «ما مجادلة أحدكم في الحق يكون له في الدنيا، بأشد مجادلةً من المؤمنين لربهم في إخوانهم الذين أُدخلوا النار، قال: يقولون ربنا، إخواننـا، كانوا يُصلّون معنا، ويصومون معنا، ويحجون معنا، فأدخلتهم النار؟ قال: فيقول الرب ﷻ: اذهبوا فأخرجـوا مَنْ عرفتم منهـم». كتـاب الإيمـان، باب زيادة الإيمان، برقم ٥٠١٠، (٨/ ١١٢).

عظيماً، هو «كوثر» وينبوع للخير لا نهاية لفيضه وغزارته، تكون به أمته خير أمة أخرجت للناس، وبعثه للناس كافة، وجعل الأرض له مسجداً وطهوراً، كما شرح صدره وآواه بعد اليتم، وكفاه المستهزئين[١]، وهداه وأغناه وفتح عليه ونصره؛ إذ دخل الناس في دينه أفواجاً، وجعله الله أولى بالمؤمنين من أنفسهم: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾[الأحزاب: ٦].

وها هي قرون «كثيرة» من الأتباع والأشياع[٢] في أرجاء الأرض، وملايين الملايين من الألسنة والشفاه الهاتفة باسمه والقلوب العاشقة له، وآتاه رفع الذكر، وجعل الملأ الأعلى يصلي عليه، ويصلي على من يصلي عليه، حيث يقترن اسمه باسم الله في الأرض والسماء، وهو قوله: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[الشرح: ٤][٣].

وسيؤتيه ربه الشفاعة العظمى والمقام المحمود يوم القيامة، الذي لا ينبغي لأحد سواه، وسيغبطه عليه الأولون والآخرون، ويجعله وأمته أول من يُفتح لهم باب الجنة.

الأمر: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾.

وهذا أمر من الله لنبيه ﷺ بما سبق له من الوعد، أي: إنا إعطيناك هذه المناقب المتكاثرة التي كل واحدة منها أعظم من ملك الدنيا بحذافيرها، **فاشتغل أنت بإخلاص أنواع العبادة لهذا الرب**، بما فيه حق لله وبما فيه حق

(١) والقرآن مملوء بما شرف الله به نبيه ﷺ، وانظر تحقيق الرازي في مفاتيح الغيب.

(٢) تفسير القرطبي: ٢٠/ ٢١٦.

(٣) تأويلات أهل السنة: ١٠/ ٦٢٧.

للعباد[1]، وبإرشاد عباده إلى ماهو أصلح لهم، من تحقيق العبودية لله، بغاية المحبة وغاية الذل والإخلاص، وهي ملة إبراهيم الحنيف التي أُمرنا باتباعها: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣].

وماكان محمد ﷺ ليصلي أو لينحر لغير الله قبل نزول هذا الأمر، وهو الذي إنما أوتي الكوثر بإخلاص العبادة لربه، ودعوته الناس ليخلصوا له العبادة، ولكنه **الأمر من ربه بالثبات على الكلمة الطيبة**، وإلزام أتباعه من بعده بالثبات عليها ودعوة الناس إليها.

وفي إضافة «رب» إلى ضمير المخاطب «ك» في قوله «**لربك**» تشريف النبي ﷺ وتقريب، وفيه إشارة بأنه «يَرُبُّه» ويرأف به.

و«**الصلاة**»: حضور الإنسان في حضرة الله، وقطع العلائق من الخلائق تأديةً لحق المنعم بالخير الكثير، وهي نهاية العبادات البدنية، ويجتمع للعبد في الصلاة ما لا يجتمع له في غيرها، كما عرف ذاك أرباب القلوب الحية، وأصحاب الهمم العالية.

و«**النحر**»: موضع القلادة من الصدر، وهو هنا ذبحٌ يقصد به التقرب إلى الله.

والنحر عبادة قديمة يحبها الله، وهي من شعائر الله التي بدأت مع وجود الإنسان في الأرض، حين تقرب ابنا آدم عليه السلام إلى الله تعالى بقربان:

---

(١) الصلاة: المظهر الديني والبدني للعبادة، والنحر: المظهر الاجتماعي والمالي، وأهم تطبيقاته بذل المال.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[المائدة: ٢٧]، وعرفها كل الأنبياء[١] للتقرب إلى الله، أو فداءً كما فعل إبراهيم عليه السلام، وكما نفعل نحن من بعده اقتداءً به وتعظيماً لشعائر الله في الأضاحي أيام النحر العظيمة بعد الحج، أو شكراً لله كما في العقيقة عن المولود وغيره، أو فدية أوكفارة[٢]، أو وفاءً بنذر: ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾[الحج: ٢٩].

والنحر من أَجَلِّ العبادات المالية، ولا يكون إلا من أطيب المال، وفيه مجاهدة للنفس؛ إذ الطبائع تنفر عن إراقة الدماء، ورؤية ألم الذبيحة، ولكن القلب التقي يُعظِّم شعائر الله: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾[الحج: ٣٣]، وبهذا التعظيم للشعائر الذي هو علامة التقوى يتقبل الله منه قربانه كما قال ابن آدم الأول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[المائدة: ٢٧]، ولهذا لم يجز الذبح لغير الله، ولا أن يُسمى غير الله على الذبائح[٣].

الوعيد: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾:

هذا وعيد من الله لمن أبغض عبده محمداً ﷺ: «إن الله الذي أحبك يا محمد وأعطاك الكوثر، وأمرك بما أمرك به، شرَّفك **بالوعيد** بالتنكيل

(١) مكتوب في العهد القديم: «بدون سفك دم لا تحصل مغفرة». (عبرانيين ٩: ٢٢).

(٢) ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾[البقرة: ١٩٦].

(٣) ومع أنه أشفق الناس وأرحمهم بخلقه، فإن محمداً ﷺ بلغ من حسن إجابته لهذا الأمر وطاعته له أن ساق مئة بدنة فنحر ثلاثاً وستين منها بيديه، وولى علياً ﷺ نحر ما بقي من المئة.

بمبغضك (الشانئ[١])، الذي صلاته ونسكه لغير الله، وشمَّتك فيه بأنه هو المقطوع، **فجعل كل مبغض لك أبتر**»:

و«**الأبتر**»: الأقطع الذي لا عقب له، والأبتر: هو من ينقطع عن المقصود قبل بلوغه[٢]، وأصل البتر: القطع، قالها بعض كفار قريش في شأن محمد ﷺ: «دعوه فإنه أبتر لا عقب له، إذا مات استرحتم»، وقد بترته قريش منها حين بدأ دعوته، واستضعفته، واستصغرت أتباعه، وشمتت بموت أولاده الذكور القاسم والطيب.

و«**الشنآن**»: بغضٌ مع تقذُّرٍ وازدراءٍ، **والشانئ**: المبغض.

إنّ الله سبحانه بتر شانئ رسوله ﷺ من كل خير، فيُبتر ذكره وأهله وماله فيخسر ذلك في الآخرة، ويبتر حياته فلا ينتفع بها، ولا يتزود فيها صالحاً لمعاده، ويبتر قلبه فلا يعي الخير، ولا يؤهله لمعرفته ومحبته، ويبتر أعماله، فلا يستعمله في طاعة، ويبتره من الأنصار فلا يجد له ناصراً ولا عوناً[٣].

وكل من شنأه: له نصيب من الانبتار، على قدر شناءته له، ومن أقوى العلامات على **الشنآن نفرته عن ما جاء به سيد الخلق محمد ﷺ**، فيجازى بأن يُقطع ذكره بعد موته، **والتاريخ شاهد على صدق الوعد والوعيد في الدنيا، فمن منا يعرف المبغض الذي وصف محمداً ﷺ بالأبتر؟**[٤]، وقد

(١) وهي صورة من رعاية الله المباشرة لعبده، فيتولى الجواب عنه حين شُتم أو اتُّهم، وهذا كثير في القرآن.

(٢) وهو قول الحسن البصري. (مفاتيح الغيب للرازي، تفسير سورة الكوثر).

(٣) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية: ١٦/ ٥٢٦.

(٤) حتى إن كتب التاريخ والسيرة مختلفة في تحديد هويته!، وتأمل أي بتر هذا لذكره!

انقطع نسل كل من كان مبغضاً له عليه الصلاة والسلام إما حقيقة بموته، أو حكماً بإسلام نسله، وانظر إلى محمد ﷺ في قلوبنا وقلوب الأجيال التي سبقت والتي ستأتي، وقد بقي ذكره في عقبه من آل بيته وفي أمته كلها، وانظر إلى مكانة كل من أحبه واتبعه في الدنيا، حيث إن لكل نصيباً من امتداد الذكر على قدر حبه له بمفهوم المخالفة[١]، **فالإيمان: كثرة وفيض وامتداد، والكفران قلة وانحسار وانبتار!**

وفي الآية رد وهم القائل عن الأبتر «أنه كل من عدم الابن الذكر»، فلا ينقص المرء أنه لا ولد له، أو أنه لم يولد له ألبتة، **فالذكر: ذكرالأثر، لا النسب واللحم والدم**، وإنّ الإيمان والحق لا يمكن أن يكون أبتر، فهو ممتد الفروع والجذور، لأنه موصول بالله الحي الباقي الأزلي الخالد، وإنّما يُبتر الكفر وأهله مهما بدا في لحظة من اللحظات أنّه طويل الأجل ممتد الجذور، وأن أهل الحق يموتون، ويحيى ذكرهم، وأهل الباطل يموتون ويموت ذكرهم، لأن أهل الحق أحيوا ما جاء به سيد الخلق محمد ﷺ، فكان لهم نصيب من قوله: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[الشرح: ٤]، وهو من وعد الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾[مريم: ٩٦]، وأهل الباطل شنؤوا ما جاء به محمد ﷺ، فكان لهم نصيب من قوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾.

وفي الآية أنواع من التأكيد على حصول المراد:

---

(١) إن في قلوب أهل الإيمان علامة على ذلك، وانظر ما **يعمر القلب من الود** حين يُذكر أبو حنيفة أو جعفر الصادق أو مالك أو الشافعي أو أحمد بن حنبل، أو أمثالهم من حملة لواء الكلمة الطيبة عبر التاريخ، علماء أو قادة أو مصلحين، مهما اختلفت ألوانهم ومذاهبهم، ماداموا قد سددوا وقاربوا واجتهدوا ابتغاء وجه ربهم.

١ ـ تصدير الجملة بـ «إنّ».

٢ ـ الإتيان بضمير الفصل الدال على قوة الإسناد والاختصاص «هو».

٣ ـ مجيء الخبر على وزن «أفعل» للتفضيل، أي لم يقل هو المنبتر، وإنما: هو «الأبتر».

٤ ـ تعريفه باللام الدالة على حصول هذا الموصوف له بتمامه.

* **خاتمة:**

إن أقدس ما في الحياة كلمةُ التوحيد الطيبة، التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، وغاية تلك الكلمة **إخلاص العبادة لله وحده**: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾[البينة: ٥]، وهو الدين القيم ملة إبراهيم الحنيف: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣]، والذي أمر الله تعالى به محمداً ﷺ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾.

ولأن أصلها ثابت في الأرض، كانت هي سر الذكر المرفوع لآل إبراهيم الذي دعا ربه: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾[الشعراء: ٨٤]، فاستجاب له ربـه وآتاه وآله ما أراد: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾[مريم: ٥٠]، وجعل النصيب الأوفى من هذا الذكر المرفوع لحامل لوائها الأخير محمد ﷺ، سيد ولد إبراهيم: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[الشرح: ٤]، ولأتباعه من بعده: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾[مريم: ٩٦]، وهي سنة الله في كل عبد يحبه الله[1].

(١) كما حدثنا النبي ﷺ أنه «إذا أحب الله تعالى العبد، نادى جبريلَ، إن الله تعالى يحب =

ولأن فرعها في السماء، فلا تعلم نفس ما أُخفي لأهلها في الآخرة من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون.

وهي لكل من أراد أن يكون لحياته خيرٌ ومعنى، **وهو يعيش معجزة تحقق وعد الله لمحمد ﷺ في زماننا كما هو متحقق في كل زمان بشهادة التاريخ، ثم بشهادة المستقبل الدالة على أن مُنزل القرآن هو نفسه مدبر الأكوان،** ولذلك فاعلم وأنت تحمل في داخلك قلق الموت الحتمي القادم(١)، أن أي إنجاز في الدنيا، بنصر عسكري عظيم تحققه، أو عمل متفرد مبهر تبدعه، أو مال تجمعه، أو مبنى ضخم تشيده، أو إنجاب لذرية تحمل اسمك وتخلده، لن يضمن لك الامتداد بعد الموت!، **وإن الضمان الأعظم لامتداد الذكر بعد الموت هو إعلان حب محمد ﷺ وما جاء به، حامل لواء كلمة التوحيد الطيبة، بأصلها الثابت في الأرض وفرعها الذي في السماء!.**

= فلاناً فأحببه، فيحبه جبريلُ، فينادى جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض». متفق عليه (صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة برقم ٣٠٣٧، ٣/ ١١٧٥، وصحيح مسلم: كتاب البر والصلة، باب إذا أحب الله عبداً، برقم ٢٦٣٧، ٤/ ٢٠٣٠).

(١) تحكم ابن آدم غريزتان: «حفظ الذات»: للبقاء، و«حفظ النوع»: للامتداد، ولكل منهما أساليب في التعبير عن نفسها، ودافع غريزة «حفظ الذات» هو الاستمرار في الحياة، فتأكل إذ تجوع لئلا تموت، وتهرب إذ تخاف، وأما الثانية: «غريزة الامتداد»، فدافعها قلق الموت المركوز في أعماقك، وهو موت حتمي واحد لا يتكرر، تكون فيه وحيداً ويأتيك في موعد غير معلوم، تدفعك هذه الغريزة بسببه إلى إرادة الامتداد بعده، بإبداع مميز أو بجمع مال تتوهم فيه الأمان، أو بإنجاب ولد يخلد اسمك من بعدك، إلى غير ذلك من أساليب التعبير بالفعل الإنساني.

ويكفيك لليقين بهذا ما قرأته في هذه السورة من ثلاث آيات، بعشر كلمات: معجزة!

❑ ❑ ❑

من وحي
السورة التي يُذكر فيها الكافرون
(١٠٩)

الإخلاص
(التوحيد العملي : البراءة من الشرك)

البناء الموضوعي للسورة القرآنية
من وحي السورة التي يُذكر فيها الكافرون
(١٠٩)

الإخلاص
(التوحيد العملي : البراءة من الشرك)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ .

* مقدمة :

من بين قلوب ميتة لا تعرف عبادة الله، اختار الله قلب إبراهيم للحياة، بـ «كلمة» : ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[البقرة: ١٣١]، وبهذه الكلمة أحيا الله قلبه، وبها أمر الله عبده ونبيه محمداً ﷺ **أن يعلن دينه** : ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣]، وبهذا الانتماء كان التوحيد منهجاً لحياة القلوب، يعبد فيه المسلم إلهاً واحداً فرداً صمداً، **ويديم الحياة لقلبه بالتبرؤ** مِنْ عبادة مَنْ سوى الله، هوىً كان أم صنماً أم ميتاً، وممن يعبد شيئاً سوى الله، وممن يعبد شيئاً مع الله، وهو منهج أبي الأنبياء : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ

إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾[الزخرف: ٢٨]، وهو أمر الله لسيد الموحِّدين من بعده: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[يونس: ٤١]، فصار **إعلان هذه البراءة**: منهج الموحدين من بعده لتنقية قلوبهم، وتزكيتها، بإخلاص الدين لله رب العالمين.

*** صورة من التاريخ:**

كان الناس وقت نزول الوحي على دينين، أصلهما من خبر السماء، وواقعهما التحريف والتشويه، وهما: دين إبراهيم الذي توارثته العرب عن جدها إسماعيل، ودين موسى بشريعة التوراة، وما تبعها من شريعة مصدقة لها في الإنجيل: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٦ ـ ٣٧]، وكان العرب على دين إبراهيم، ولم يكونوا يجحدون الله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١]، ولكن كانوا لا يعرفونه بحقيقته التي وصف بها نفسه، ولا يعبدونه حق عبادته، وكانوا يشركون به أصناماً يرمزون بها إلى أسلافهم من الصالحين، يتقربون بهم إلى الله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[الزمر: ٣]، أو يرمزون بها إلى الملائكة، وكانوا يزعمون أن الملائكة بنات الله، وكانوا يعتقدون أنهم على دين إبراهيم، وأنهم أهدى من أهل الكتاب، الذين كانوا يعيشون معهم في الجزيرة العربية، لأن اليهود كانوا يقولون: عزير ابن الله، والنصارى كانوا يقولون: عيسى ابن الله، فلما جاءهم محمد ﷺ يقول: إن دينه هو دين إبراهيم عليه السلام، قالوا: نحن على دين إبراهيم فما حاجتنا

إذن إلى ترك ما نحن عليه واتباع محمد؟.

ثم بعد أن جهر بدعوته ورأوا منها ما يسوؤهم ويسوء دينهم الباطل، فاوضوه وساوموه ليرضى ببعض دينهم وليرضوا هم ببعض دينه، كما روى ابن أبي حاتم، عن ابن عباس؛ أن قريشًا دعوا رسول الله ﷺ إلى أن يعطوه مالاً فيكون أغنى رجل فيهم، ويزوجوه ما أراد من النساء، ويطؤوا عقبه ـ أي: يمشوا خلفه ويسودوه ـ فقالوا: «هذا لك عندنا يا محمد، وكف عن شتم آلهتنا فلا تذكرها بسوء، فإن لم تفعل فإنا نعرض عليك خصلة واحدة، وهي لك ولنا فيها صلاح»، قال: «ما هي؟». قالوا: «تعبد آلهتنا سنة ـ اللات والعزى ـ ونعبد إلهك سنة». قال: «حتى أنظر ما يأتيني من ربي»، فجاءه الوحي من الله من اللوح المحفوظ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، إلى آخرها، وعن ابن عباس: «فيئسوا منه وآذوه وآذوا أصحابه».

*** خط البناء الموضوعي للسورة:**

(الإخلاص: التوحيد العملي)

١ ـ إعلان الهوية: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

٢ ـ إعلان البراءة في الفعل والغاية: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾.

٣ ـ إعلان البراءة في الصفة والانتماء: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾.

٤ ـ إعلان الافتراق في المنهج: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾.

* **العرض:**

﴿قُلْ[1] يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾:

«قُلْ»: هذا أمر إلهي حاسم من الله رب السماوات والأرض، بأن تعلن الإخلاص لله، وتنادي من جحد هذا الدين وثبت على الكفر بالله وبمنهج الله مع إقامة الحجة، بنداء واضح يشملهم جميعاً بكل أنواعهم وعقائدهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[2]!، ما داموا على كفرهم؛ لأن هوية المسلم واضحة بلا لبس: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾[الحج: ٧٨]، والكفر واضح الهوية: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[آل عمران: ٨٥].

﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾:

يشمل إعلان الإخلاص لله ركنين، أولهما: **إعلان البراءة من فعل عبادة[3] الكافرين، ومن غاية عبادتهم، فأنا عابد لله، طائع له،** أقول كما

---

(١) السور المفتتحة بالأمر بـ «قل» خمس سور: الجن، الكافرون، الإخلاص، والمعوذتان، فالثلاث الأول لقول يبلغه، والمعوذتان لقول يقوله لتعويذ نفسه.

(٢) وهذا خطاب لجنس الكفار جميعاً مادامـوا على الكفر، وإن أسلموا فيما بعد، فإذا أسلموا لم يتناولهم ذلك؛ فإنهم حينئذ مؤمنون لا كافرون، وفي ندائهم بوصف «الكافرين» إيذان بأنه لا يخشاهم إذا ناداهم بما يكرهون مما يثير غضبهم؛ لأن الله كفاه إياهم وعصمه من أذاهم.

(٣) **العبادة**: خضوع إرادي بحب وبذل للمعبود، يسعى فيه المحب لأن يكون وفق ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة، وتشمل العبادة إفراد الله **بالحب**: ثناءً وتمجيداً لذاته لأنه «الله»، وشكراً وامتناناً على نعمائه لأنه «رب =

أمرني: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾: **أي لا يحدث ولا يحصل مني قط اليوم أو بعده أن أعبد آلهتكم، أو أن أعبد الله بطريقتكم.**

﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾: وأنتم كافرون، وثابتون على عبادة ما سوى الله والشرك بالله: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٌ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾[البقرة: ١٨]، لا تعبدون إلهي: (مَا أَعْبُدُ)، وأنا أعبد الله وهو غايتي، ويتجدد مني فعل عبادتي، وأرقى به في طريقي إلى ربي[1].

﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾:

والركن الثاني من أركان إعلان الإخلاص لله يتضمن إعلان البراءة من الكافرين في الصفة والانتماء، فوصفي الأصيل هو أنني «عبدالله»، كما هو وصف من أَتَّبِعُهُم من الأنبياء: ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا﴾[مريم: ٣٠]، وأنا ثابت على هذا الوصف، **بريء مما عبدتم سوى الله في تاريخكم:** ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾، ومهما عبدتم من شيء فلا أعبده أنا، **وإنما انتمائي للأمة الواحدة العابدة لله:** ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾[الأنبياء: ٩٢]، فهو انفصال الواقع والتاريخ، والانتماء المبارك إلى أمة التوحيد.

= العالمين»، وهو مسمى الحمد: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[الفاتحة: ٢]، وإفراده **بالذل:** رجاءً لرحمته، وخوفاً من حسابه وعقوبته: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾[الفاتحة: ٣ ـ ٤]، وبينهما يتقلب العبد في ذل فقره لربه: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًا﴾[الأعراف: ٥٦].

(١) تنتظم العبادة: عابداً ومعبوداً ومنهجاً للعبادة، والعابد الحق ينفي معبوداً سوى الله، وطريقةً للعبادة سوى ما جاء في هذا الوحي العظيم.

﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾[١]: وصفكم ثابت وانتماؤكم ثابت إلى أمة الكفر، لم تعبدوا في الماضي اللهَ الذي أعبده أنا دائماً، وأجدد بهذا الإعلان: له ولائي، وإليه انتمائي.

﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾:

إن وضوح الهوية بهذه القوة، وإعلان المفاصلة والبراءة بهذا الحسم فعلاً وغايةً ووصفاً وانتماءً عن كل ما سواها من هوية، يعني يقيناً **الافتراق في المنهج**، وإعلان أن: يا أيها الكافرون بديني: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾، أي: دينكم ومنهج علاقتكم ـ علماً وعملاً ـ بمعبودكم مقصور عليكم، لا يتجاوزكم إلى الكون لي، وديني مقصور علي، لا يتجاوزني إلى كونه لكم، لا أمضي على طريقتكم، ولا طريق من كان قبلكم، فهو **إعلان الانتماء إلى الله كما يريد الله، بنبذ ما سوى منهج الله**: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[الأنعام: ١٥٣].

*** خاتمة:**

تنطق هذه السورة بجبروت الرب الجليل الذي أوحى بها إلى قلب محمد ﷺ، وهي تحسم قضية الموقف الإنساني المطلوب تجاه أحقية هذه الرسالة، وجدارتها بصناعة الهوية الإنسانية، وبناء الفعل في العمر وفقاً لها، وتدفعك إلى تحديد موضعك في الوجود بقوة: «قل»!، بصيغة لا يملك أي

---

(١) لا يُتوهم في تكرارها الزيادة، أو مجرد التوكيد، فليس في القرآن من هذا شيء، ولا يُذكر فيه لفظ زائد إلا لمعنى زائد، وإن كان في ضمن ذلك التوكيد، **فزيادة اللفظ لزيادة المعنى، وقوة اللفظ لقوة المعنى**.

فكر أرضي أن يحسمها بهذه القوة.

فقد تضمنت في كلمات قصيرات حاسمات: إعلان التوحيد باستغراق أحوال العابد الثابتة والمتجددة، «وصفاً وفعلاً»، وتعريف الهوية، وبيان الغاية، وتحديد جهة الانتماء، وتمييز منهج العبادة، حد إنشاء البراءة الكاملة، والمفاصلة التامة، والحسم الصريح، وليكون «عابد الله» بريئاً ممن يعبد من سواه، ومن عبادتهم، ومما يعبدون، ومنتمياً إليه وحده، كما يريد الله، منه يتلقى الحق كله، وفي سبيله يحيا بهذا الحق، وعليه يموت، **فقلها يا أخي كما أمرك ربك**، وابدأ بها يومك وليلتك: **بقوة!**، مستجيباً لأمر الذي خلقك وأمرك أن تعلنها لكل الكافرين بدينك: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾!

*** في فضل السورة:**

هذه السورة العظيمة: سورة البراءة من الشرك، ومقصودها الأعظم هو البراءة المطلوبة بين الموحدين والمشركين، وروى قتادة عن زُرَارَة بن أوفى: كانت تسمى: «المقَشْقِشَة»، يقال: قشقش فلان: إذا برئ من مرضه، فهي تبرئ صاحبها من الشرك، فإن الشرك والكفر أعظم أمراض القلوب، فأمر الله المؤمن بقولٍ يتحصل به في قلبه البراءة من الشرك، ويتجدد به التوحيد، وكلما قاله ازداد براءة من الشرك، وقلبه شفاء من المرض، فإن الشرك أعظم ما تنجس به النفس، وأعظم تزكية النفس وتطهيرها: تزكيتها منه وتطهيرها منه، وبهذا وصفها النبي ﷺ في الحديث عن فروة بن نوفل عن أبيه، عن النبي ﷺ قال له: «مجيءٌ ما جاء بك؟». قال: جئت يا رسول الله؛ لتعلمني شيئاً أقوله عند منامي»، قال: «إذا أخذت مضجعك فاقرأ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾،

ثم نم على خاتمتها، فإنها براءة من الشرك»[١].

وقد سـميت هي وأختها سورة الصمد: «سورتي الإخلاص»؛ لأنهما اشتملتا على نوعي التوحيد الذي لا نجاة للعبد ولا فلاح إلا بهما، وهما توحيد العلم والاعتقاد المتضمن إثبات الكمال لله وتنـزيهه عما لا يليق به، وأنه إله أحـد صـمد، لم يلد فيكون له **فرع**، ولم يولد فيكون له **أصل**، ولم يكن له كفواً أحد فيكون له **نظير**، فهذا توحيد **العلم والاعتقاد**، والثاني: توحيد **الإرادة والعمل**، بإعلان أن لا يعبد إلا إياه، ولا يشـرك به في عبادته سواه، وسورة «الكافرون» مشتملة على هذا التوحيد، فانتظمت السورتان نوعي التوحيد، وأخلصتا له، فكان ﷺ يفتتح بهما النهار في سنة الفجر، ويفتتح بهما الليل في سنة المغرب، فتكونان فاتحة عمل الليل، كما كانتا فاتحة عمل النهار.

❐ ❐ ❐

(١) صحيح ابن حبان برقم ٥٥٢٦، (١٢/ ٣٣٥).

من وحي
السورة التي يُذكر فيها النصر
(١١٠)

ما بعد النصر

البناء الموضوعي للسورة القرآنية
من وحي السورة التي يُذكر فيها النصر
(١١٠)

ما بعد النصر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾.

* مقدمة:

عميقاً في دواخلنا، يكمن ذلك الخوف من زوال ذكرنا من الدنيا بعد موتنا الأكيد القادم، والذي يدفعنا إلى إرادة الامتداد بعده بطفلٍ نلده، أو بمالٍ نُحس بالأمان معه، أو بشهرةٍ نتوهم معها عدم إمكان النسيان، أو بإبداعٍ يميز بصمتنا، أو بتغييرٍ في الدنيا نحدثه، لعل أعظمه قدراً حين ينتصر الخير بنا على الشر، ويستعملنا الله جنوداً لرفع الظلم أو تحقيق العدل الذي يحبه، فنرزق بذلك النصر ذكراً ممتداً حين يتحدث التاريخ عن الأثر الذي وضعناه على جبين الحياة فرصة عمرنا، فيسكن خوفنا العميق من النسيان بعد الموت، بل قد يأخذ المرء العجب والزهو، أنه قد أتى ما لم تأتهِ الأوائل!

وليس في التاريخ الإنساني كله نصر أعظم من ذاك الذي صنعه الله على يد رسول الله محمد ﷺ، لدين الله في بيت الله بجند الله، فكان أعظم إنجاز يضمن الخلود، وبقاء الذكر بعد الموت، ويروي غريزة الامتداد بأمر أعمق

من أي لمسة في التاريخ أودعها إنسان قبله!

*** خط البناء الموضوعي للسورة:**

(ما بعد النصر)

١ ـ وعد بحتمية انتصار الحق: ﴿إِذَا﴾.

٢ ـ بيان أن النصر من الله: ﴿جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾.

٣ ـ البشارة بشهود النصر وشموله: ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾.

٤ ـ بيان أن تحقق ذلك إشارة لنهاية الرسالة، وإنما الأهم أمر ما بعد النصر:

*** في حق الله:** تسبيحٌ مصاحب للحمد «نفياً لكل نقص، وإثباتاً لكل كمال لله»: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾.

*** في حق النفس:** طلب المغفرة **عمّا كان**، ورجاء التوبة **عمّا يكون** من فعل العبد: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾.

*** صورة من التاريخ:**

عن ابن مسعود ﷺ، أن هذه السورة تسمى: «**سورة التوديع**»[1]؛ أي: لأنهم علموا أنها إيذان بقرب وفاة الرسول ﷺ، واختُلف في وقت نزولها؛ فقيل نزلت في منصرف النبي ﷺ من خيبر، أي: في سنة سبع، ويؤيده ما رواه الطبري والطبراني عن ابن عباس: «بينما رسول الله ﷺ بالمدينة نزلت: ﴿إِذَا

(١) التحرير والتنوير ٣٠/ ٥٨٧.

جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾»، قال رسول الله ﷺ: «الله أكبر جاء نصر الله والفتح، وجاء نصر أهل اليمن»، فقال رجل: يا رسول الله! وما أهل اليمن؟، قال: «قوم رقيقة قلوبهم، لينة طباعهم، الإيمان يمان والفقه يمان والحكمة يمانية»[١].

وقال الواحدي عن ابن عباس: «نزلت عند منصرفه من حنين»[٢]، فيكون الفتح قد مضى، ودخول الناس في الدين أفواجاً مستقبلاً، وهو في سنة الوفود سنة تسع.

وعن ابن عمر: «أن رسول الله ﷺ عاش بعد نزولها نحو ثلاثة أشهر»، وعليه يكون الفتح ودخول الناس في الدين قد وقعا.

وعن ابن عباس أنها «آخر سورة نزلت من القرآن»، فتكون على قوله السورة المئة وأربع عشرة، نزلت بعد سورة براءة، ولم تنزل بعدها سورة أخرى.

وقد تضافرت الأخبار روايةً وتأويلاً أن هذه السورة تشتمل على إيماء إلى اقتراب أجل رسول الله ﷺ، وليس في ذلك ما يرجح أحد الأقوال في وقت نزولها؛ إذ لا خلاف في أن هذا الإيماء يشير إلى توقيت مجيء النصر والفتح ودخول الناس في الدين أفواجاً، فإذا حصل ذلك حان الأجل الشريف.

وفي صحيح البخاري وغيره عن ابن عباس: «كان عمر يأذن لأهل بدر ويأذن لي معهم، فوجد بعضهم من ذلك، فقال لهم عمر: «إنه من قد علمتم»، قال: فأذن لهم ذات يوم وأذن لي معهم، فسألهم عن هذه السورة: ﴿إِذَا جَآءَ

(١) تفسير الطبري، تفسير سورة النصر.

(٢) أسباب النزول، ص: ٥٠٦.

﴿نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ فقالوا: «أمر الله نبيه إذا فتح عليه أن يستغفره ويتوب إليه»، فقال: «ما تقول يا ابن عباس؟»، قلت: «ليس كذلك، **ولكن أخبر الله نبيه حضور أجله فقال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾: فذلك علامة موتك**»، فقال عمر: «ما أعلم منها إلا ما تقول»(١).

وعن مقاتل: لما نزلت قرأها النبي ﷺ على أصحابه ففرحوا واستبشروا وبكى العباس، فقال له النبي ﷺ: «ما يبكيك يا عم؟» قال: «نُعيت إليك نفسك»، فقال: «إنه لكما تقول»، وفي رواية نزلت في منى فبكى عمر والعباس فقيل لهما، فقالا: «فيه نعي رسول الله»، فقال النبي ﷺ: **«صدقتما!، نُعيت إلي نفسي»**(٢).

*** العرض:**

بقوله: **صدقتما! . . . «نُعيت إليّ نفسي»!**(٣)، أجاب سيد الخلق محمد ﷺ عمر بن الخطاب والعباس رضي الله عنهما حينما بكيا عند سماع السورة التي أُنزلت بالبشرى بالوفود المقبلة والناس الذين يدخلون في دين الله فوجاً إثر فوج، وتحقق أعظم نصر على يد أعظم إنسان!، وبعد عمر البحث الطويل عن الحق، والتحنث في الغار، والسر بالدعوة والجهر بها، والهجرة والجهاد في بدر وأحد والخندق، وعمرٍ ما قعد فيه عن التبشير والإنذار منذ سمع أمر الله: ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾[المدثر: ٢]، أتاه الخبر وهو في «قمة» إنجازه: أنك: «ميت»!، فـ:

---

(١) صحيح البخاري، برقم ٤٢٩٤.

(٢) تفسير القرطبي، تفسير سورة النصر.

(٣) مسند الإمام أحمد ٧/ ٣٢٢، برقم ٤٢٩٤.

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾:

لقد وعد الله رسوله ﷺ بفتح مكة أكثر من مرة، من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖ﴾[القصص: ٨٥]، وقوله: ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحٗا قَرِيبًا﴾[الفتح: ٢٧]، واشترط الله على عبده أمراً لاحقاً، ﴿إِذَا جَآءَ﴾ هذا الوعد بالفتح بمجيء وقته المعلوم، وحصل الموعود بالإعانة على العدو، وتحقق نصر عزيز من أعلى درجات النصر، أضافه «الله» إلى نفسه: ﴿نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾، واعتنى الله نفسه بإيجاد أسبابه، وتحقق «الْفَتْحُ» بفتح باب بلد العدو وأرضه[1]، وشرفه بأن:

﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾:

﴿وَرَأَيۡتَ﴾ بعينيك النصر يا محمد ﷺ، تشريفاً له بأن رأى بعينيه جماعات وفود العرب: مَنْ قاتله ومَنْ لم يقاتله يَرِدون إلى المدينة، و﴿يَدۡخُلُونَ﴾ في الإسلام: ﴿دِينِ ٱللَّهِ﴾ بالنطق بالشهادة وبالتزام أحكامه،

(١) وقد اتفقت أقوال المفسرين من السلف فمن بعدهم على أن الفتح المذكور في هذه السورة هو فتح مكة، وقد كان فتح مكة يخالج نفوس العرب كلهم، فالمسلمون كانوا يرجونه ويعلمون ما أشار به القرآن من الوعد، وأهل مكة يتوقعونه، وبقية العرب ينتظرون ماذا يكون الحال بين أهل مكة وبين النبي ﷺ.

أخرج البخاري عن عمرو بن سلمة قال: «لما كان الفتح بادر كل قوم بإسلامهم إلى رسول الله ﷺ، وكانت الأحياء تتلوم بإسلامها فتح مكة فيقولون: دعوه وقومه، فإن ظهر عليهم فهو نبي، فلما فتحت ذَلّ بذلك جميع العرب يقولون: «لا طاقة لنا بمن أظفره الله بأهل الحرم».

دخولاً مستمراً فيحتويهم كالبيت لهم، ﴿أَفْوَاجًا﴾ فوجاً بعد فوج، وذلك عام الوفود، أو بمن حضر معه الموقف في حجة الوداع ـ فقد كانوا نحو مئة ألف ـ من مختلف قبائل العرب، علم منهم دخولهم كلهم في الإسلام، وهم الذين كانوا أذلاء قبله، فصاروا باتباعه هم ﴿ٱلنَّاسَ﴾ وسائر أهل الأرض تبع لهم[١].

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾:

فإذا تحقق هذا النصر العظيم، **فاعلم أن هذه إشارة أن أجلك قد حان،** فلا تعجبن بما تحقق، وإنما: ﴿فَسَبِّحْ[٢] بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾: وليمتلئ قلبك بحمد[٣] ربك وتسبيحه وطلب مغفرته.

وفيه توجُّهٌ بأعظم **الحب** بالثناء على الله وبالشكر لإنعامه على ما آتى من النصر، **وتنزيهٌ** لله الرب اللطيف بعبده[٤]، تنزيهاً مطلقاً عن كل تصورٍ أو

---

(١) قال القرطبي: قال عكرمة ومقاتل: أراد بالناس أهل اليمن، وذلك أنه ورد من اليمن سبعمئة إنسان مؤمنين طائعين، بعضهم يؤذنون، وبعضهم يقرؤون القرآن، وبعضهم يهللون، فسُرَّ النبي ﷺ بذلك، وبكى عمر والعباس.

(٢) السبح: المر السريع في الماء أو في الهواء، والتسبيح: إعلاء شأن المُسَبَّح وتنزيهه عن النقص.

(٣) التسبيح لاحق للحمد؛ لأن باء المصاحبة في «بحمد» بمعنى «مع» فهي مثل «مع» في أنها تدخل على المتبوع.

(٤) وفي كلمة «ربك» إيناس بديع، أي: «ربك أنت الذي أنجزك الوعد بإكمال الدين وقمع المعتدين، المحسن إليك أبداً لكرامتك عنده سبحانه»، وهو تكريم له وتلطف من الرب بالمربوب.

حتى تعظيمٍ يحتويه خاطر العبد وعقله الكليل الذليل عن جلاله وعظمته، ثم الطلب منه غفران وستر كل ذنب كان من العبد بالتقصير أو بالعجز عن الوفاء بحقه لما له من العظمة والمنة؛ لأن كل شأن في الوجود إنما هو بالله ومن الله، وإنما هو هنا «**نصر الله لدين الله**»!، والفضل فيه كله لله، وليس للعبد فيه من فضل، ومن المعلوم أنّنا مأمورون بالاستغفار بعد الطاعة: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾[البقرة: ٢٨٥]، فأمر رسوله بالاستغفار عقيب توفيته ما عليه من تبليغ الرسالة والجهاد في سبيله حين دخل الناس في دينه أفواجاً، فكأن التبليغ عبادة قد أكملها وأداها، فشرع له الاستغفار عقيبها.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا[1]﴾: وهذا **وعد** بحسن القبول عند الله تعالى حين يقدم عليه، بأن الله شديد توفيق عباده للتوبة والانقطاع عما قد يكون منهم فيما يستقبل من فعل لا يحبه الله، وهو كثير قبوله إياها[2]، **فليحسن العبد ظنه بربه**، وليملأ قلبه «**الرجاء**»، بعد الحب والخوف، بأن الله كما هو متقبل استغفاره **عما كان** من تقصير ومتقبله بأحسن قبول، فإنه موفقه **فيما يكون** من عمل يقربه إلى ربه؛ لأن من عُرف بكثرة قبول توبة التائبين، فمن شأنه أن يكرم وفادة الوافدين الذين سعوا جهدهم في مرضاته بمنتهى الاستطاعة، **وليس مثل محمد ﷺ عبد أتم مراد ربه منه، وليس مثله عبد سيكرمه ربه.**

(١) وقد اشتملت الجملة على أربع مؤكدات هي: إن، وكان، وصيغة المبالغة في التواب، وتنوين التعظيم فيه.

(٢) إن ربنا لم يزل تواباً منذ مبدأ الخليقة: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[البقرة: ٣٧].

وحقيقة الأمر أن التسبيح يتضمن نفي كل نقص عن الله، وهو هنا مصاحب لتحميدٍ فيه إثبات كل كمال لله، وبهذا النفي المصاحب للتقديس وإثبات أعظم الكمال لربه؛ يتوجه العبد بطلب المغفرة عن كل فعل كان منه مما ليس على تمام مراد الله، ويسأله التوبة عن كل ما يمكن أن يكون منه من تقصير فيما يُستقبل من فعله، فيستغرق الاستغفار والتوبة كل أزمان ما يكون من العبد من فعل كان أو سيكون، كما استغرق التسبيح والحمد أعظم التنزيه والتقديس بحبٍ لربه، ويكتمل بكل هذا أعظم توجُّهٍ من عبد لربه، بعهده لأن يكون في كل حاله على مراد إلهه الحميد وربه، وبهذا العهد يستعد للقاء ربه، كما علمه ربه.

إن رسول الله ﷺ لم يكن يخلو عن تسبيح الله، ولكن أريد هنا تسبيح خاص يقارن بالحمد على ما أُعطيه من النصر والفتح ودخول الأمة في الإسلام، وفيه إيماء إلى نوع حمد وتسبيح واستغفار يحصل بهما تقربٌ لم يحصل مثله من قبل!، فيه التهيؤ للقاء الله، وأن حياته الدنيوية أوشكت على الانتهاء، إيذاناً باقتراب وفاته ﷺ، وانتقاله من حياة تحمل أعباء الرسالة إلى حياة أبدية في مقامات عند ربه عليَّة، ومن تمام نعمة الله على عبده توفيقه للتوبة النصوح عند حضور الأجل، ليلقى ربه طاهراً مطهراً من كل ذنب، ويقدم مسروراً راضياً مرضياً عنه.

ورُوي في الصحيح عن عائشة قالت: «ما صلّى رسول الله ﷺ صلاة بعد أن نزلت عليه سورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ إلا يقول: (سبحانك ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي) يتأول القرآن». ويتهيأ لما أراده ربه أن يتهيأ له من اللقاء.

* **خاتمة :**

بُنيت السورة على **الوعد** بنصر كامل من عند الله لعبده وفتح مكة، **والبشارة** بدخول خلائق كثيرة في الإسلام يشهد سيد الخلق: النبي ﷺ معها ثمرات كفاحه الطويل المرير، ثم إنه حين يقع ذلك فهي **الإشارة إلى** أنه قد اقترب انتقال رسول الله ﷺ إلى الآخرة، وعليه يقع **واجب** خاص بتسبيح الله وحمده تسبيحاً وتحميداً خاصاً، يقع به **وعده** بأن الله غفر له مغفرة تامة لا مؤاخذة عليه بعدها في شيء.

وبعد أعظم نصر، نسبه الله نفسه إلى نفسه، في أعظم وأقدس مكان ومن أجل أعظم قضية، وبعد صراع استغرق عمراً، ها هو أعظم إنسان **يدخل يوم الفتح العظيم مطأطئاً رأسه الشريفة حتى ليكاد يمس واسطة الرحل**، تواضعاً لله سبحانه وتعالى بدل التفاخر بالمجد، وازداد أمره بعده حتى: «لم يكن النبي ﷺ قطّ أشد اجتهاداً في أمور الآخرة ما كان عند نزولها»، حتى تورَّمت قدماه، ونحل جسمه، وقلَّ تبسمه، وكثر بكاؤه ـ بأبي هو وأمي ـ.

إن نصر الله لعبده أمر محسوم، والفتح قادم بعد الابتلاء في كل زمان حتماً: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣]، فلتطمئن نفوس عباد الله الصالحين، ولكن اعلم:

وأنت تضع على الأرض لمستك الخاصة في فرصة العمر، وتبذل أقصى الجهد لتدرك إنجاز ما تريد، وتحس نفسك في لحظة ما وقد تحقق أعلى ما تمنيت، حتى تنسى موتك القادم، وتراك تعلو في الدنيا بمالٍ أو سلطانٍ

أو علمٍ، أو يغريك ما تراه عند سواك من ذلك العلو وتتمناه لنفسك، تذكَّر يا أخي أعظم لمسة وضعها إنسان في تاريخ الخلق، وانظر مكانه فيها، ومكان الدنيا منه، وبشارة ربه، وإشارة موته، وما أمره به ربه، واجتهد لنفسك أنت أن لا تتوهم الخلود في غير دار الخلود!، و«إذا أردت عزاً لا يفنى فلا تستعزَّن بعزٍّ يفنى»(١).

احرص على أن تكون من المستغفرين بعد كل عمل، استجابة لأمر ربك: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[البقرة: ٢٨٥]، وأكثر من قولك: «سبحانك ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي»، قبل أن يأتي عليك صباحٌ لا ليل بعده، أو ليلٌ لاتدري أين ستقضي صباحه!

❐ ❐ ❐

---

(١) من حكم ابن عطاء رحمه الله.

من وحي
السورة التي يُذكر فيها المسد
(١١١)
حصاد أعداء الحق

البناء الموضوعي للسورة القرآنية
من وحي السورة التي يُذكر فيها المسد

(١١١)

حصاد أعداء الحق

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ۝٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ﴾.

* مقدمة:

إن للحق لهَيْبة، وإن لصاحبه لسلطاناً، أودعهما الله فطرة المخلوقات، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾[الحج: ٦]، وأن الله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [التغابن: ٣]، وبهذا الحق أرسل المرسلين وأنزل كلماته: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ﴾[الإسراء: ١٠٥].

وكما أن الله حفظ هيبة اسمه (الله) حين منع أن يتسمى به من سواه أو أن يسمى به من سواه مدى تاريخ الخلق، فإن الله الحق حفظ للحق هيبة وسلطاناً، وبهذه الهيبة وهذا السلطان حُفظت مكانة الحق في القلوب[1]، مهما تطاول

(١) إنك لتلمح هذه الهيبة للحق في فطرة الناس ببساطة في الكبير يهرب أمام الصغير بعد أن آذاه وظلمه، وفي فطرة الحيوانات، إذ تأكل القطة أمامك حين تعطيها قطعة اللحم، =

الباطـل في الظاهـر، حتى ما يجـرؤ أعداء الحق على الجهر بما يُخفون في صدورهم من عداوة وبغضاء: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾[آل عمران: ١١٨]، وهذه سنة إلهية من سنن حفظ الحق وأهله، ماضية في تاريخ بني آدم، كغيرها من سنن الله في الكون.

كما أن من سنن الله أنها تعاجل من يجرؤ على تعدي الحد، حتى يبلغ التحدي مبلغ الإعلان والمجاهرة بالعداء للحق، ـ مع قيام الحجة عليه ـ بالعقوبة المادية الظاهرة الحتمية في الدنيا، حتى يكون عبرة لمن سـواه، وهو قانون إلهي صارم حاكم بأمر الله، لا يستثني أحداً ولا يحابي أحداً، ويعم الكل بجبروته الرهيب وحكمه الأكيد: **إن مآل من جحد بعد العلم واستكبر وجاهر الحق العداء: التباب**، وهو الخسران والخيبة مطلقاً دنيا وآخرة، إلى حد الخلو من كل خير، حتى ما يكون لوجوده نفع لنفسه ولا لأيٍّ ممن سواه!

*** خط البناء الموضوعي للسورة:**

(حصاد أعداء الحق)

١ ـ **دعاء ووعيد** لمن جاهر الحق العداء: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾.

٢ ـ **حتمية تحقق الموعـود** بخلـوه من كل خير لنفسـه ولمن سـواه: ﴿وَتَبَّ﴾.

٣ ـ **هوان حصـاده** في الدنيـا مهمـا بلـغ: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾.

٤ ـ **جزاؤه من جنسه وجنس عمله**: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾.

= وتراها هاربة حين تخطفها خطفاً بظلم دون علمك.

٥ ـ يشاركه فيه أقرب من أعانه: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾.

٦ ـ ولهم جزاء من جنس ما عملوا: ﴿فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾.

* صورة من التاريخ:

أبو لهب: هو عبد العزى بن عبد المطلب، وهو عم النبي ﷺ، وكنيته «أبو عتبة» تكنية باسم ابنه، وأما تكنيته بأبي لهب في الآية فقيل كان يُكنى بذلك في الجاهلية «لحسنه وإشراق وجهه»[(١)]، وأنه اشتُهر بتلك الكنية فسماه القرآن بكنيته دون اسمه، ولأن في اسمه عبادة العزى، وذلك لا يقره القرآن، وامرأته: هي أم جميل، واسمها أروى بنت حرب بن أمية، وكلاهما كان شديد العداوة والإيذاء للنبي ﷺ وللدعوة التي جاء بها.

ومع شدة معرفته بصدق ابن أخيه ﷺ، ومجاورته له في بيت قريب، حتى بلغت بينهما المودة حد خطبة ابنتيه لولديه، فقد اتخذ أبو لهب موقفاً من رسول الله ﷺ منذ اليوم الأول للدعوة، كما في الصحيحين عن ابن عباس: أن النبي ﷺ خرج حتى صعد الصفا، فنادى: «يا صباحاه!»، ـ كلمة ينادى بها للإنذار من عدو يصبح القوم ـ، فاجتمعت إليه قريش، فقال: «أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل، أكنتم مصدقي؟»، قالوا: «ما جربنا عليك كذباً»، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد!»، فقال أبو لهب: «تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟»[(٢)].

---

(١) والأب يطلق على ملازم ما أضيف إليه كما كُني إبراهيم (عليه السلام): أبا الضيفان.

(٢) صحيح البخاري: كتاب التفسير، باب ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، برقم (٤٤٩٢)، =

ورُوي أن أبا لهب لما قالها للنبي أخذ بيده حجراً ليرميه به فنزلت السورة، فلما سمعت امرأته هذا التصوير الذي يثير السخرية وهي معجبة بنفسها، مدلة بحسبها ونسبها، أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة، ومعه أبو بكر ﷺ، وفي يدها فهر من حجارة، فلما وقفت أخذ الله بصرها عن رسول الله ﷺ، فلا ترى إلا أبا بكر، فقالت: «يا أبا بكر أين صاحبك؟ قد بلغني أنّه يهجوني، فوالله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه!».

وكان بيت أبي لهب قريباً من بيت رسول الله ﷺ، فكان الأذى أشد، وكانت أم جميل هذه تحمل حطب العضاه والشوك فتضعه في الليل في طريق النبي ﷺ الذي يسلك منه إلى بيته ليعقر قدميه، عدا عن سعيها بالأذى والفتنة والوقيعة، كما حصل بعد أن كان أبو لهب قد خطب بنتي رسول الله ﷺ رقية وأم كلثوم لولديه قبل البعثة، فلما كانت البعثة أمرهما بتطليقهما حتى يُثقل كاهله بهما.

ورغم أن أبا لهب كان من أعرف الناس بمحمد ﷺ وبصدق رسالته، عدا كونه أولى الناس بدعمه ومساندته في دعوته لما بينهما من قرابة تجعله في منزلة أبيه، إلا أنه بطغيانه وتكبره جاوز كل حد في مجاهرته عداوة الحق الذي جاء به، في كل مراحل الدعوة، كما روي عن طارق المحاربي قال: بينا أنا بسوق ذي المجاز إذا أنا برجل حديث السن يقول: «أيها الناس قولوا لا إله

= ٤/ ١٧٨٧، وصحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، برقم (٣٤٨)، ١/ ١٩٢.

إلا الله تفلحوا»، وإذا رجل خلفه يرميه قد أدمى ساقيه وعرقوبيه يقول: «**يا أيها الناس إنه كذاب فلا تصدقوه**»، فقلت: من هذا؟، فقالوا: «هذا محمد يزعم أنه نبي، وهذا عمه أبو لهب يزعم أنّه كذاب!»، حتى روي عن ابن مسعود أن أبا لهب قال: «**إن كان ما يقول ابن أخي حقّاً فأنا أفتدي نفسي يوم القيامة بمالي وولدي**»، فحاول أبو لهب جهده أن لا يدع للدعوة موضعاً في قريش، وبلغ التعبير عن عداوته أقصاه لما أجمع بنو هاشم بقيادة أبي طالب على حماية النبي ﷺ ـ ولو لم يكونوا على دينه، تلبية لدافع العصبية القبلية ـ، فخرج أبو لهب على إخوته، وحالف عليهم قريشاً، وكان معهم في الصحيفة التي كتبوها بمقاطعة بني هاشم وتجويعهم كي يسلموا لهم محمداً ﷺ.

وحين بدأ النبي ﷺ يعرض نفسه على القبائل، كان موقف أبي لهب مشابهاً، كما حدَّث ابن إسحاق: عن ربيعة بن عباد الديلي، يقول: «إني لَمَعَ أبي رجلٌ شابٌّ، أنظر إلى رسول الله ﷺ يتبع القبائل، ووراءه رجل أحول، وضيء الوجه ذو جمة، يقف رسول الله ﷺ على القبيلة فيقول: «**يا بني فلان**: إني رسول الله إليكم، آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، **وأن** تصدقوني وتمنعوني حتى أنفذ عن الله ما بعثني به»، وإذا فرغ من مقالته قال الآخر من خلفه: «يا بني فلان، هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن أقمس، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، **فلا تسمعوا له ولا تتبعوه**»، فقلت لأبي: «من هذا؟» قال: «عمه أبو لهب»، وهكذا مضى هو وزوجته أم جميل يثيرانها حرباً شعواء على النبي ﷺ وعلى الدعوة، لا هوادة فيها ولا هدنة.

* **العرض**[١]:

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ﴾:

تأمل رجلاً صادقاً أميناً لم يجرب قومه عليه كذباً مدة أربعين سنة من مكثه فيهم، يقوم بين القوم فيحكي حقائق توقظ الفطرة: «والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتجزون بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً، ووالله إنها لجنة أبداً أو لنار أبداً»، فيأتيه الجواب على هذه الدعوة النقية بأقسى الرد من رجلٍ بمنزلة أبيه، وهو حمو لابنتيه، وجار له، عارف بسيرته، ومتيقن من صدقه، أن «**تباً لك!**»، في ظل حقد لا يعرف الحدود ولا يقيم وزناً لحرمة الرحم، ولا لهيبة الحق، وإنما هو تجرد للعداء لخير الخلق، فتعرض السورة هنا صورة الجزاء، بلا مقدمات، لشدة مرارة ما كان من جحدٍ للحق وظلمٍ، حيث تولى الله سبحانه عن رسوله ﷺ أمر المتكبر، بوعده الثابت: «من آذى لي ولياً فقد آذنته بالحرب»، وفي آية واحدة «يصدر الدعاء ويتحقق، وتنتهي المعركة»:

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ﴾: دعاء وتقريع لأبي لهب[٢] دافع الله به عن نبيه بمثل اللفظ الذي شتم به أبو لهب محمداً ﷺ جزاءً وفاقاً، بأن خاب عمله

(١) السورة مكية بالاتفاق، نزلت في حدود السنة الرابعة للهجرة، وعدد آيها خمس.

(٢) وفي كنية أبي لهب ما يتأتى به التوجيه بكونه صائراً إلى النار، لأن **اللهب ألسنة النار إذا اشتعلت وزال عنها الدخان**، فكانت كنية أبي لهب صالحة موافقة لحاله من استحقاقه لهب جهنم.

وخلت يداه من كل خير[١]، فالتباب: الهلاك والبوار والقطع.

﴿وَتَبَّ﴾: أي أهلكه الله وقد هلك، فـ «**تَبَّتْ**» **الأولى دعاء، «وَتَبَّ» الثانية تقرير لوقوع هذا الدعاء**[٢].

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾:

فلما تبَّ سائر ما عمل بيده، ما عاد شيء يرد عنه عذاب الله في الدنيا والآخرة، فقد استغرق التباب كل ما جناه، فما يغنيه ما جمع من مال ولا ولد، ولا سائر ما توهمه من المصالح التي من أجلها جحد الحق مع قيام الحجة عليه، وهذا **إعلام بتيئيس المجاهر بعداوة الحق من النجاة**[٣].

﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾:

وكما أنك تشهد أن الله لم يُبقِ من تراث أبي لهب شيئاً، لا من ماله ولا من ولده بعد أن «تب»، فإن وعد الله كان مفعولاً ومتحققاً بأنه: **﴿سَيَصْلَىٰ**

---

(١) وخصّ اليدين بالتباب، لأن أكثر العمل يكون بهما، كما كان من أبي لهب لما أخذ بيده حجراً ليرميه به، فيقع الخسران على يديه وعليه هو، فيُراد باليدين نفسه كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾[الحج: ١٠].

(٢) «**وجملة (وتب) في موضع الحال، والواو واو الحال، ولا تكون دعاءً إنما هي تحقيق لحصول ما دُعي،** فيكون الكلام قبله مستعملاً في الذم والشماتة به، ويؤيد هذا الوجه قراءة عبدالله بن مسعود (**وقد تب**)» التحرير والتنوير: ٣٠/ ٥٩٩.

(٣) وروي عن ابن مسعود أن أبا لهب قال: «إن كان ما يقول ابن أخي حقّاً فأنا أفتدي نفسي يوم القيامة بمالي وولدي»، فأنزل الله: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾، وقال ابن عباس: «(ما كسب): هو ولده؛ فإن الولد من كسب أبيه»، وفي قوله (ما أغنى) بالماضي: تحقيق وقوع عدم الإغناء.

﴿نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾، سيشوى بنار له من اسمها نصيب، ومن فعلها فيه بتوقدها وتلهبها، فيصلاها ويُشوى بها ويُحس بإحراقها، وهو الألم الذي سيذوقه كل من كان فعله من جنس فعل أبي لهب، وقد نزل هذا القرآن في حياة أبي لهب وقد مات بعد ذلك كافراً، فكانت هذه الآية إعلاماً بأنه لا يسلم، وكانت من دلائل النبوة.

﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾:

كان عبد العُزّى يرمي الحجارة بيديه، ويقذف بلسانه «التب»، فيما كانت أروى زوجته[1] تعين عبيدها بيدها لنشر الشوك والحطب، وتطرحه بالليل على طريق النبي ﷺ، وتحمل بلسانها أحاديث التكذيب والتشويه والنميمة، فكان قضاء الله فيها أنها ستصلى هذه النار معه[2]، وهي تحمل الحطب في جهنم ليوقد به على زوجها، وذلك خزيٌ لها ولزوجها؛ إذ جعل شدة عذابه على يد أحب الناس إليه، وجعلها سبباً لعذاب أعز الناس عليها، وهذه سُنَّة الله الماضية: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ﴾[الصافات: ٢٢ ـ ٢٤].

وإكمالاً لعذابها النفسي كامرأة مفطورة على حب التحلي، فإنها سترتبط إذلالاً لها في موضع الحلية والحُسن منها: في عنقها، بحبل محكم الفَتْلِ مِن مسد ـ وهو ليف شديد خشن ـ، يكون حليها في الآخرة، كما كانت تحزم

---

(١) وامرأته: أي زوجه، وقد ذكر في القرآن الأقسام الممكنة في الزوجين، وهي أربعة: إما كإبراهيم وامرأته، وإما أبو لهب وامرأته، وإما فرعون وامرأته، وإما نوح وامرأته.

(٢) فقوله (وامرأته) عطف على الضمير المستتر في (سيصلى) أي: وتصلى امرأته ناراً.

الحطب بالحبال، وهو وعيد مقتبس من فعلها، كما حصل لزوجها من قبل وعيد[١]، **وهي السُّنَّة الإلهية الماضية في أعداء الحق المجاهرين بالعداء، بجزاءٍ يعمُّهم وشركاءهم، من جنس عملهم في الدنيا والآخرة، يتحقق فيه لكل ما كسبوا غاية «التباب»، ويخزهم ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾**[التوبة: ١٤].

*** خاتمة في فقه تلقي السورة:**

لكل سورة في القرآن أربعة أنواع من التلقي، وأربع زوايا يُنظر إليها منها بموجب هذه الأنواع، الأول: لقاء الوحي بقلب النبي ﷺ، والثاني: نزوله على قومه والناس في زمانه خاصة، والثالث: نزوله إلى أجيال الناس جميعاً مدى التاريخ عامة، والرابع: تلقِّيه بقلبك وأنت تسمع كلام الله، ليكون القرآن وكأنه قد أُنزل عليك، وعلى كل فرد في النوع الإنساني وحده بوجه أخص:

١ ـ إلى محمد ﷺ:

إن أبا لهب عبد العزى بن عبد المطلب هو الأخ الشقيق لأبي محمد عبدالله بن عبد المطلب، وعم الرجل صنو أبيه، في بيئة قبلية تجعل الانتماء للدم والقرابة هو الانتماء، ولما نزل أمر الله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[الشعراء: ٢١٤]، كان عمه الأَولى بتصديقه من دون الناس، وبينهما القرابة والجيرة والعشرة،

(١) وقدَّم الخبر من قوله «في جيدها»، للاهتمام بوصف تلك الحالة الفظيعة التي عُوِّضت فيها بحبل في جيدها تُربط به، عن العقد الذي كانت تحلي به جيدها في الدنيا، إذ كانت هي وزوجها من أهل الثراء وسادة أهل البطحاء، وقد ماتت أم جميل على الشرك.

بل والمصاهرة بين اثنين من أولاد كلٍّ منهما، فكان وقوع الأذى منه أشد ما يكون على قلب النبي ﷺ:

وظلمُ ذوي القربى أشدُّ مضاضةً على النفسِ من وقعِ الحسامِ المهنَّدِ

ولكن قدر الله ماضٍ، في أن يشبه محمد ﷺ أباه إبراهيم، ويكون أبو لهب له كما كان آزر لإبراهيم، وليكون نور محمد ﷺ أصيلاً كنور أبيه إبراهيم؛ إذ خرج قلبه الحي موحداً لربه من قلبٍ ميتٍ لأبٍ أو عمٍّ مشرك، ثم ليعلن إبراهيم البراءة من الشرك التي أعلنها قبله أبوه، وهي براءة لا تعرف نسباً سوى نسب توحيد الله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾[الممتحنة: ٤]، فهو الولاء والبراء، بلا مهادنة وفي وقت مبكر من عمر الدعوة، وإنذار استمر منذ بدء الدعوة وحتى هلاك أبي لهب لسنين، بكل ما يعنيه من معاناة ورهق وتحدٍّ، اعتصاماً بالحق الذي نزل به القرآن.

٢ - إلى قريش:

شهدت قريش نوعاً لم تألفه من الولاء والبراء من أجل العقيدة، وشهدت أن الأنساب لا قيمة لها، بل صاحب الشرف يكون ذمّه على تخلُّفه عن الواجب أعظم، ثم شهدت من بعد إعجاز الوعد الإلهي أن هذا وزوجته لم يسلما رغم إسلام من سواهما.

ولو نظرنا بعد ذلك إلى تنافس بيوت قريش من الأمويين والهاشميين (العلويين والعباسيين) على الزعامة بموجب حقوق النسب، ونظرنا إلى حقيقة

أن أبا لهب كان أخا العباس، وعم علي بن أبي طالب، كما كانت امرأته عمة معاوية بن أبي سفيان، لتعلمت الأمة الدرس، ولفهمت أنه كما كان نور محمد أصيلاً، فإن فرعه الجدير بالحكم لا يكون ـ بالضرورة ـ ولداً من ذريته أو رجلاً من قرابته؛ إذ ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾[الأحزاب: ٤٠]، وأن أولى الأمة بولاية شأنها أكثرهم له اتباعاً وأشدهم صلاحاً، وأن الأمر شورى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[الشورى: ٣٨]، مع كل ما لقرابة النبي ﷺ من حقوق.

٣ ـ إلى الناس جميعاً:

هذه السورة بيانٌ شافٍ للسُّنَّة الإلهية الماضية في حفظ الحق وهيبة الحق، تحكي معجزة تاريخية شاهدة مضت، كما أنها تؤسس للفهم عن الله، ونحن نشهد مضيَّ هذه السنة العظيمة في تباب أعمال كل من جاهر الحق العداء مع قيام الحجة عليه، من بعد أبي لهب وإلى قيام الساعة، ومن ثَمَّ فهذه السنة دالَّةٌ على تدبير الله الحي شؤون خلقه، ودالة على أنه هو نفسه الذي أنزل القرآن الذي أعلمنا فيه عن حكمها.

٤ ـ إليك أنت:

هذه السُّنَّة الإلهية ـ بشهادة التاريخ ـ دالَّةٌ على صدق القرآن، وعلى أن منزله إلهٌ حقٌّ قهارٌ، لم يزل مقدِّراً شؤون الكون، ومدبِّراً أمر خلقه، قائماً بالقسط، فاحذر واتق الله الحق أن تجحد حقاً ظاهراً وتجهر بالعداء لصاحب حق؛ إذ سيصيبك جزاءً في الدنيا والآخرة من جنس عملك، واصبر على من ظلمك مع ظهور الحجة، واطمئن فإن له جزاءً من جنس عمله، ولا تشارك

أحداً في ظلم أحد، فكل متعاونَيْن على إثم ما أو عدوان ما، سيشتركان في حصادهما المرِّ بتقدير الله: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾[الصافات: ٣٣].

❐ ❐ ❐

من وحي
السورة التي يُذكر فيها الصمد
(١١٢)

الإخلاص
(التوحيد العلمي)

البناء الموضوعي للسورة القرآنية
من وحي السورة التي يُذكر فيها الصمد
(١١٢)

الإخلاص
(التوحيد العلمي)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.

* مقدمة:

ظلمت عقول بني آدم ربها حين أرادت أن تستقل بإمكان معرفته، أو حين لم تسلم له أمر تعريفها بنفسه، واقترحت له أوصافاً وأنساباً ما أنزل بها من سلطان، فنسبت النصارى إلى الله الابن، وأسبغت على الإنسان ما اختص به الإله، وصوَّرت رب السماوات والأرض مضحِّياً بذاته وقاتلاً لابنه الذي هو نفس ذاته ليكَفِّر عن خطايانا، أي: **أن الله لم يجد من طريقة ليغفر لنا خطيئة أبينا آدم ويرضى بها عنا سوى أن يقتل الله!!**

فيما أسبغت اليهود على الإله خصائص الإنسان، فوصفته التوراة في سفر التكوين أنه استراح بعد التعب من الخلق في اليوم السابع، أو أنه كان يتمشى وسط النهار في الجنة حين علم أن آدم أكل من الشجرة، أو أنه ندم على خلق

الإنسان، أو أنه صارع يعقوب حتى الفجر![١].

وجعلت الهندوس وأهل إنكار النبوات الله عقلاً فعّالاً انبثق من ذاته الوجود، وبالتالي فإنك إن حررت عقلك من أوهام ما سواه، تجردت نفسك وعادت لتكون جزءاً منه كما كانت؛ لأن الوجود كله هو الله، وليس في الوجود إلا الله!.

كما خاضت الفلاسفة في الذي خاضوا، وما حصدوا أكثر مما حصدوا، بسبب أن معرفة الذات الإلهية عصيّة المنال على هذه العقول المسكينة، مهما تطاولت في غرورها.

وفي ظلمات هذا الأمر المريج، والخبط والخلط والوهم الذي جعل الإنسان إلهاً أو ابناً لله هو نفس الله!، أو أنزل الله إلى مرتبة الإنسان وشبهه بما خلق!، أو جعل الكون هو الله!، **يجيء وصف الله لله، في سورة تعدل ثلث القرآن العظيم**[٢]، وحياً نقياً إلى قلب سيد المرسلين ﷺ، ليُنقذ العقول من الظلم العظيم لربها، وليعطيها الفرصة لتعرف بعض قدره، ولتستعد للقائه كما ينبغي.

---

(١) انظر: الكتاب المقدس: سفر التكوين: ٢ ـ ٣، ٣ ـ ٩، ٦ ـ ٧، ٣٣ ـ ٢٥.

(٢) روى البخاري عن أبي سعيد ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟»، فشق ذلك عليهم وقالوا: أيّنا يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: «الله الواحد الصمد ثلث القرآن»، وفي حديث آخر قال عنها رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن» رواه البخاري، وأبو داود، والنسائي في الكبرى، وقال أهل العلم: إن القرآن عقائد وأحكام وقصص، وقد جمعت هذه السورة أصل العقائد.

فاستجمع قلبك وعقلك، وألق سمعك وأنت شهيد، ففي أربع آيات تاليات ستُصغي إلى الله يحكي لك عن الله، ويُعَرِّفك هو نفسه بنفسه سبحانه وتعالى!!

* خط البناء الموضوعي للسورة:

(الإخلاص: التوحيد العلمي)

١ ـ أمرٌ بتلاوة ما يأتي من وصف الله وتثبيته في القلب: ﴿قُلْ﴾.

٢ ـ تعظيم الموصوف: ﴿هُوَ﴾.

٣ ـ بيان التوحيد الخالص:

أولاً ـ إثبات الكمال:

أ ـ ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾: أي أنه:

* واحدٌ لا يتجزأ ولا يتقسَّم.

* متفرِّدٌ لا يتكرر في ذاته وجلال صفاته.

ب ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾: أي أنه:

* الغني بصمديته عمَّن سواه.

* المصمود إليه: الذي يفتقر إليه كل من سواه.

ثانياً ـ نفي النقص:

أ ـ نفي أن يكون له فرع وولد؛ لأنه واحد لا يتجزأ: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾.

ب ـ نفي أن يكون له أصل ووالد؛ لأنه صمد غني عن من سواه: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾.

ج - نفي أن يكون له نظير: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾.

* لأنه متفرد أحد لا يتكرر.

* لأنه الذي يُصمد إليه فيفتقر إليه وحده كلُّ من سواه.

* العرض:

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾:

«قُلْ»: أمر الله نبيه ﷺ، وأمرنا من بعده نحن وكل من أراد معرفة ربه خالق الكون بـأن نتلو ما سيأتي من وصف الله، ونثبته في القلوب، ونثبت به القلوب، ونجيب به من يسأل عن الله ووصفه(١)، بالقول أنه:

«هُوَ»: ذو الشأن الجليل الذي هويته ليست مستفادة من شئ سواها ولا موقوفة على ما سواه، وللإيذان بأنه من الشهرة والظهور بحيث يستحضره كل أحد، وإليه يشير كل مشير، وعليه يعود كل ضمير، ثم عقَّب ذلك بياناً له بذكر الإلهية التي هي أقرب اللوازم لتلك الحقيقة وأشدها تعريفاً، ذلك بأنه:

«اللَّهُ»: وهو الاسم الفرد الجامع الذي حماه عن أن يتسمى به غيره، أو أن يقع فيه شرك بحق ولا بباطل، وهو عَلَمٌ على المعبود بحق، و«أعرف المعارف»: الذي كل ما سواه إنما يُعرف به، والذي إن لم تعرفه لن تعرف أي شئ سواه، بل ولا حتى نفسك التي بين جنبيك!.

«أَحَدٌ»: لفظ أصله «وحد» وأُبدلت الواو همزة كما في «أُجوه

---

(١) روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي بن كعب أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: يا محمد! انسب لنا ربك، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ . . . السورة﴾.

ووجوه»[١]، والوحدة: «الانفراد»، ويُستعمل **«أَحَدٌ»** في النفي، ولا يُستعمل وصفاً في الإثبات إلا في حق الله تعالى، والواحد في الأصل الذي لا جزء له ألبتة، فهو في حق الله الذي لا يصح عليه التجزؤ ولا التكثر[٢]، والأحد أكمل وأعم من الواحد، لأن الأحد هو الواحد الذي لا نظير له![٣]، أي: **أنه واحد متفـرد، واحد لا يتجـزأ، ومتفرِّد لا يتعدد!، فالأحدية: تنزيه عن القسمة والنظير.**

فهو **«واحـد»** لا يتجـزأ في ذاته، خلقَنا من العدم لا من بعض نفسه، وبالتالي فإنه ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ أي: أنه لم ينبثق عنه شيء، ولم يتولد عنه شيء، فليس له فرع، وهو بائن عن خلقه، وليس الوجود أو أي شيء مما خلق قطعة منه أو ابن لله، حاشاه سبحانه!

---

(١) بصائر ذوي التمييز: ٢/ ٩٢.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن: ٨٥٧.

(٣) (انظر نظم الدرر: ٨/ ٥٨٣)، حيث أسهب البقاعي رحمه الله في تحقيق هذا المعنى، ومن كلامه (بتصرف واختصار): «الأحد: اسـم أعجـز الله العقول عن إدراك آيته في الخلق إثباتاً، فلم تستعمله العرب مفرداً قط، فهو بمعناه الحقيقي ليس بمعنى «واحد»، ولا بمعنـى «أول» مثلاً إلا في النفي، وذلك لما علموا أنه مفصح عن إحاطةٍ جامعةٍ لا يشذُّ عنها شيء ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[القصص: ٨٨]، **فالأحد لا يتبعض إلى أجزاء، ولا يتركب من أجزاء**، فهو أعظم من أن يتَّحد به شيء أو يتَّحد هو بشيء، أو أن يحلَّ فيه شيء، أو يحلَّ هو في شيء، فقد كان الله ولم يكن عالَمٌ ولا زمان ولامكان، وهو خارج عن هذا كله بعد أن أوجده، لايفتقر إلى شيء مما خلق، ولا يقيده زمان ولا يحيزه مكان».

وهو «**المتفرد**» الذي ليس كمثله شيء ﴿ **وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ**[١] **كُفُوًا**[٢] **أَحَدٌۢ** ﴾، فلم يكن له بوجه من الوجوه مثلٌ أو ندٌّ أو مساوٍ على الإطلاق، وليس له شبيه أو نظير في ذاته المتفردة وجلال صفاته، ولا يكون هو كمخلوقه الصغير كما نسبت إليه توراة اليهود، كما ولا يكون مخلوقه الصغير مثله كما نسبت النصارى، تعالى عما يقولون علواً كبيراً.

﴿ **ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ** ﴾:

ثم إن الله هو «**الصَّمَدُ**»[٣]، وللصمد لغةً معنيان:

الأول: إن «**الصَّمَدُ**» **هو الذي لا جوف له**؛ لأن الجوف من صفات النفس المستلزم للحاجة، كقولك «حجر صمد» أي: أنه أملس لا يقبل الغبار، ولا يدخل فيه شيء، ولا يخرج منه شيء، فالصمد **لا يحتاج إلى شيء**، وهو مستغنٍ بذاته وصمديته عن كل شيء مِنّا ومن كل الكون، وبالتالي فهو الذي لا يفتقر إلى ما سواه، لأنه ﴿ **لَمْ يُولَدْ** ﴾ **ولم يتولد ولم ينبثق هو عن شيء**، وليس له أصل سوى من نفسه، وليس هو الوجود ولا هو قطعة من الوجود

(١) قدم الظرف: (له) للاهتمام به، وفيه (الهاء) التي تعود على الله، ولأن المقصود نفي المكافئ.

(٢) الكفؤ: المساوي في القدر والمنزلة، ومنه المكافأة، أي: المساواة والمقابلة في الفعل. وانظر: مفردات ألفاظ القرآن: ٧١٨.

(٣) يقول أهل اللغة: إن التنكير في «أحد» هو على سبيل التعظيم، وتعريف «الصمد» لإفادة القصر، وقد تكرر لفظ الجلالة (الله) مع «أحد» ومع «الصمد» لأن إحداهما نكرة والأخرى معرفة.

الذي خلقه!، وما احتاج إلى شيء وهو الغني عن كل شيء سوى نفسه تبارك وتعالى.

والثاني: إنه «**المصمود إليه**» أي: السيد الذي انتهى سؤدده، المقصود في الحوائج، **وكل شيء إليه محتاج**، والله هو الرب الذي يفتقر إليه كل ما سواه، وما من شيء إلا وهو محتاج إلى الله، فكل ما في الوجود من أكوان وذرات وبحار وأشجار وجن وإنس وملائكة ومني ومنك يفتقر إليه في كل حركة أو نفَس، وهل تملك إلا الافتقار إليه وأنت تعلم أن هذه الخاطرة التي تمر في بالك في لحظة أدق مما تستغرقه دقة قلبك لا تكون إلا به؟، وليست الحاجة إلا إليه وحده، وليس له كفؤ أو نظير في **قدرته وأفعاله**، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[1] وفي قدرته على القيام بأمر كل ما خلق.

إن صيغة ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾[2] تفيد قصر الصمدية على الله تعالى، حيث ما من اسمٍ كاسمه «الصمد» **يعبر عن كمال ذاته واستغنائه عمّا سواه، وعن ذل الوجود جميعاً وافتقاره إليه سبحانه؛ لأنه الذي لا يحتاج إلى شيء وكل شيء محتاج إليه**، ويفتقر إليه كل ماسواه خلقاً وإيجاداً، ثم للصلاح بعد الخلق ودواماً للوجود.

ولذلك كان هذا الاسم: «اسماً أعظم[3]»، إذا دُعِيَ به الله من القلب

(١) راجع الهامش في معنى الكفؤ، وفائدة تقديم الظرف (له)، والمذكور عند شرح (أحد) فيما سبق.

(٢) هي صيغة قصر بسبب تعريف المسند (الصمد)، أي: أن الله هو وحده الصمد، وليس هناك صمد سواه.

(٣) الصمد: بحسب دلالته على الوجوب الذاتي يدلُّ على جميع السلوب، وبحسب=

أجاب، وإذا سُئل به أعطى، كما ورد في حديث النبي ﷺ، عن بريدة ﷺ، أنه دخل مع رسول الله ﷺ المسجد، فإذا رجل يصلي ويدعو، يقول: **«اللهم إني أسألك بأني أشهد أن لا إله إلا أنت، الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كُفُواً أحد»**، قال: **«والذي نفسي بيده لقد سأله باسمه الأعظم الذي إذا سُئل به أعطى وإذا دُعي به أجاب»**(١).

*** في فضل السورة:**

إن سورة الإخلاص قد تمحضت للتوحيد، وإثبات الأحدية لله: الإله المعبود، والصمدية له: لأنه الرب المعين، فجعلت الله هو الغاية، وهو المعين إليها!، وليس كمثله أحد ولا له ندٌّ أو نظيرٌ أو مساوٍ في **أحدية إلهيته**، ولا في **صمدية ربوبيته**، وقد سُميت مع أختها سورة **«الكافرون»**: **«سورتي الإخلاص»**، لأنهما اشتملتا على نوعي التوحيد الذي لا نجاة للعبد ولا فلاح إلا بهما، وهما: توحيد **«العلم والاعتقاد»** المتضمن إثبات الكمال لله وتنزيهه عما لا يليق به، والثاني: توحيد **«الإرادة والعمل»**، بإعلان أن لا يُعبد إلا إياه، ولا يُشركُ به في عبادته سواه، وسورة «الكافرون» مشتملة على هذا التوحيد، فانتظمت السورتان نوعي التوحيد، وأخلصتا له، فكان ﷺ يفتتح بهما النهار في سنة الفجر، ويفتتح بهما الليل في سنة المغرب، **لتكونا مفتاح العمر القادم لمن أسلم وجهه لرب العالمين.**

= دلالته على كونه مبدأ الكل يدلُّ على جميع النعوت الإلهية.

(١) رواه النسائي في الكبرى ٢/ ٩٠، وأبو داود (١٤٩٣)، والترمذي (٣٤٧٥)، وابن ماجه (٣٨٥٧).

وفي الحديث الذي رواه البخاري عن الرجل الذي كان يؤم أصحابه ويختم بهذه السورة في كل ركعة، فلما ذكروا ذلك للنبي ﷺ قال: «**سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟**»، فقال: لأنها صفة الرحمن وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي ﷺ: «**أخبروه أن الله تعالى يحبه**»(١). وفي روايةٍ أنه ﷺ سأله: «**ما حملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة؟**» قال: «**إني أحبها**»، قال: «**حبُّك إياها أدخلك الجنة**»(٢).

وعن النبي ﷺ أنه قال: «**قل هو الله أحد والمعوذتين حين تمسي وحين تصبح ثلاثاً، تكفيك كل يوم مرتين**»(٣) وفي رواية «**تكفيك من كل شيء**»(٤).

*** خاتمة:**

اعلم **أن معرفة الله جنة حاضرة!**، وفي ظل هذا الوحي الكريم يعرفنا الله بالله كما يحب أن نعرفه، ومن أراد تذوق بعض أريج تلك الجنة **فليخل بنفسه ساعة**، وليتدبر معنى أن «الله» إله الكون الحق، **واحدٌ متفردٌ، يحتاج إليه كل شيء ولا يحتاج هو إلى شيء**، بائن من خَلقه لم يتولد هو عن شيء، ولم يتوالد عنه شيء، فليس له أصل ولا فرع، كما ليس له في **أحديته وذاته وجلاله، ولا في صمديته وقدرته وإكرامه** ندٌّ أو مساوٍ أو نظير من أي شيء!

هذا هو الله، الذي يعرِّفنا به القرآن، وهو الإله الذي نعبد، وإليه وحده

---

(١) رواه البخاري ١٣/ ٣٦٠، ومسلم ١/ ٥٥٧، والنسائي في الكبرى ٦/ ١٧٧.

(٢) رواه البخاري معلَّقاً ٢/ ٢٩٨.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده ٥/ ٣١٢، وأبو داود ٥/ ٣٢٠، والنسائي ٨/ ٢٥٠.

(٤) رواه الترمذي ٥/ ٥٦٧.

نذلُّ وله وحده نحب، نصبر على قضائه، ونشكر نعماءه، ونقضي العمر كله في إصلاح الحياة وإقامة العدل استعداداً للقائه، ولا نبتغي غيره إلهاً، أحد صمد ولا شيء يساويه في الوجود، بل ولا كل الوجود سواه.

فليعبد الناس من يشاؤون وما يشاؤون، فإن الله واحد، سواء وُجد من يوحده أولم يوجد، وسواء قالها إنسان أولم يقلها، فالأصل والشأن والحال أنه: إله واحد، شهدت ذاته لذاته بذلك قبل أن يخلق الله أي شيء سواه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[آل عمران: ١٨].

وهذه أعظم شهادة في القرآن، شهد بها الله نفسه على نفسه، قبل خلق الكون والذرات والملائكة، وقبل خلق أي شيء، إنها شهادة من الله على الله قبل أن يكون سوى الله أي شيء!، كما هي باقية بعد أن يفنى كل من في الوجود ويبقى وجه الله الواحد ذو الجلال والإكرام، **فاشهدها له اليوم مع الوجود، بقلب ذاق حلاوة صدق الوحي العظيم، وقل**: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[آل عمران: ٥٣].

❑ ❑ ❑

من وحي
السورة التي يُذكر فيها الفلق
(١١٣)

حصن الله
(العصمة من كل شر)

البناء الموضوعي للسورة القرآنية
من وحي السورة التي يُذكر فيها الفلق
(١١٣)

حصن الله
(العصمة من كل شر)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ① مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ② وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ③
وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ④ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ .

*** مقدمة:**

جعل الله بني آدم خلفاء في الأرض، واستعمرنا فيها، وآتانا قوة لنكابد ونكدح، وخلق لنا ما في الأرض جميعاً، وسخر لنا ما في السماوات، وهو ناظر إلينا كيف نعمل في فرصتنا المحدودة هذه.

وفيما نحن نعمر الأرض ونستثمر ما فيها، ونقهر ما يظهر فيها من تحديات بما أوتينا من قدرات، ونبدع ما لا حدَّ له من الممكنات، قد يأخذنا العجب، حين تأخذ الأرض زخرفها وتتزين، ونظن بأنفسنا القدرة عليها: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾[يونس: ٢٤]، وننسى أننا مجرد أطياف مؤقتة تؤدي أدواراً صغيرة ضمن تاريخ متطاول ممتد.

تأتي هذه السورة لتعيد إلينا رشدنا، ومانسناه من حدود قدراتنا، حين

تتحدث عن الإنسان وهو يواجه نوعاً من القوى لم يؤهله خالقه ليواجهها بما آتاه، فيقف ضعيفاً حائراً في ميدان تاهَ فيه من قبله وسيتيه فيه من بعده.

ونظرة واحدة إلى واقع تعامل حضارات الدنيا عبر التاريخ القديم والحديث مع هذا التحدي، تحكي لنا درجة السخف الذي يمكن للعقل الإنساني أن يصل إليه وهو يتخبط في ظلمات الوهم والتخمين.

وإنما ابتُلي الإنسان بهذا النوع من القوى غير المنظورة التي لم يؤهَّل لمواجهتها بما أوتي من قدرات لِحِكَمٍ بالغات، لعل بعضها ما يلي:

أولاً: شهود الضعف الإنساني، وهو يتلمس بنفسه آثاراً عجيبة لقوى مختلفة لا يملك ـ مهما عمل ـ أن يتعامل معها بما أوتي من علم وقدرة، وكل ما يملكه تجاهها لملمة الظنون وإدمان القلق، ومعرفة أن هناك حدوداً لما يمكن أن يعلمه الإنسان.

ثانياً: اليقين بالغيب، وهو يشهد ـ شاء أم أبى ـ تأثيرات عجيبة لقوى غير منظورة على عالمه، وقد تواترت أخبارها عند الناس بما لا يقبل الشك، إن لم يكن غالباً قد ذاق تأثيرها بنفسه، وغاب عن حسه إمكان إدراك طبيعة مصدرها، مهما بالغ في البحث والتحصيل.

ثالثاً: التحقق من مصدر القرآن، وأنه وحي من الذي خلق الإنسان وخلق عالمه المشهود، وخلق عالم الغيب، وهو العالم بما خلق، وهو منزل القرآن ليعرفنا بما ينبغي معرفته عن ذلك العالم بملائكته وجِنِّه وقواه غير المادية، ويعلِّمنا كيف نتعامل معه وفق حدود واضحة، تجعل الحياة أكثر استقراراً، مع البعد عن الشطط والوهم والقلق والخرص بغير علم.

* **خط البناء الموضوعي للسورة:**

(حصن الله): (العصمة من كل شر)

١ ـ **أمرٌ** بطلب العصمة من الله، واللجوء إلى حصنه **لدفع كل شر**: ﴿قُلْ أَعُوذُ﴾.

٢ ـ **بيان** أن الله رب كل شيء في الوجود وفالقه: ﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾.

٣ ـ **تعميم** طلب العصمة من كل شر: **مشهود** الأسباب، **أوغيبي** الأسباب: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾.

٤ ـ **تخصيص** الشرور **الغيبية الأسباب** بطلب دفعها، لأنها مما لا يملك الإنسان سبباً لدفعها، سوى باللجوء إلى فالقها، وهي أنواع ثلاثة:

* **شرٌ** من خبائث أنفس **الجن**: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾.

* **شرٌ** من خبائث تعاضد الأنفس **الإنسية والجنية**: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾.

* **شرٌ** من خبائث أنفس **الإنس**: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.

* **العرض**[1]:

تتحدث السورة التي يُذكر فيها الفلق عن الشر الواقع على الإنسان من غيره، سواء أكان مصدره أسباباً مادية ظاهرة من عالم الملك المشهود، أم كان من عالم الملكوت والغيب غير المنظور، وتبين له كيف يستعيذ منه، ومَن

---

(١) إن معظم ما سيرد في العرض مأخوذ من التفسير الرائع للإمام ابن القيم لهذه السورة، في كتابه (بدائع الفوائد)، بتصرف واختصار وإضافات.

المستعاذ به، وكل هذا الشر **لا يدخل تحت التكليف**، وهو من الابتلاء الذي يصيبه في حياته، وإذا وقع على المسلم واحتسب وصبر، أثابه ربه، فيا من تريد أن تعتصم بحصن رب العالمين من كل شر ـ مشهود السبب أو غيبي السبب ـ، استمع يعلمك كيف اللجوء إليه[١]:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ :

﴿قُلْ﴾ : أمر من الله، لتعلن صراحة عن ضعفك وتقتل الكبر والغرور الكاذب، بطاعة الله بالقول: «قُلْ» كما أمرك، ليلين القلب ويخشع لذكر ملاذه ومنقذه من كل شر: «الله رب العالمين».

﴿أَعُوذُ﴾ : **ألتجيء وأعتصم وأتحرَّز**، وحقيقة العوذ الهروب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه، فإن المستعيذ مستتر بمعاذه متمسك به معتصم به[٢].

﴿بِرَبِّ﴾ : إن المُستعاذ به هو الله وحده الذي لا ينبغي الاستعاذة إلا به؛ لأنه هو رب المستعاذ منه ومالكه والمسيطر عليه، ورب المستعيذ الذي يتدرج في تربيته وترقيته، ولا يُستعاذ بأحد من خلقه، وهو سبحانه يُدعى بأسمائه الحسنى فيُسأل لكل مطلوب باسم يناسبه ويقتضيه، فيعيذ المستعيذين،

---

(١) ونحن نبدأ الاستعاذة بـ (قل)، نقولها كما قالها رسول الله ﷺ حين سأل عن المعوذتين: «قيل لي: فقلت». (رواه البخاري: كتاب التفسير، باب سورة: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، برقم ٤٩٧٦)، فليس له ﷺ في القرآن إلا بلاغه.

(٢) وللعبد بين يدي المعبود مقامات قائمة بقلبه وراء هذه العبارات، وإنما هي تمثيل وإشارة وتفهيم، وإلا فما يقوم بالقلب حين الالتجاء والاعتصام والانطراح بين يدي الرب، والافتقار إليه، ولذة التذلل بين يديه، أمرٌ لا تحيط به العبارة.

ويعصمهم ويمنعهم من شرِّ ما استعاذوا من شره.

﴿ٱلْفَلَقِ﴾: كل ما انفلق عن شيء وانشق عنه، فالخلق كله فلق، والله ﷻ فالق الإصباح، وفالق الحب والنوى، وفالق الأرض عن النبات، والأرحام عن الأجنة.

إن نور الله هو سر الكون، وبنوره انفلق كل موجود من ظلمة العدم، كما يفلق الصبح ظلمة الليل: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[النور ٣٥]، فكل موجود إنما وجد بالله الحي، ثم إن ربه القيوم يمده ليدوم وجوده، فيربيه «رَبُّ الْفَلَقِ» ويتدرج به ليصل إلى كماله الممكن.

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾:

الشر: يقال لشيئين: للألم ولما يفضي إليه، فالشرور هي الآلام وأسبابها، وكانت استعاذات النبي ﷺ جميعها مدارها على هذين الأصلين، فكل ما استعاذ منه، أو أمر بالاستعاذة منه فهو إما مؤلم، وإما سبب يفضي إليه[(١)]، في الدنيا والآخرة.

﴿مَا خَلَقَ[(٢)]﴾: أي من شر كل مخلوق ذي شر، من حيوان أو غيره،

---

(١) والشر المستعاذ منه نوعان: **أحدهما**: موجود يُطلب رفعه، **والثاني**: معدوم يُطلب بقاؤه على العدم وألا يوجد، كما أن الخير المطلق نوعان: **أحدهما**: موجود فيطلب دوامه وثباته وألا يُسلبه، **والثاني**: معدوم فيُطلب وجوده وحصوله، فهذه أربعةٌ هي أمهات مطالب السائلين من رب العالمين، وعليها مدار طلباتهم.

(٢) إن الذي يضاف إلى الله تعالى كله خير وحكمة ومصلحة وعدل، والشر ليس إليه، كما ليس هناك شر مطلق، وإنما هي درجات من الخير ودرجات من النور، وليس الشيطان والشر نداً لربنا خالق كل شيء، وربنا الرحمن الطيب لا يكون منه إلا الخير، =

إنسياً كان أو جنياً أو ذرة أو دابة أو ريحاً أو صاعقة أو أي نوع كان من أنواع البلاء، وكل شر في الدنيا والآخرة.

أي: ألتجئ إلى رب المخلوقات كلها، الذي فلقها من ظلمات العدم بنور الخلق والإيجاد، وهو رب الصبح والنور الذي ينفلق عن الليل والظلمات، ليعصمني من شر كل مخلوق ذي شر.

وبعد الاستعاذة من عموم الشر، يخصص ثلاثة أنواع من شرور الغيب التي لا يستقلُّ العقل بمعرفتها، وإنما يملك إدراك آثارها في حياته وحياة الناس فحسب، ولا يملك أي سبب مادي لمعرفة حقيقتها أو لدفعها سوى الاستعاذة بربه منها:

الشر الغيبي الأول: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾:

الغسق: الامتلاء بالظلمة، **والغاسق**: الليل إذا اعتكر ظلامه، بعد دخوله بغروب الشمس[(١)]، «وقب»: **دخل في كل شيء، فكأنما يصبُّ الليل**

= والكل متقلب بين فضله وعدله، وعدله منه فضل، فقد حرَّم الظلم على نفسه، فلا يكون في الوجود حدث إلا في موضعه، وهو على كل شيء قدير.

وتأمل طريقة القرآن في إضافة الشر تارة إلى سببه ومن قام به كقوله: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[البقرة: ٢٥٤]، وتارة بحذف فاعله كقوله تعالى حكاية عن مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾[الجن: ١٠]، فحذفوا فاعل الشر ومريده وصرحوا بمريد الرشد.

(١) وعن عائشة ﵂ قالت: أخذ النبي ﷺ بيدي فنظر إلى القمر، فقال: «يا عائشة! استعيذي بالله من شرِّ هذا؛ فإن هذا هو الغاسق إذا وقب». (رواه أحمد ٦/ ٢١٥، والترمذي، برقم ٣٣٦٦)، وهذا التفسير حق، ولا يناقض التفسير الأول، بل يوافقه =

في العالم ظلامه فلا يترك منه شيئاً، فتكون الاستعاذة من شرور ما هو أعم ويدخل فيه الليل، أي: **أستعيذ برب الفلق من شرِّ كل مخلوق ينشط في الظلام قادر على الشر.**

والسبب الذي لأجله أمر الله بالاستعاذة من شر الليل إذا وقب، هو: أن الليل إذا أقبل تنتشر الشياطين، وقد أخبر النبي ﷺ أن الشمس إذا غربت انتشرت الشياطين، وقال: «**فاكفتوا صبيانكم واحبسوا مواشيكم حتى تذهب فحمة العشاء**[1]»، والليل هو محل الظلام وفيه تتسلط شياطين الإنس والجن ما لا تتسلط بالنهار، ولكن قيَّد شرَّهُ بـ «إِذَا» لأن ليس في كل غاسقٍ الشر.

هذا مع العلم بأن كيد الشيطان الجني قِبل الإنسي ضعيف: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[النساء: ٧٦]، وليس له من سلطان على ابن آدم: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾[إبراهيم: ٢٢]، فلا يهولنَّك الأمر، وإنما يستغل الجن رهبة المجهول وأنهم يروننا من حيث لا نراهم: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾[الأعراف: ٢٧]، فيوحون الكذب إلى الإنسان الجاهل القلق، فيُصدق ما يوحون به لأنه مستعد لتقبله بنفسه القلقة، والحال أن جنس الجن أكذب من

= ويشهد بصحته، فإن الله تعالى قال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾[الإسراء: ١٢]، فالقمر هو آية الليل وسلطانه، فهو أيضاً غاسق إذا وقب، حتى أن أهل الريب يتحينون وجبة القمر. ووقوبه: انمحاء نوره آخر الشهر، فيكون الظلام أشد ما يكون، كما أن الليل غاسق إذا وقب، والنبي ﷺ أخبر عن القمر بأنه غاسق إذا وقب، وهذا خبر صدق، ولم ينفِ عن الليل اسم الغاسق إذا وقب، فتخصيص النبي ﷺ له بالذكر لا ينفي شمول الاسم لغيره.

(١) رواه أحمد ٣/ ٣٨٨، وأبو داود برقم ٣٧٣٣.

جنس الإنس، **وأنهم لن يؤثِّروا فيك إلا إن لجأت أنت إليهم**: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[الجن: ٦]، أو استجبت دعوتهم: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾[إبراهيم: ٢٢]، وأما عباد الرحمن العائذون به فلا يصلون إليهم أبداً: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾[الحِجْر: ٤٢]، **فتقضي العمر ولا شأن لك بهم، ولن يصلوا إليك ما دمت مستعصماً برب الفلق.**

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾:

الشر الغيبي الثاني: هو شر النفاثات في العقد، وهذا الشر هو شر السحر، و«النفاثات»: هي الأنفس الخبيثة، يعقدن الخيوط وينفثن على كل عقدة، و«النفث»: هوالنفخ مع ريق، وهو فعل الساحر إذا تكيفت نفسه بالخبث والشر الذي يريده، نفخ في تلك العقد نفخاً معه ريق، وقد تَسَاعَدَ هو وشياطين الجن على الأذى، **ويمنع تأثيره الاستعاذة برب الفلق من شر كل نفس خبيثة تتساعد والشيطان لتصنع الشر.**

والسحر يؤثر مرضاً وثقلاً وحباً وبغضاً وغير ذلك من الآثار موجود تعرفه عامة الناس، وكثير منهم قد علمه ذوقاً بما أصيب به، فإذا جاز على الساحر أن يسحر جميع أعين الناظرين مع كثرتهم، حتى يروا الشيء بخلاف ما هو، كما فعل سحرة فرعون حين: ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾[الأعراف: ١١٦]، فما الذي يحيل تأثيره في تغيير بعض أعراضهم وقواهم وطباعهم، وقد قال تعالى: ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ

﴿مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[البقرة: ١٠٢].

ومع ثبوت وجود السحر، ولكن: **اعلم أن كيد السحرة أهون من أن يقام له وزن**، وإلا فلو كانت قدرتهم وقوتهم كما يوهمون الناس لسادوا الأرض، وهم موعودون **بالرهق**: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[الجن: ٦]، **وعدم الفلاح** مطلقاً: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾[طه: ٦٩]، ولا يزيد قدر تأثير السحر عن قدر مرض من أمراض الدنيا، **والمسلم الذي يتحصن برب الفلق لن يصل إليه سحر ساحر مهما كان**، ولا تتوهم أبداً أن من الممكن لأي متعامل بالسحر أن يؤذي منك شعرة ما دمت بربك مستعيذا[(١)].

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾:

الشر الغيبي الثالث: شر الحاسد إذا حسد، وأصل الحسد هو بغض نعمة الله على المحسود، وتمني زوالها[(٢)]، والحسد أول ذنب عُصي الله به في

---

(١) وما ثبت عن سحر النبي ﷺ في الصحيح، فيه آيتان لنبوته، **الأولى**: بما أعلمه الوحي أنه سحر، **والثانية**: بما أبطل عمل السحر بتلاوة القرآن، وفي ذلك آية أعظم مما فعل موسى عليه السلام لإبطال صنع سحرة فرعون.

(٢) **وللحسد مراتب؛ الأولى**: حسد تمني زوال النعمة، **والثانية**: تمني دوام عدم النعمة، فهو يكره أن يُحدث الله لعبده نعمة، بل يحب أن يبقى على حاله من فقره أو ضعفه، وكلاهما ممقوت عند الله تعالى وعند الناس ولا يسود فاعلهما أبداً. **والحسد الثالث**: حسد الغبطة، وهو تمني أن يكون له مثل حال المحسود من غير أن تزول النعمة عنه، فهذا لا يعاب صاحبه، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس»، فهذا حسد غبطة، الحامل لصاحبه عليه حب خصال الخير والتشبه بأهلها.

السـماء، وأول ذنب عُصي به في الأرض، فحسد إبليسُ آدمَ، وحسد قابيلُ هابيلَ.

وقد دلَّ القرآن والسنة على أن حسد الحاسد يؤذي المحسود، وإن لم يؤذه بيده ولا لسانه، وعن أسماء بنت عميس قالت: «يا رسول الله! إن ابنيْ جعفر تصيبهم العين أفنسترقي لهم؟»، قال: **«نعم فلو كان شيء يسبق القضاء لسبقته العين»**[1].

فالحاسد إذا تكيَّفت نفسه الخبيثة واحتدَّت، خرجت منها تلك النظرة فأثَّرت في المحسود تأثيراً بحسب ضعفه، وقوة نفس الحاسد، **ولن يؤثر فيك ما دمت تستعيذ برب الفلق منه ومن شر كل نفس تريد الشر**.

وللأرواح قوة تأثير بتقدير العزيز العليم خالق الأسباب والمسببات، تعرف قدرها إذا تأملت هذا الهيكل الإنساني إذا فارقته الروح كيف يصير بمنزلة الخشبة، أو القطعة من اللحم، فأين ذهبت تلك العلوم والمعارف والعقل، كيف ذهبت كلها مع الروح وبقي الهيكل سواء هو والتراب؟!

ومعنى تقييده سبحانه شر الحاسد بقوله: «**إِذَا حَسَدَ**» أن الرجل قد يكون عنده حسد، ولكن يخفيه ولا يرتب عليه أذى بوجه ما، بل يجد في قلبه شيئاً من ذلك، ولا يعاجل أخاه إلا بما يحب الله، فهذا لا يكاد يخلو منه أحد إلا من عصمه الله[2].

---

(١) رواه أحمد ٦/ ٤٣٨، وابن ماجه برقم ٣٥١٠.

(٢) **ويندفع شر الحاسد عن المحسود بأسباب**، منها: التعوذ بالله من شره وهو من مقاصد السورة، وتقوى الله وحفظه، وأن يتوكل على الله فمن يتوكل على الله فهو =

*** خاتمة :**

إنها آيات ناطقات من رب السماوات وفالق الوجود من ظلمات العدم، تحسم أمر المتاهات التي خاضت وتخوض فيها الإنسانية في شأن تلك القوى غير المنظورة، وتُعرِّفها، وتحدد الموقف منها، وتعطيك القوة الضرورية لمواجهتها، حتى لا تكون سبباً للضلال، ولا تخوض في الوهم كالذي خاضوا.

ولتعلم أن الجن مخلوقات خلقها الله، تأثيرهم أكبر في شدة ظلام الليل وظلمة القلب، وأن التعامل معهم سبيل للرهق، وأن لا شأن لك بهم ولا تأثير لهم عليك مادمت برب الفلق مستعصماً، وأن السحر تعاون بينهم وبين النفوس الإنسية الخبيثة، وهو فتنة كفرية، وأن الحسد من طاقات النفس الإنسية حين تريد الشر، وهو معصية كسابقيه، ولن يصل إليك تأثيره ما دمت بحصن الله عائذاً.

*** في فضل السورة :**

أصغ إلى سيد الناس محمد ﷺ يحكي لك عن قدر هذه السورة وأختها

= حسبه، وتجريد التوبة إلى الله، والصدقة ما أمكنه، فإن لذلك تأثيراً عجيباً في دفع البلاء ودفع العين وشر الحاسد، ثم فراغ القلب من الاشتغال بالحاسد والفكر فيه، وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خطر له فلا يلتفت إليه، ولا يخافه ولا يملأ قلبه بالفكر فيه، وهذا من أنفع الأدوية وأقوى الأسباب المعينة على اندفاع شره؛ فإن الحسد كالنار، فإذا لم تجد ما تأكله أكل بعضها بعضاً، وهذا باب عظيم النفع لا يلقاه إلا أصحاب النفوس الشريفة والهمم العلية، مع العلم بأنه ما من شئ يضر ولا ينفع إلا بإذن الله، قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾[الأنعام: ١٧].

سورة الناس بقوله: «ألم تر آيات أُنزلت الليلة لم يُرَ مثلهن قط: قل أعوذ برب الفلق، قل أعوذ برب الناس[١]»، وقوله: «ألا أخبرك بأفضل ما تعوَّذ به المتعوذون؟، قلت: بلى، قال: قل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس[٢]»، وقوله: «قل هو الله أحد والمعوذتين حين تمسي وحين تصبح ثلاث مرات تكفيك من كل شيء[٣]»، وأنه: «كان رسول الله ﷺ يتعوذ من الجان وعين الإنسان حتى نزلت المعوذتان، فلما نزلتا أخذهما وترك ما سواهما[٤]»، و«إن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه نفث في كفيه بقل هو الله أحد والمعوذتين جميعاً، ثم يمسح بهما وجهه وما بلغت يداه من جسده[٥]».

❐ ❐ ❐

(١) رواه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب فضل قراءة المعوذتين برقم ٨١٤.

(٢) رواه أحمد ٣/ ٤١٧، والنسائي ٨/ ٢٥٢.

(٣) رواه أبو داود، برقم ٥٠٨٢.

(٤) رواه الترمذي، برقم ٢٠٨٥.

(٥) رواه البخاري، برقم ٥٨٤٨.

من وحي
السورة التي يُذكر فيها الناس
(١١٤)

حصن الله
(العصمة من الشر الأعظم)

البناء الموضوعي للسورة القرآنية
من وحي السورة التي يُذكر فيها الناس
(١١٤)

حصن الله
(العصمة من الشر الأعظم)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ
ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ
وَٱلنَّاسِ﴾.

*** مقدمة:**

تختتم هذه السورة كتاب ربنا العظيم، ببيان الحصن الأعظم من الشر الأكبر، الذي يعوق وصولك إلى ما شاء ربك من خير وعدل وصلاح وإصلاح، فهي مشتملة على الاستعاذة من الشر الذي هو سبب الذنوب والمعاصي كلها: **في نفسك أنت!**، وما تشتمل عليه نفسك من الشر الداخلي الذي هو منشأ المظالم والعقوبات، وسر القصور عن بلوغ الكمالات في الدنيا والآخرة.

فسورة **الفلق** تضمنت الاستعاذة من الشر الذي هو من ظلم الغير للعبد، بعموم الأذى أو السحر والحسد وغيره، وهو **شر من خارج**، وسورة **الناس** تضمنت الاستعاذة من الشر الذي هو بسبب ظلم العبد نفسه **وهو شر من داخل**، فالشر الأول **لا يدخل تحت التكليف** ولا يُطلب منه الكف عنه، ويثاب

على الصبر عليه إن أصابه، لأنه ليس من كسبه، والشر الثاني في سورة الناس **يدخل تحت التكليف**، ويتعلق به النهي، ويعاقب إن اكتسبه، فسورة الفلق تتضمن الاستعاذة من كل شر، وسورة الناس تتضمن الاستعاذة من أعظم الشر، الذي أصله كله الوسوسة، فالسورة الأولى حصن لسلامة **النفس والبدن**، والثانية حصن لسلامة **الدين** وهي الأعظم، فاستعاذ هناك بصفة واحدة من ثلاث آفات، وهنا بثلاث صفات من آفة واحدة.

*** خط البناء الموضوعي للسورة:**

(حصن الله): (العصمة من الشر الأعظم)

١ ـ **أمرٌ** بطلب العصمة من الله واللجوء إلى حصنه لدفع **الشر الأعظم**: ﴿قُلْ أَعُوذُ﴾.

٢ ـ بيان وصف الله الذي تلجأ إليه:

* **منه بدأ** وجود الناس: ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾.

* **بيده السلطان** مدى الوجود على الناس: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾.

* **إليه منتهى** مآل الناس: ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾.

٣ ـ **بيان** أصل الشر الأعظم **المستعاذ منه**: ﴿مِن شَرِّ﴾.

* وصف مسبب الشر الأعظم: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ﴾.

* وصف طبيعته وموضع ضعفه: ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾.

* وصف **موضع فعله وسر خطره**: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾.

* بيان **أنواعه**: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾.

* **العرض**[١]:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ﴾:

«قُلْ»: تبدأ السورة بوقوفك لاجئاً ومعتصماً ومفتقراً ومتذللاً بين يدي ربك، قائلاً كما أمرك: **«قُلْ»**.

«أَعُوذُ»: **ألتجىء وأعتصم وأحتمي**، وحقيقة العوذ الهروب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه، فإن المستعيذ مُحتَمٍ بِمَعاذه، لاجئ إليه، معتصم به.

«النَّاسِ»: اسم لبني آدم[٢]، وأنا وأنت منهم، وإنما نحن مربوبون لـ **«رَبِّ»** **خلقنا أول مرة** وربانا ودبر أمرنا ليصلحنا، ومملوكون لـ **«مَلِكِ»** **يتصرف بنا في كل آنٍ كما يشاء** وله السلطان التام علينا، وعباد لـ **«إِلَهِ»** **لا إله إلا هو، إليه معادنا الأخير**، لا ينبغي أن نحب أو نخاف أو نرجو سواه، فهو معبودنا وإلهنا الذي لا نستغني عنه طرفة عين، بل حاجتنا إليه أعظم من حاجتنا إلى الحياة والروح، فمن ذا سواه جدير أن نستعيذ به ونلجأ إليه؟، وأعظم الاستعاذة تكون بمجموع هذه الصفات حتى كأنها صفة واحدة[٣].

---

(١) إن معظم ما ورد في هذا العرض مأخوذ من التفسير البديع للإمام ابن القيم لهذه السورة، في كتابه (بدائع الفوائد)، بتصرف واختصار وإضافات.

(٢) الإنسان سمي إنساناً على الصحيح لأنه من النوس، وهو الحركة المتتابعة، فسمي الناس ناساً للحركة الظاهرة والباطنة، كما سمي الرجل حارثاً وهماماً، وهما أصدق الأسماء كما ورد عن النبي ﷺ، وأصل ناس: نوس، تحركت الواو وقبلها فتحة فصارت ألفاً.

(٣) كرر سبحانه الاسم الظاهر ولم يقل (رب الناس وملكهم وإلههم)، فأعاد ذكرهم عند=

فتقول: ألتجئ وأعتصم برب الناس الذي منه بدأ أمرهم جميعاً، الملك الذي بيده كل آنٍ سلطان التصرف فيهم جميعاً، الإله الذي إليه تتوجه قلوبهم وإليه ينتهي أمرهم جميعاً.

﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾:

وإنما تطلب العصمة من الله ليدفع عنك شر الشيطان المتمرد على ربه، وإيحاءاته الخفية لنفسك بالشر، لينخنس ويتوارى شره، فـ «**الوسوسة**»: الإلقاء الخفي في النفس، إما بصوت خفي لا يسمعه إلا من أُلقي إليه[1]، وإما بغير صوت كما يوسوس الشيطان الوسواس[2] إلى العبد.

وتكرير اللفظ (وَس ـ وَس) يُفهم منه تكرير مسمّاه، فالموسوس لما كان يكرر وسوسته ويتابعها قيل: وسوس، ونظير ذلك «زلزل»؛ لأن الزلزلة حركة متكررة، و«**الوسوسة**» أعظم صفات الشيطان وأشدها شراً وأقواها تأثيراً، فإن القلب يكون فارغاً من الشر والمعصية **فيوسوس** إليه، ويخطر الذنب بباله فيصوره لنفسه ويمنيه ويشهيه **فيصير شهوة**، ويزينها له ويحسنها ويخيلها له في

= كل اسم من أسمائه، وفيه مزيد تشريف لهم، وهم من خير المخلوقات وأفضلها.

(١) الوسواس فعلال من وسوس، وأصل الوسوسة **الصوت الخفي** الذي لا يُحَسُّ فيُحترز منه، ومن هذا وسوسة الحلى، وهو حركته الخفية في الأذن.

(٢) إن «وسواس» وصفٌ خلافاً لمن ادعى أنه مصدر، ويدلُّ عليه أنه وصفه بما يستحيل أن يكون مصدراً، بل هو متعين الوصفية وهو: الخناس، فالوسواس الخناس وصفان لموصوف محذوف وهو الشيطان، ولو أريد المصدر لأتى بـ (ذو) المضافة إليه؛ ليزول اللبس وتتعين المصدرية، فتعين أن الوسواس هو الشيطان نفسه، وأنه ذات لا مصدر. والله أعلم.

خيال تميل نفسه إليه فيصير إرادة، ثم لا يزال يخيل ويمني ويشهي وينسي علمه بضررها فلا يرى إلا صورة المعصية والتذاذه بها فقط، وينسى ما وراء ذلك فتصير الإرادة عزيمة جازمة، فيشتد الحرص عليها من القلب، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾[مريم: ٨٣]، أي: تزعجهم إلى المعاصي إزعاجاً، وكلما فتروا أزعجتهم الشياطين وأزَّتهم وأثارتهم، فلا تزال بالعبد حتى تقوده إلى الذنب.

و«الْخَنَّاسِ» وصف ثانٍ للشيطان، وهو (فَعَّال) من (خنس ـ يخنس) إذا توارى واختفى بعد ظهور، ولهذا وُصفت بها الكواكب في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ﴾[التكوير: ١٥]، وأصل الخنوس الرجوع إلى وراء، و«الْخَنَّاسِ» مأخوذ من هذين المعنيين فهو من تكرار الاختفاء والرجوع بعد الظهور، فإن العبد إذا غفل عن ذكر الله جثم على قلبه الشيطان وبذر فيه أنواع الوساوس التي هي أصل الذنوب كلها، فإذا ذكر العبد ربه واستعاذ به: انخنس وانقبض كما ينخنس الشيء ليتوارى، وكلما غفل العبد عاوده بالوسوسة.

وقوله: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾، صفة ثالثة للشيطان، فذكر وسوسته أولاً، وطبيعته ثانياً، ثم ذكر محلها ثالثاً، وأنها في صدور الناس، وقد جعل الله للشيطان نفوذاً إلى قلب العبد وصدره فهو يجري منه مجرى الدم كما ورد في الصحيحين[1]، وقد وُكل به فلا يفارقه إلى الممات.

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الاعتكاف، باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه، برقم ١٩٣٣، (٢/ ٧١٧)، وصحيح مسلم: كتاب السلام، باب بيان أنه يستحب لمن رئي خالياً بامرأة... أن يقول هذه فلانة، برقم ٢١٧٤، (٤/ ١٧١٢).

وقوله ﴿فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾: ولم يقل في قلوبهم؛ لأن الصدر هو ساحة القلب وبيته، وهو محيط به، فتجتمع الواردات في الصدر، ثم تلج في القلب، فهو بمنزلة الدهليز له، فكأن وسوسة الشيطان تأتي القلب من كل جانب وتحيط به؛ **ولذا كانت الاستعاذة بصفات ثلاث عظمى لخالق السماء**، من أوصاف ثلاثة للشيطان، **تصنع شراً واحداً داخل النفس الواحدة، هو أصل كل شر في العالم.**

﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾:

وقوله: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ بيان للذي يوسوس، وأنهم نوعان: إنس وجن[1]، فالجني يوسوس في صدور الإنس، والإنسي أيضاً يوسوس إلى الإنسي؛ فإن الوسوسة هي الإلقاء الخفي في القلب، وهذا مشترك بينهما، وإن كان إلقاء الإنسي ووسوسته إنما هي بواسطة الأذن، والجني لا يحتاج إلى تلك الواسطة؛ لأن وسوسته في الصدر[2]، **وتدل الآية على الاستعاذة من شر نوعي الشياطين، شياطين الإنس والجن.**

إن هذا الموسوس الخانس قد يكون جنياً مستتراً يراك هو وقبيله من حيث لا تراه، وقد يكون إنساناً مدَّعياً لمودتك قريباً منك، ينفث وساوسه بتزيينه المعصية والشر، وهذا ديدن أهل المعاصي، تراهم يبذلون جهداً عجيباً

(١) يرد في القرآن استعمال لفظ الجن في مقابل الإنس، والجنة في مقابل الناس، والجان في مقابل الإنسان (التفسير البياني: ١/ ٥٥).

(٢) ومثل اشتراكهما في هذه الوسوسة اشتراكهما في الوحي الشيطاني، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾[الأنعام: ١١٢].

لجذب الآخرين إلى معاصيهم، ولهذا يجعلهم الله مشتركين من بعد في العذاب: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الصافات: ٣٣].

اللهم إنا بك نستعيذ من كل ألم أو سبب إلى ألم، يكون بما يوحي به في خفاء شيطان جني أو إنسي، في صدورنا، ولا يمنعه أحد ـ فيكف عنا ويخنس ويختفي ـ إلا أنت يا رب.

*** مراتب الوسوسة[١]:**

«إن كل شر في العالم أصله من وسوسة الشيطان، وأصل شره ينحصر في ستة أجناس لا يزال بابن آدم حتى ينال منه واحداً منها أو أكثر.

الشر الأول: شر **الكفر والشرك** ومعاداة الله ورسوله، وهو أول ما يريد من العبد، فلا يزال به حتى يناله منه، فإذا نال ذلك صيره من جنده، واستنابه على أمثاله وأشكاله فصار من دعاة إبليس ونوابه.

والمرتبة الثانية من الشر: وهي **البدعة**، وهي أحب إليه من الفسوق والمعاصي؛ لأن ضررها في نفس الدين، وهو ضرر متعدٍّ، وهي ذنب لا يتاب منه، فإذا نال منه البدعة وجعله من أهلها بقي أيضاً نائبه وداعياً من دعاته، فإن أعجزه من هذه المرتبة نقله إلى:

المرتبة الثالثة: من الشر وهي **الكبائر** على اختلاف أنواعها، فهو أشد حرصاً على أن يوقعه فيها، فإن عجز الشيطان عن هذه المرتبة نقله إلى:

المرتبة الرابعة: وهي **الصغائر التي إذا اجتمعت** فربما أهلكت صاحبها

---

(١) نقلاً عن (بدائع الفوائد) لابن قيم الجوزية رحمه الله.

كما قال النبي ﷺ: «إياكم ومحقَّرات الذنوب»، فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة نقله إلى:

المرتبة الخامسة: وهي **إشغاله بالمباحات** عن الواجبات، فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة وكان حافظاً لوقته، شحيحاً به، يعلم مقدار أنفاسه وانقطاعها، نقله إلى:

المرتبة السادسة: وهو أن يشغله **بالعمل المفضول عما هو أفضل منه**، ليزيح عنه الفضيلة ويفوته ثواب العمل الفاضل».

«فإذا أعجز العبد الشيطان من هذه المراتب الست، وأعيا عليه، سلط عليه حزبه من الإنس والجن بأنواع الأذى والتحذير منه، وقصد إنهاكه وإتعابه ليشوش عليه قلبه، ويشغل فكره، وليمنع الناس من الانتفاع به، ويبقى سعي الشيطان في تسليط المبطلين عليه لا يفتر ولا يتوقف، فحينئذ يلبس المؤمن لامة الحرب، ولا يضعها عنه إلى الموت، ومتى وضعها وقع أسيراً أو أصيب في تلك الفتن، فلا يزال في جهادٍ حتى يلقى الله!».

*** خاتمة:**

اعلم أن كل ما تخافه وتحذره من قوى في الأرض مشهودة أو غيبية، فإن شرها لا يوازن بالشر الأعظم الذي يجدر بك التحصن منه، وهو شرٌّ من أدقِّ ما يكون خفاءً، وأعظم ما يكون أذىً؛ إذ يأتيك من داخل نفسك، ومن موضع بصيرة قلبك، بإلهامات خفية تحيط الصدور وتغلف القلوب، حتى لا تعود تميز حقاً ولا باطلاً، وتضيع معها أمانة الوجود، وتضيع أنت بلا حدود، ولا ملجأ لك منها إلا الحصن الأعظم: **(حصن الله)، فمن الله كان البدء، وإليه**

المنتهى، وبيده السلطان على ما في الصدور، ومنه وحده العصمة من هذا الشر، وهو الذي أنزل على خلقه هذا القرآن العظيم، ليعلم خلقه اللجوء إليه.

وبعد: فليس للقرآن خاتمة، وإنما له «أمٌّ للكتاب»، تدور معها روحك وأنت تتلوه في فلك نورٍ من الله، لا تنفد معاني كلماته ولو جئنا بملء الأرض عقولاً وبملء البحر مداداً، وكما تدور الكواكب في أفلاكها، والأرض حول شمسها التي منها تستمد النور، وتعود بعد كل دورة لتبدأ من جديد، فإن قلبك يا من ذقت نور القرآن حالٌّ مرتحل طول العمر، وحالَ أن يذوق حلاوة اللجوء إلى «**حصن الله**» رب الفلق والناس، تراه يرتحل إلى ربه بـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الفاتحة: ٢]، سائلاً إياه أن: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[الفاتحة: ٦]، فيأتيه الجواب من ربه وملكه وإلهه أن: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[البقرة: ٢]، فيشرق على قلبه نور جديد!.

❒ ❒ ❒

خَاتِمَة
فِي عِلْمِ ٱلوحدَةِ ٱلمَوضُوعيَّةِ لِلْقُرْآنِ ٱلعظِيْمِ

(ٱلسُّوَر ٩٩ - ١١٤)

خاتمة
في علم الوحدة الموضوعية للقرآن العظيم

(السور ٩٩ - ١١٤)

بعد بيان **الحجـة على الأمم** في السورة التي تُذكر فيها **البينة**: (٩٨)، ودعوتهم لتشييد الحياة في الأرض وفق ما يريده إله الكون من منهج إخلاص الدين لله، تتحدث السورة التي تُذكر فيها **الزلزلة**: (٩٩) عن «**ما بعد الاستخلاف في الأرض**»، وزوال الأمم جميعاً وآثارهم من على الأرض، وحساب كل فرد على كل عمل أدّاه في لحظة، ولو بقدر أصغر شيء أو أدق خاطرة، في الخير وفي الشر، فيراه خيراً أو شراً يوم صدور الناس لرؤية أعمالهم.

ومع دقة الجزاء وتفاوت الناس في الخير والشر، فإن حقيقة الأمر أنه مهما عمل الإنسان فإنه لن يؤدي حق الله العظيم، فلا وزن بين «**حق الله... وأفعال العباد**»، كما تبينه السـورة التي تُذكر فيها **العاديات**: (١٠٠)، مهما كان ذلك العمل عظيماً، ولكن هذا لا يقلل من جـدارة الاستزادة من صالح العمل لتثقل موازين الخير التي يرتقي بها العبد في الدرجات، فللعمل الإنساني قيمة عظيمة في الكون، ترفع قدر الإنسان يوم لقاء ربه رغم زوال الكون وزوال آثار تلك الأعمال، وهذا هو «**قدر أعمال العباد**» الذي تحكيه السورة التي تُذكر فيها **القارعة**: (١٠١)، حين يتفرق الناس أفراداً للحساب وتتفرق الجبال أجزاءً استجابة لأمـر الله، فينـدم العباد الذين خفَّت موازينهم بما ألهاهم التكاثر، وبما نسـوه من «**مسؤولية النعمة**» التي تحكي عنها السـورة التي يُذكـر فيها

التكاثر: (١٠٢)، وهو حال عموم الناس الذين ما أدّوا حق «**أمانة الوجود**» التي استودعها الله كل إنسان كما عرَّفتها السورة التي يُذكر فيها **العصر**: (١٠٣).

وهي أمانة ثقلت عن حملها الأرض والسماء، تعطي الإنسان قدرات يغيِّر بها الأرض، وهو موعود بـ «ويل» شديد إن طغى في استخدام تلك القوى وتجاوز حده مع نظرائه من الخلق ظلماً، ومع ما استُخلف فيه من الجمادات إفساداً، ومع ربه شركاً وجحوداً، مما يبينه «**وعيد الطغيان**» الذي ورد في السورة التي يُذكر فيها **الهُمزة**: (١٠٤)، ذلك الطغيان الذي يجازى به الفرد جزاءً من جنس عمله، كما تجازى الأمم الطاغية جزاءً من جنس عملها، بإضلال تدبيرهم وإتيانهم بتدبير من حيث لا يحتسبون وعقوبتهم بشدة واستئصالهم من الأرض «**حين تطغى الأمم**» كما تبين ذلك السورة التي يُذكر فيها **الفيل**: (١٠٥).

وإنما واجب الأمم جميعها عبادة ربها الواحد، شكراً له على ما يؤتيها من نعمٍ في أمنها الاقتصادي والاجتماعي، لتدوم عليها تلك النعم، وهو الذي جعل لها بيته الحرام في الأرض آية شاهدة على مر العصور، كما تبينه السورة التي تُذكر فيها **قريش**: (١٠٦)، حين تتحدث عن ما «**بين الأمم والنعم**»، وإن خير الأمم أداءً لحق الله أشدها عبادة له، وهي هذه الأمة التي اختارها ربها لتكون «**الأمة الشاهدة**» على الأمم التي تحكي عنها السورة التي يُذكر فيها **الماعون**: (١٠٧)، بما أوتيت من روح تضامن اجتماعي مع الخلق بلا حدود، ابتغاء وجه الله، وإنما ذلك كله من ثمرات انتمائها لكلمة التوحيد الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، فوعدها ربها بعطاء من «**الكوثر**» الذي لا حدود له في السورة التي يُذكر فيها **الكوثر**: (١٠٨)، تناله بما تقدمه من الدعوة إلى

الكلمة الطيبة، والجهر بالحق وإعلانها المفاصلة بين الحق والباطل مهما كلفها ذلك من شنآن أهل الباطل، ولذلك فلتعلن هويتها بقوة بـ **«الإخلاص»** لله، وإعلان البراءة من الشرك، وهو التوحيد العملي المطلوب الذي تبينه السورة التي يُذكر فيها **الكافرون**: (١٠٩)، ولا تخش في الله شيئاً، فإنَّ نصر الله حتم لازم، فلا تحمل همَّ النصر، وإنما همَّ **«ما بعد النصر»**، الذي تبينه السورة التي يُذكر فيها **النصر**: (١١٠)، ولتجتهد حباً لله وتسبيحاً بحمده، وخوفاً له يدفع لاستغفاره، ورجاءً بلا حد لأنه تواب على العباد.

وأما **«حصاد أعداء الحق»** فهو التباب المطلق لكل ما عملوا، الذي تعرفه السورة التي يُذكر فيها **المسد**: (١١١)، فلا يعود لعدوِّ الحق نفع لنفسه ولا لغيره، وهو مع أعوانه سيُجزون جزاءً من جنس عملهم، وهذا من شأن ربك وربهم معهم.

فلا يكن أكبر همك النصر أو الهزيمة، وإنما فلتعتصم برب هو غايتك العظمى، وهو واهبك وواهب الكل وجودهم؛ لأنه وحده الأحد الصمد، فاجتهد في **«الإخلاص»** له بجمع قلبك على توحيده كما تُعلِّمك السورة التي يُذكر فيها **الصمد**: (١١٢)، التي اختصت بوصفه دون أي ذكر لنصر أو خسران في الدنيا أو في الآخرة؛ لأن الله هو غاية الغايات، ومَنْ فقده فقد كل شيء، فالتجئ إليه وحده ليعصمك من كل شر مشهود أو غيبي، وكن في **«حصن الله»** من كل شر، الذي تهبك إياه السورة التي يُذكر فيها **الفلق**: (١١٣)، واعلم أن كل ما تخافه وتحذره من قوى في الأرض مشهودة أو غيبية، فإن شرها لا يوازن بالشر الأعظم الذي يجدر بك التحصن منه، والذي يأتيك من همس خفي من داخل نفسك، وفي موضع بصيرة قلبك، ولا ملجأ لك منه

إلا الحصن الأعظم: «حصن الله»، الذي تدلك عليه السورة التي يُذكر فيها **الناس: (١١٤)**، فالله هو رب الناس الذي منه بدأ أمرهم، وملكهم الذي بيده وحده السلطان في كل آنٍ على أدق مكونات وجودهم وما في صدورهم، وهو إلههم الذي إليه منتهاهم ومرجعهم، وهو الذي أنـزل على خلقه هذا القرآن العظيم، وعلَّمهم ما لم يكونوا يعلمون، وخلقهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، فليحمدوه حق حمده، وليسألوه وحده الهداية إلى صراطه المستقيم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

□ □ □

الملاحق

الملحق رقم (١)

أنموذج للبحث في
الوحدة الموضوعية في إطار المفردة القرآنية

الجَنَّة
دار اللذة الخالصة

الملحق رقم (١)

أنموذج للبحث في (الوحدة الموضوعية في إطار المفردة القرآنية)

الجَنَّة دار اللذة الخالصة

*** الجنة لغةً:**

ورد في التفسير اللغوي[١] أن «جنن»: أصلٌ استُعمل فيما استتر عن الحواس، فـ«الجُنون»: استتار العقل، و«الجِنُّ»: مخلوقات مستترة عن الأعين، و«الجُنَّة»: بضم الجيم الترس الواسع الذي يختفي الرجل وراءه، و«جَنَّ»: عليه الليل، أي: ستره بظلامه، و«الجنان»: القلب المستور عن الحاسة، و«الجنن»: القبر لستره الميت، و«الجَنين»: للطفل المستتر في بطن أمه، و«الجَنَّة»: كل بستان ذي شجر يستر بأشجاره الأرض، واستعمل القرآن لفظ «الجَنَّة» اسماً **لدار اللذة الخالصة التي سترها الله عن إمكان أن يعيها عقل لعظم قدرها**: ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾[السجدة: ١٧]، ولفقه المراد القرآني، يتم استقراء النصوص الواردة في وصفها كافَّةً، كما سترى بعد قليل، وإعادة تصنيفها الموضوعي بالممكن،

---

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس، ومفردات الراغب الأصفهاني، وبصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي.

من أجل تكوين صـورة موحَّـدة، تعين في الكشف عن علاقات المفردة بما حولها، من خلال الوعي بامتدادات مدلولاتها، كما أن ذلك سيؤشر بعضاً من روح السـياق، من خلال معرفة الجزء المحدد من الأوصاف الواردة عن المفردة في السورة المعينة.

*** فقه الجنة في القرآن:**

أولاً ـ قدر الجنة والوعد والبشرى بها:

١ ـ عظمة الجنة وقدرها:

*** الجنة موطننا الأول، ولنا خلقـت ولها خلقنـا:** ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾[البقرة: ٣٥].

*** الجنة خير ما يحصـل عليه إنسان في مآله الأخير:** ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٦].

*** وحياتنا فيها هي الحياة الحقيقية:** ﴿وَمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[العنكبوت: ٦٤].

*** فالجنة رحمة الله:** ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾[الجاثية: ٣٠].

*** وهي نـُزُل خـاص من عند الله:** ﴿لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[آل عمران: ١٩٨].

*** ومن لدن الله:** ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[النساء: ٤٠].

*** وهي تشرف بنسبتها إلى الله:** ﴿وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾[الفجر: ٣٠].

٢ ـ الوعد بالجنة:

* الجنة وعد من الله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[التوبة: ٧٢].

* وهو وعدٌ سيسأل العباد ربهم تحقيقه لهم: ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾[الفرقان: ١٦].

* وهو وعد صادق: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾[الاحقاف: ١٦].

٣ ـ البشرى بالجنة:

* البشرى بالجنة من الله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[التوبة: ٢١ـ٢٢].

* ومن رسوله ﷺ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[البقرة: ٢٥].

ثانياً ـ خصائص الوجود في الجنة:

١ ـ المكان في الجنة ممتد:

* عرض الجنة كعرض السماوات والأرض: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[الحديد: ٢١].

* بل إن السماوات والأرض هما عرضها مهما امتد المكان وتوسع

الوجود: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[آل عمران: ١٣٣].

٢ ـ الزمان في الجنة ممتد، ومعه يستمر نعيم أهل الجنة ولا ينقطع:

* لا يتوقف ولا ينقطع جزاء ربك في الجنة: ﴿فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾[الزيتون: ٦].

* ويدوم فيها العطاء ما دام الوجود: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾[هود: ١٠٨].

* وإنعام ربهم لا ينفك يتجدد عليهم ويجدد حياتهم بنعمة بعد نعمة: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾[الفاتحة: ٧].

* في زمن حاضر ممتد بلا خوف من مستقبل ولا حزن على ماض: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[البقرة: ٣٨].

* ذلك أنها دار المستقر بلا نهاية: ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا﴾[الكهف: ٣].

* ومهما طال العهد فيها فإنه لشدة جمالها ولذتها لا يريد أهلها أن يتحولوا عنها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾[الكهف: ١٠٧ ـ ١٠٨].

٣ ـ مدى درجات الجنة اختص به الله، والتفاضل بينها بلا نهاية، والعلم المطلق بما أخفي فيها غير ممكن:

* لكل إنسان درجته وجنته الخاصة به: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾[الأنعام: ١٣٢].

* وعدد الدرجات التي خلقها الله للعباد في الجنة أكثر من كل ما يكون

في الدنيا من درجات بين الناس، والتفاضل بين كل درجتين من الدرجات أكبر: ﴿ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٢١].

* وهي درجات لا ينتهي عددها: ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٤].

* وفي غرف الجنة نفسها درجات: ﴿ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَعْدَ اللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴾ [الزمر: ٢٠].

* ولا يمكن لعقل أو خيال أن يدرك ما في الجنة من نعيم: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧].

ثالثاً ـ أهل الجنة:

١ ـ أهل الجنة خير بني آدم لأنهم:

* وفوا بعهدهم مع ربهم: ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ١٠].

* فكان ما عند الله خيراً لهم: ﴿ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٨].

* فأفلحوا بما قدموا: ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ٥].

* وفازوا حيث خسر غيرهم: ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۚ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [الحشر: ٢٠].

* فكانوا من المكرَمين: ﴿ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾ [المعارج: ٣٥].

* وشرفوا بنسبتهم إلى ربهم: ﴿ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴾ [الفجر: ٢٩].

٢ ـ الرجل والمرأة سواء في الجزاء، بحسب ما أدى كل منهم من إصلاح في فرصة العمر:

* فكل منهم يدخل الجنة: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[النساء: ١٢٤].

* وكل منهم ينال أجره المستقل بما قدم: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[النحل: ٩٧].

٣ ـ بين الجنة وبين أهلها:

* من أهل الجنة من يساق إليها: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾[الزمر: ٧٣].

* ومنهم من تُقَرَّب إليه الجنة وتزلف له: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠].

* فيراها وهي تقرب إليه: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾[ق: ٣١].

رابعاً ـ أحوال أهل الجنة:

١ ـ السلام في الجنة:

* الجنة دار السلام: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام: ١٢٧].

* وعلى أهل الجنة من ربهم سلام: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾[يس: ٥٨].

* وسلام من خزنة الجنة: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ

﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾[الزمر: ٧٣].

* ولا تنفك الملائكة تسلِّم عليهم: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾[الرعد: ٢٣ ـ ٢٤].

* وهذا السلام يبدأ من لحظة مفارقة الروح أجسادهم في هذه الدنيا: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[النحل: ٣٢].

* وتحيتهم فيما بينهم السلام: ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾[إبراهيم: ٢٣].

* بل إنهم لا يسمعون فيها إلا السلام: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[مريم: ٦٢].

٢ ـ الرضا في الجنة:

* إنه وعد من الله أن يرضي عبده التقي: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾[الليل: ٢١].

* فيرجع إلى ربه فيرضيه ربه ويرضى عنه: ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[الفجر: ٢٨ ـ ٣٠].

* ويدخل الجنة دار الرضا: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾[القارعة: ٧].

* يدخلها عباد الله وقد رضي عنهم ربهم بما قدموا، وهم اليوم راضون عن ربهم في دار الرضا: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾[البينة: ٨].

* ويحيا فيها العبد في ظل رضوان الله: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥].

* وبهذا الرضا يكون دعاؤهم تسبيحاً وحمداً لربهم: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا

سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس: ١٠].

٣ ـ جمال أهل الجنة:

* يجمع الله لأهل الجنة جمال المظهر ونضارته وجمال الروح وسرورها: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١].

فأما جمال وجوه أهل الجنة:

* وجوه أهل الجنة ناعمة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ [الغاشية: ٨ ـ ٩].

* جميلة ناضرة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣].

* بيضاء برحمة الله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٧].

* مسفرة وضاحكة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨ ـ ٣٩].

* ولا يرهقها قتر ولا ذلة: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦].

* تعرف فيها نضرة النعيم: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤].

وأما جمال قلوب أهل الجنة وصدورهم:

* يملأ صدورهم الحبور: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ [الروم: ١٥].

* فاكهين فرحين: ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [الطور: ١٩].

٤ ـ نور أهل الجنة:

* يسعى النور بين أيديهم: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[الحديد: ١٢].

* ويسألون ربهم أن يتم لهم ذلك النور: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[التحريم: ٨].

٥ ـ رفقة أهل الجنة:

* رفقة الجنة طيبة: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

* يدخلها الصالحون ومعهم أهلهم وأحبابهم: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾[الرعد: ٢٣].

* ببركة دعاء الملائكة لهم: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [غافر: ٨].

* فيستجيب الله لهذا الدعـاء ويجعله حقاً: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[الطور: ٢١].

* ولا غلَّ ولا حقد ولا ضغينة بين أهلها: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ

غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الأعراف: ٤٣].

* وحوارهم بينهم بأطيب الكلام: ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾[الحج: ٢٤].

٦ ـ حوار أهل الجنة:

* يتحاور أهل الجنة فيما بينهم: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾[الطور: ٢٥ ـ ٢٨].

* ويتحاورون مع أهل النار والعذاب: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الأعراف: ٤٤].

* ويتساءلون عمَّن عرفوا في الدنيا من أهل النار: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾[الصافات: ٥٠ ـ ٦١].

* ويضحكون من الكفار: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾[المطففين: ٣٤ ـ ٣٥].

* ويتوسل بهم أهل النار ليقتبسوا من نورهم: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾[الحديد: ١٣].

* ويذكّرونهم بما كان من الصحبة في الدنيا لعلها تشفع لهم: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾[الحديد: ١٤].

* وينادونهم ليفيضوا عليهم مما عندهم، ولكن ليس إلى ذلك من سبيل: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[الأعراف: ٥٠].

٧ ـ مشيئة أهل الجنة:

* مشيئتهم مطلقة لأن يريدوا ما يريدون أو ما يدَّعون وما يطلبون، فيكون لهم بإذن ربهم: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾[النحل: ٣١].

* بل يكفيهم مجرد الاشتهاء ليكون لهم ما يشتهون: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾[فصلت: ٣١ ـ ٣٢].

* وفوق ما يشاؤون: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[ق: ٣٥].

خامساً ـ بعض من صور النعيم:

الجنة: دار اللذة الخالصة، أعدها خالق عظيم لا تنفد كلماته الكونية التي بها يخلق ما يشاء كما يشاء، ولا تعلم نفس ما أخفى الله لعباده في الجنة من قرة أعين جزاء صالح أعمالهم؛ لأنه مما لا عين رأت ولا أذن سمعت

ولا خطر على قلب بشر، فليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء، وكل ما يحكي عنه القرآن مما ستراه هنا من صور للنعيم إنما هو للتقريب إلى ما عهدناه من مألوفاتنا في الدنيا: ﴿وَأُتُوا بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾[البقرة: ٢٥]، ومن أجل التشويق إلى العمل من أجل الوصول إليها، وهي موطننا الأول، عساها أن تكون مستقرنا ومركبنا الأخير.

١ ـ مساكن أهل الجنة:

* مساكن أهل الجنة طيبة: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾[الصف: ١٢].

* مقامهم فيها أمين لا خوف فيه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ [الدخان: ٥١].

* ومكانهم عالٍ: ﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾[الحاقة: ٢٢].

* في غرف لا حدّ لكمال بنائها الرباني: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾[الزمر: ٢٠].

* فيها حدائق من كل نوع: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾[النبأ: ٣٢].

* ذات أفنان: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾[الرحمن: ٤٨].

* كثيفة ومدهامة: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾[الرحمن: ٦٤].

* طيبة وجميلة: ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾[الواقعة: ٢٨ ـ ٢٩].

* تجري الأنهار من تحتها: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[البقرة: ٢٥].

* وهذه الأنهار من كل لون ونوع: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾[محمد: ١٥].

* وفيها عيون من كل لون: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾[الذاريات: ١٥].

* ومن هذه العيون ما هو جارٍ: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾[الرحمن: ٥٠].

* ومنها ما هو نضاخ: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾[الرحمن: ٦٦].

* ومنها ما هو متفجر: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٦].

* مجالسهم فيها طيبة متقابلين: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾[الصافات: ٤٤].

* وهذه السرر مرفوعة وعالية: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾[الغاشية: ١٣].

* وهذه السرر مصفوفة: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾[الطور: ٢٠].

* ومنسوجة موضونة: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ﴾ [الواقعة: ١٥ ـ ١٦].

* وهذه السرر مترفة بطانتها من حرير فكيف بوجهها: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾[الرحمن: ٥٤].

* ومنها ما هو أرقى وأشد حسناً: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ﴾[الرحمن: ٧٦].

* والسرر محوطة بالفرش: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ﴾[الغاشية: ١٥ ـ ١٦].

* يحفها من حولهم خدم محفوظون عن خدمة من سواهم: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾[الطور: ٢٤].

* يطوفون عليهم بأجمل آنية لأطيب طعام: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾[الإنسان: ١٥ ـ ١٦].

* وهؤلاء الخدم مخلَّدون لا يتعبون ولا يموتون وأشكالهم جميلة متنوعة: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾[الإنسان: ١٩].

* هم فيها مسترخون في ظلال طيبة: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾[يس: ٥٦].

* وهذه الظلال الطيبة ظليلة: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾[النساء: ٥٧].

* لأنها ممتدة: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾[الواقعة: ٣٠].

* لا يذوقون فيها حراً ولا قرّاً: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾[الإنسان: ١٣ ـ ١٤].

٢ ـ زوجات وأزواج أهل الجنة:

* يدخل أهل الجنة جنتهم مع أزواجهم فرحين: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾[الزخرف: ٧٠].

* ويجتمعون في ظلالها: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ [يس: ٥٦].

* وأزواج الجنة مطهرون: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾[البقرة: ٢٥].

* وجمال الزوجات عظيم ولم يمسسهن أحد قبل أزواجهن: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾[الرحمن: ٥٦ ـ ٥٨].

* قد أعاد الله خلقهن باكرات متحببات لأزواجهن وفي أعمار جميلة متقاربة: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾[الواقعة: ٣٥ ـ ٣٧].

* لهن جمال أخّاذ محفوظ عن الذبول والأفول: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ

ٱللُّؤۡلُوِ ٱلۡمَكۡنُونِ﴾[الواقعة: ٢٢ ـ ٢٣].

* ولطهارة نفوسهن يقصرن أبصارهن ويحفظنها على أزواجهن: ﴿وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ عِينٞ﴾[الصافات: ٤٨].

* وجمال أجسامهن أكمل ما يكون في كل شيء: ﴿وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابٗا﴾ [النبأ: ٣٣].

٣ ـ لباس أهل الجنة:

* لباسهم فيها أرق لباس وأطيبه: ﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾[الحج: ٢٣].

* وهو من كل نوع ولون: ﴿وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ﴾ [الكهف: ٣١].

* وفوق اللباس زينة وحلي تزيدهم جمالاً: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ﴾ [الإنسان: ٢١].

* وتلك الزينة من كل نوع: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗا﴾[الحج: ٢٣].

٤ ـ طعام أهل الجنة:

* في الجنة طعام متنوع مما يشاء أهلها: ﴿لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾[يس: ٥٧].

* بحسب ما يشتهون: ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾[الطور: ٢٢].

* يؤتى به إليهم في خير آنية وأسلوب تقديم: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[الزخرف: ٧١].

* وهو طعام كثير لا ينقص: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٣].

* ولا حدَّ لتنوعه مهما بلغ الخيال: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢].

* ومنه مما ألفوه متشابهاً في الدنيا: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨].

* وينتقون منه ما يحبون: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢٠ ـ ٢١].

* ولا يتوقف مدده ولا يُمنع عنهم: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٢ ـ ٣٣].

* وثمرات الجنة مذللة لهم قريبة وسهلة المنال: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: ١٤].

* منها ما يُقطف كما تُقطف الثمر الحلو: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٢٣].

* أو تُخضد وتُقطع خضراء رطبة حين يريدون: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ [الواقعة: ٢٨].

* أويجنون ثمرها وتتجدد ولا ينفك جناها متغيراً كأنه ذو مواسم: ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمن: ٥٤].

٥ ـ شراب أهل الجنة:

* يشربون من ماء الحياة الذي لا ظمأ بعده: ماء الكوثر: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَٰكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١].

* ومن عيونٍ يفجرونها تفجيراً: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾[الإنسان: ٦].

* ومن أطيب شراب: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٥ ـ ٢٨].

* ومنه خمر طيب لذيذ لا يُذهب العقل مثل خمر الدنيا: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾[الطور: ٢٣].

* وغيره من شراب متوفر كثير: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾[النبأ: ٣٤].

* يؤتى إليهم بأجمل شكل: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾[الصافات: ٤٥ ـ ٤٦].

* فمنهم من يشرب بنفسه: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾[الإنسان: ٥ ـ ٦].

* ومنهم من يسقى ويُخدم: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾[الإنسان: ١٧ ـ ١٨].

* ومنهم من ينسب سقيه إلى ربه: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾[الإنسان: ٢١ ـ ٢٢].

سادساً ـ لقاء الله في الجنة:

إنك «واحد فريد» من نوعك، لم يُخلق مثلك، وسعيك في هذه الحياة قائدك حتماً في يوم قادم إلى لقاء «الواحد الأحد»، كما حدَّثك النبي ﷺ:

«ما منكم من أحد إلا سيكلِّمه ربُّه ليس بينه وبينه ترجمان»[١]:

*** من غفل عن الاستعداد للقاء الله فإن أعظم عقوبته حجبه عن رؤية ربه**: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[المطففين: ١٥].

*** وأعظم نعمة لمن قضى العمر يُعِدُّ نفسه لهذا اللقاء هي أن يرى ربه**: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[القيامة: ٢٢ ـ ٢٣].

❐ ❐ ❐

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ برقم (٧٠٠٥)، ٦/ ٢٧٠٩.

الملحق رقم (٢)

أنموذج للبحث في
(الوحدة الموضوعية في إطار المفهوم القرآني)

مفهوم العلم والإرادة

الملحق رقم (٢)

أنموذج للبحث في (الوحدة الموضوعية في إطار المفهوم القرآني)

مفهوم «العلم والإرادة»

* مقدمة:

تتكرر «إذ» الظرفية مرتين في الموضع الأول للتعريف بقصة خلق الإنسان في القرآن، وذلك في الآيات (٣٠ ـ ٣٩) من السورة التي تُذكر فيها البقرة، لتقسم القصة إلى قسمين، يؤكد كل واحد منهما واحدة من القدرات الأهم التي اختص بها الله الإنسان، فيبين القسم الأول أن الله تعالى قد آتى الإنسان القدرة على أن يعلم: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾[البقرة: ٣١]، ويبين القسم الثاني أن الله تعالى قد آتى الإنسان القدرة على أن يختار ويريد ـ إذ أمره ونهاه ـ: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾[البقرة: ٣٥]، وهاتان القدرتان هما أعظم ما يختص به الإنسان، وبهما يمكن له تغيير الأرض بإذن ربه؛ لأن ما في السماوات مسخر له من ربه: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾[الجاثية: ١٣]، وانظر القصة كما وردت في السورة:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ

ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾[البقرة: ٣٠ - ٣٣].

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[البقرة: ٣٤ - ٣٩]).

*** بيان المفهوم:**

وعلى هذا: فإنه على قدر اجتهاد الإنسان ومكابدته في استثمار ما خصَّه ربه به من قدرة على أن «**يعلم**»، وقدرة على أن «يختار» و«**يعمل**»، فيبذل أقصى وسعه في طلب العلم بالحق في فرصة العمر واختيار العمل للحق: يكون من المرضيين **المنعم عليهم** عند ربهم، وإلا كان من **المغضوب عليهم** إن علم الحق ولم يعمل به، أو من التائهين **الضالين** إن قضى العمر عاملاً وغير عالم بمراد ربه.

وإن هبة وجوده بهذه الخصائص أمانة صعب على غيره حملها: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ **ظَلُومًا جَهُولًا** ﴾[الأحزاب: ٧٢]، وإنما كان **ظلوماً لأنه لم يختر أن يعمل بما يعلم** من الحق، **وجهولاً** لأنه **يعمل بلا علم**، وهذان هما مدخل

الشيطان إلى الإنسان: (الشهوات والشبهات)، فهو إما يدخل إليه **بشهوة** مُذلة تمنعه من اختيار العمل بما يعلم، أو يدخل إليه **بشبهة** مضلة تمنعه أصل العلم.

وهكذا فكل فعل إنساني في الأرض يقاس صلاحه بمدى صلاحية فاعله **علماً وعملاً**، وانظر فيما يلي كيف يتأكد هذا المفهوم القرآني:

* إن المستثنى من مطلق خسران الناس يوم القيامة هم فقط من **علم الحق** وآمن به، **وعمل صالحاً بما علم**: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[العصر: ١ ـ ٣].

وإن ضعف الصالحين كامن في إمكان **نسيان الحق بعد العلم**، أو **تضعضع العزم عن العمل**: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا﴾[طه: ١١٥]، فيستثنى من الخسران المطلق من أكمل قدرته **العلمية بالتواصي بالحق** دفعاً لكل نسيان، وأكمل قدرته **العملية بالصبر** على مشقة العمل بالحق دفعاً لتضعضع العزم: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾[العصر: ٣].

* بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾[السجدة: ٢٤]، فبالصبر على الشهوات واليقين دون الشبهات تُنال الإمامة في الدين.

* كان سيد الناس ﷺ أكثرهم عملاً بما يعلم، حتى جعل الله تمام لزومه ﷺ الحق علماً وعملاً: **بلا ضلال عن العلم** به، **ولا غيٍّ بالعمل بنقيضه**، أعظم من لزوم نظام الكون مكانه في موضعه في الوجود، فقال: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾[النجم: ١ ـ ٢].

* وجعل الله **الإيمان** بما جاء به محمد ﷺ من **علم**، **والعمل به نصرة**

له: **عهداً مأخوذاً على الأولين والآخرين** من أنبياء بني آدم وأتباعهم إلى يوم الدين: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[آل عمران: ٨١].

ولتحقيق هذا العهد أنزل كتاباً هادياً يعلمهم الحق، كما أنزل الحديد، وبه يستعان لبناء القوة لنصرة الحق: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[الحديد: ٢٥]، فجعل **قوام الدين بكتابٍ يهدي للعلم بالحق، وسيفٍ ينصر عملياً هذا الحق**، وبهما ينهض بالعهد كل من اتبع المرسلين إيماناً بمحمد ﷺ ونصرة له.

* اختص الله صفوة خلقه بالقوة العملية، والبصيرة العلمية، وبهما كمال صفاتهم: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾[ص: ٤٥].

* خير من يؤدي عملاً القوي الأمين: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾[القصص: ٢٦]، فالقوة ضد ضعف الارتكان للشهوات، والأمانة ضد خلخلة الشبهات.

* كان رسول الله ﷺ يفتتح النهار في ركعتي سنة الفجر القبلية بقراءة سورتي الإخلاص: (قل يا أيها الكافرون، وقل هو الله أحد)، ويفتتح بهما الليل في ركعتي سنة المغرب البعدية، **لتكونا مفتاح العمر القادم لمن أسلم وجهه لرب العالمين**، حيث إن السورة التي يُذكر فيها الصمد قد تمحضت للتوحيد العلمي، وإثبات الأحدية لله: الإله المعبود، المتضمن إثبات الكمال لله وتنزيهه

عما لا يليق به، فيما تشتمل السورة التي يُذكر فيها الكافرون على توحيد «**الإرادة والعمل**»، بإعلان أن لا يعبد إلا إياه، ولا يشرك به في عبادته سواه، فانتظمت السورتان نوعي التوحيد، وأخلصتا له، وبهما يكتمل توجه العبد لربه في يومه وليلته.

* إن العلم يسبق العمل، وهو شرط صحته، وبهما كمال العبد: ﴿ **فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ** ﴾[محمد: ١٩].

* كلمة الله انتظمت صدقاً وعدلاً: ﴿ **وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ** ﴾[الأنعام: ١١٥]، **وصدقها** في الخبر المفيد **للعلم** بالحق، **وعدلها** في الحكم الفصل على الصالح والفاسد من **عمل** الخلق.

* في سورتين متتابعتين جعل الله شرط فلاح الأمة مرتبطاً بالتزام منهج **العمل** الجماعي المنضبط: (السورة التي يُذكر فيها الصف)، ثم التلقي الجماعي المنضبط **للعلم**: (السورة التي تُذكر فيها الجمعة).

* في وصف الأعراض الظاهرة لمرض القلوب عند المنافقين في آيتين متتابعتين من أوائل السورة التي تُذكر فيها البقرة، وصفهم بقبح العمل، وجحود العلم الحق، فقال: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ** ﴾[البقرة: ١١ ـ ١٣].

* وصف الله بني إسرائيل بقبح العمل رغم شدة الميثاق الذي أخذه

عليهم عندما أعلمهم بالحق، وانظر وصف صورة **تلقِّيهم** للعلم بعهد الله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة: ٦٣]، ولكن كانت الثمرة العملية: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾[البقرة: ٦٤]، حيث اشتد قبح عملهم بالتحايل على الحق: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[البقرة: ٦٥]، وبه استحقوا أشد العقاب: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[البقرة: ٦٦].

وهذا في القرآن مبثوث كثير، يشكِّل أساساً لفقه كثير من مناسبات الآيات، وهو كغيره من مفاهيم القرآن المستخلصة من البحث في «التفسير الموضوعي في إطار المفهوم القرآني»، يقود إلى توحيد فهم المصطلح، وإلى إعطاء إشارات مهمة على طريق استخراج وفهم سياق الآيات في السورة، أو سياق ورود مفردات لمفاهيم معينة في الآية أو الجملة القرآنية.

❑ ❑ ❑

الملحق رقم (٣)

أنموذج للبحث في
فقه الدلالة الاعتبارية لنماذج الأنبياء والصالحين
الواردة في السور القرآنية

«في حُبِّ الله»
خليل الله إبراهيم عليه السلام في القرآن

الملحق رقم (٣)

أنموذج للبحث في فقه الدلالة الاعتبارية لنماذج الأنبياء والصالحين الواردة في السور القرآنية

«في حُبِّ الله»
(خليل الله إبراهيم عليه السلام في القرآن)(١)

* مقدمة:

ليس في تاريخ الناس ـ قبل إبراهيم ـ حُـبٌّ كحب إبراهيم الذي ملأ نفسه، وأوقفه مواقف في العمر ليس كمثلها مواقف في عمر أحد قبله، ما تردد فيها بأن يضحي في سبيل هذا الحب العظيم بما لم يُضحِّ به أحد قبله: حتى تبرأ من **أصله** (باعتزال أبيه وقومه)، وضحّى **بفرعه** (بالتسليم لأمر ذبح ابنه)، ولم يدخر حتى **نفسه** (حتى رضي بأن يلقى في النار)، فتقطعت منه كل العلائق مع كل الخلائق بما فيها نفسه، وما بقي لشيء في نفسه ـ سوى الله ـ من شيء، إرضاءً لهذا الرب الذي يحبه!

عجيبٌ شأن هذا الحب من عبدٍ لربه، وأعجب منه حب الرب لعبده، وهذا هو مقصود هذا البحث في **فن الحب**، إذ يستعرض ذكر الله لهذا العبد

---

(١) تتبع هذا البحث الصغير مواضع ذكر إبراهيم عليه السلام حيثما وردت في كتاب الله، ثم يوردها في سياق التعرف على منهج هذا النبي في حُبِّه لربه، والتعريف بحب الله لهذا العبد.

الحبيب حيثما ورد في كلمات خالق السماء والأرض، ليعيش القلب فيها ساعة يتذوق **جمال العبودية والحب لربنا الجميل، وجمال الألوهية في حب الرب لعبده الجميل**، لعل الله بحبنا لهذا العبد أن يحشرنا مع من نحب.

١ - في الطريق إلى الله:

لئن كانت ولادة يحيى عليه السلام من أب قد بلغ من الكبر عتياً ومن أم عاقر «معجزة»، وإن كانت ولادة عيسى ابن مريم من أم بلا أب «معجزة أعظم» منها، **فإن ولادة قلب إبراهيم الحي من بين القلوب الميتة هي «المعجزة العظمى»**[١]؛ إذ حياة القلوب أعظم من حياة الأبدان: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وإن عَمَه بصائر القلوب أشد من عمى الأبصار: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقد بارك الله تعالى الدنيا بولادة هذا القلب العظيم، حتى تغير بعده تاريخ الدنيا!

كان موت القلوب وذهولها عن الله العظيم قد عمَّ الناس زمن بعث إبراهيم، وكان **عامة** موتى القلوب هؤلاء يعبدون **تماثيل** على هيئة **أصنامٍ** لرجال صالحين يتقربون بشفاعتها إلى الله، أو تكون هذه التماثيل على هيئة **أوثان** لرموز معينة يقدِّسونها ويظنون فيها جلب نفع أو دفع ضر، وأما **خواصهم**

(١) ولعل هذا هو سر ورود ذكر ولادة يحيى بن زكريا عليهما السلام في السورة التي تُذكر فيها مريم قبل ذكر ولادة عيسى ابن مريم عليهما السلام، ثم أعقب ذلك ذكر قصة ولادة إبراهيم النبي الصديق، للتدرج في وصف طلاقة مشيئة الله وقدرته في إخراج الحياة كما يشاء وممن يشاء، كما تبينه هذه المعجزات الثلاث المذكورة حسب قدرها وعظمتها.

وعلماؤهم فكانوا يقدسون قوى المادة والكون الكامنة في **النجوم**، ويتفننون في الكهانة والربط بين مواقعها وبين أقدار الناس، وأما **الكبراء** والسادة من الناس فكانوا يقدسون السلطان المباشر في الأرض، ويعطون لبعض **الملوك** وأهل السلطان المتألهين من التعظيم ما يستخف معه الملوك الناس، ويدَّعون معه ـ وهم بشر كباقي الناس ـ أنهم آلهة يملكون النفع والضر.

وهذه الأنواع الثلاثة هي أصل كل عمى وموت وشرك يصيب القلوب في تاريخ الخلق، فالقلب الذاهل عن ربه تراه متعلقاً إما بصنم يجعله وسيطاً بينه وبين الله، أو يتعلق برمز أو تعويذة يظن بها النفع، أو أنه يتعلق بقوى الكون والمادة، أو تراه متعلقاً بسلطان بعض المتألهين من البشر، وبين تقديس **«الرموز»** و**«النجوم»** و**«بعض المتألهين من البشر»** ضاعت حقيقة الخلق العظمى، ومات في القلوب سر حياتها: حب الله العظيم، ربنا ورب إبراهيم.

ومن بين هذه الظلمات والعمى، آتى الله عبده المختار رشده، واختاره على علمٍ ليكون للناس إماماً: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾[الأنبياء: ٥١]، وبهذا الرشد بدأ هجرته إلى ربه، وبدأ جهاده في تعبيد نفسه والدنيا لتكون على مراد ربه، **وأراد الله فأراده الله**، وكان أول تلك الإرادة تخلية نفسه من أوهام الناس وخرافاتهم، ورفض التسليم لعاداتهم وعادات آبائهم ما دامت في إطار الشرك بالله، وهكذا بدأ إبراهيم الطريق، فقاوم عبادة الأصنام والأوثان، والتعبد للنجوم مع الكهان، وتقديس ذوي الملك والسلطان، وعن جهاده هذا تحدث القرآن:

أولاً ـ الأصنام والأوثان:

مع إيتاء الله إبراهيم رشده، بدأ بأبيه ناصحاً وداعياً، لعله ينتصح ويعود

لرشده، وبرفق جادله: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾[مريم: ٤٢]، وبلطف دعاه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾[مريم: ٤٣]، وبرفق عن الباطل نهاه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾[مريم: ٤٤]، وبرفق بيّن حرصه على هداه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾[مريم: ٤٥]، ثم من دون تورية واجهه بموقفه منه ومن قومه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[الأنعام: ٧٤].

ثم امتدت دعوته بعد أبيه إلى قومه جميعاً: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ۝٧٠ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ [الشعراء: ٦٩ ـ ٧١]، وبدأ جداله معهم: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢]، منكراً عليهم تعلقهم بالتماثيل جميعاً، أوثاناً كانت أم أصناماً، وكما أنكر على أبيه تأليه الأصنام، فقد دعا قومه لعبادة الله ونبذ الأوثان: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١٦ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝١٧ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[العنكبوت: ١٦ ـ ١٨].

وبيّن لهم أن تعاهدهم تأليه هذه الرموز والأوثان أمرٌ يعود لما ألفوه بينهم من المودة فيها، وذلك يعود في الغالب إلى اشتراكهم في المناسبات التي يتعارف أهل الباطل على إحيائها تكريساً لتعلقهم بهذه الرموز، وما يتحقق

لبعضهم فيها من مصالح دنيوية بسبب تكريس الجهل لدى العوام بحقيقة هذه الأوثان: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[العنكبوت: ٢٥].

لقد جعل الله لإبراهيم الحجة البينة على كل مَنْ يقدِّس صنماً لإنسان صالح يتوسط به لشفاعة الله، أو رمزاً يظن فيه الخير مع الله أو من دون الله: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾[الشعراء: ٧٢ ـ ٧٣]، فكان جوابهم ساذجاً إذ: ﴿قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[الشعراء: ٧٤]، والحال أن خالق الناس وخالق كل ما سوى الله: هو الله وحده: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[الصافات: ٩٥ ـ ٩٦].

وبهذه القوة حسم الأمر لصالح التوحيد النقي للرب القريب المجيب، وأعلنها براءةً إلى يوم الدين: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾[الشعراء: ٧٥ ـ ٨٢].

وما كان من حجةٍ لقوم إبراهيم سوى دعوى أن: ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾[الأنبياء: ٥٣]، فكانت هذه الحجة المتهافتة إعلاناً صريحاً لضلالهم: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[الأنبياء: ٥٢]، فما عاد لهم من حجة من بعد سوى مجرد التشكيك بالحق: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾[الأنبياء: ٥٥ ـ ٥٧].

وبعد هذا الوعيد تفرق جمعهم: ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾[الصافات: ٩٠]، فتسلل إبراهيم من ورائهم إلى موضع أصنامهم محاوراً إياها باستهزاء: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾[الصافات: ٩١ ـ ٩٢]، ثم قام بضربها وتحطيمها ليهدم قدسيتها: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾[الصافات: ٩٣].

وهكذا كان حتى حطم كل تلك الأصنام والأوثان المقدسة إلا أكبرها: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾[الأنبياء: ٥٨]، فلما عادوا إلى مجمع أصنامهم ورأوا ما حصل بها: ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ الظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾[الأنبياء: ٥٩ ـ ٦١]، فأسرعوا إلى إبراهيم: ﴿فَأَقْبَلُوٓا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾[الصافات: ٩٤]، ﴿قَالُوٓا ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[الأنبياء: ٦٢ ـ ٦٧]، وما بعد هذا التسفيه من تسفيه لهم ولما كانوا من دون الله يعبدون.

ثانياً ـ التعبد للنجوم مع الكهان:

ومنهج إبراهيم في نزع القدسية عن وهم ارتباط مصائر الناس بحركات الأفلاك كان بهداية ربانية خاصة: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾[الأنعام: ٧٥]، تجرَّد فيها بعد النظر في عظمة الكون إلى تعظيم المكوِّن، وعَلِم وعلَّمَ قومه بالإشارة أن **الكون كله مخلوق صغير لا يستحق التأليه**: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾[الصافات: ٨٨ـ٨٩]، إذ

كيف ترتبط مصائر الناس بأفلاك غير عاقلة، لا تنفك تتغير مواقعها بلا انقطاع، حتى لا يكون نجم أو كوكب في موضعه من الكون مرتين أبداً مدى تاريخ الخلق؟!، وأنه من السفه توهُّم حاكم للكون سوى خالقه: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[الأنعام: ٧٦ ـ ٧٩]، وبهذا تبرأ من كل خرافات الكهان والمنجمين وعبدة الأفلاك، وأعلن أن الكون كله عبد مخلوق لا يملك نفعاً ولا ضراً لعبدٍ مخلوقٍ مثله.

ثالثاً ـ تأليه الملك والسلطان:

كان من الاستخفاف بعقول الناس ويقدر الإنسان أن يتخذ بعض الناس ملكاً أو فرعوناً «إلهاً»، أو ابناً للإله، أو ابناً للشمس!، يعظمونه تعظيم الإله الذي بيده النفع والضر، مع علمهم بأنه يموت بعد حين مثلهم، وهذا من أسخف ما يمكن أن يتقبله وعي إنساني، ولا يكون إلا حين تستخف تلك الملوك والفراعنة عقول الناس، كما حصل مع فرعون مصر: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾[الزخرف: ٥٤]، فادعى الألوهية في تبجحٍ ساذجٍ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾[القصص: ٣٨].

ولهذا المتبجح وأمثاله من مدعي الألوهية، ولأمثال أي إنسان صغير العقل يؤله إنساناً مثله كانت محاجة إبراهيم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠

أُحْيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[البقرة: ٢٥٨]، وليس أشد بهتاناً من مخلوق صغير من طين وماء يدعي ألوهية الأرض والسماء!

وبهذه البراءة من العبودية لغير الله، وإرادة توحيد الانتماء والعبودية لله وحده **وُلد قلب إبراهيم**، واختاره ربه ليقولها بين يدي ربه ومن بعد بين الناس: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[البقرة: ١٣١]، وبهذا وضع قدمه في الطريق حتى صار على أعتاب الوصول بإعلان الإسلام لرب العالمين.

٢ ـ على أعتاب الوصول:

إننا نعبد رباً ليس كمثله شيء وليس مثله في تفرده أحد، لم يلد ولم يكن له فرع، ولم يولد ولا كان له أصل من شيء، وهذا الرب خلقك «متفرداً» ليس مثلك أحد، **وهو يريد أن تكون عبداً له وحده، فلا يكون لشيء سواه في نفسك من شيء.**

وبهذا التوحد وبهذه العبودية تقدَّم إبراهيم بدليل دعواه، ولم يدخر سبيلاً ليبرهن على صدق إسلام وجهه وحبه الأعظم لله رب العالمين، فتبرأ من **أصله** (أبيه وأهله) لما عبدوا غير الله، وضحّى **بفرعه** ـ ولده الأحب إلى قلبه ـ لما أمره ربه، ليكون قلبه كله لربه وحده، وهو من قبل لم يدخر حتى **نفسه** ـ لتحرق بالنار ـ فداءً لبرهان توحيد عبوديته لخالق الوجود، فهل تعلم بعد هذا الحب من حب؟

أولاً ـ التبرؤ من كل نسب وأصل سوى الانتساب إلى الله:

كان من شأن إبراهيم بعد أن أعلن قلبه الحي هويته صريحةً: أنه مسلم

ـ مستسلم بسلام لله وحده ـ، أن بدأ بدعوة أبيه وقومه إلى الحق الذي به حياة كل قلب: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الصافات: ٨٥ ـ ٨٧]، وإنما كان ظن القوم بآلهتهم المزعومة التي تعارفوا عليها والتقوا على مصالحهم المتنوعة في تعظيمها بين العوام ـ تماثيل كانت أم ملوكاً أم نجوماً ـ أعظم من ظنهم بالله رب إبراهيم، فجادلوه وجادلهم: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠ ـ ٨١].

وكان الحق بيّناً، وبه أقام الله الحجة لإبراهيم على قومه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[الأنعام: ٨٢ـ ٨٣].

وبذلك أعلن براءته الصريحة من معبوداتهم كما أعلن إسلامه من قبل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الزخرف: ٢٦ ـ ٢٨].

فأما أبوه فتبرأ منه بما تبرأ إبراهيم من آلهة قومه: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾[مريم: ٤٦]، ولكن موقف إبراهيم كان ثابتاً لا يتزحزح، وقوته من قوة الحق العظيم الذي عرفه منذ عرف نفسه وعرف معها حفاوة ربه به ورعايته له، فردَّ أباه بالأدب النبوي: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾[مريم: ٤٧ ـ ٤٨]، وبهذا جعله الله مع أتباعه للناس جميعاً قدوة وأسوة في التبرؤ ممن يعبد شيئاً سوى الله، ومن كل معبود سوى الله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾[الممتحنة: ٤].

وفي الحق: إن استغفار إبراهيم لأبيه كان على عهد سابق منه بأن يستغفر له، نكثه الأب بعداوته لله حتى موته: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾[التوبة: ١١٤]، وأما قومه فلم يكونوا بدعاً من أمثالهم من موتى القلوب الذين ظلموا أنفسهم واجتالتهم الشياطين: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[التوبة: ٧٠].

ثانياً ـ فداء الحق بالنفس في سبيل الله:

ولما تبرأ إبراهيم من كل معبود سوى الله، وتبرأ من بعد من كل من يعبد سوى الله، وقامت له الحجة على الناس بالحق، وهدم أصول عمى القلوب وموتها بكل أنواعها، بل تجرأ وحطم رموز ذلك التقديس بأصنامها وأوثانها، ما كان للقوم من بدٍّ سوى الرد بأقصى الشدة: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾[العنكبوت: ٢٤]، نصرةً لآلهتهم المزعومة: ﴿قَالُواْ

حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾[الأنبياء: ٦٨]، جاعلين عقوبته بأقصى ما تصل إليه أيديهم من قسوة: ﴿قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾[الصافات: ٩٧]، وما عرفوا أن رب إبراهيم هو رب كل شيء، ورب النار التي يوقدون، ومنه أتى **الأمر للنار ألاّ تؤذي عبداً يحبه الله**: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾[الأنبياء: ٦٩]، وبهذا الأمر أنجاه الله: ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[العنكبوت: ٢٤]، وكانوا إنما أرادوا بتدبيرهم الانتصار لباطلهم أمام الخلق فخذلهم الله: ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾[الأنبياء: ٧٠]، وهذه سنة الله أن يعلي الحق وأهله، ويسفل الباطل وأهله: ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾[الصافات: ٩٨].

وأما ما كان منه فإنه واجه النار بسكينة المتوكل على الله، وما كان همّه سوى رضى ربه حتى وهو مقبل على الموت إذ يلقى في النار، ما دام ذلك يرضي إلهه العظيم، وبالسكينة والطمأنينة النبوية نفسها حدد وجهته بعد النجاة من النار: ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾[الصافات: ٩٩]، وهكذا كان: **إلى الله ذهابه، وإليه وصوله.**

ثالثاً ـ البلاء المبين: التضحية بالولد الحبيب تحقيقاً لمراد الله:

وإذ تبرأ من أبيه وقومه، وما هاب أن يهب للحق نفسه، سار في طريقه إلى الله، مهما كان هذا الطريق موحشاً والمرء فيه غريب وحيد، فترك بيته وبلده، وأمضى عمراً من عمره وهو يدعو إلى سبيل ربه، ومعه زوجة صالحة تحبه، وفي نفسه حاجة فطرية يحبها، لعلها تملأ بعضاً من فراغ فقدانه أهله وبلده، وتعينه في غربته، فدعا ربه: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[الصافات: ١٠٠].

ولمّا كان الدعاء من عبدٍ يحبه ربه، فقد آتاه الله مما يحب بعد حين:

﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾[الصافات: ١٠١].

وتأمل في هذا الموقف كم يمكن لأب أن يحب ولده بعد كل معاناته تلك وطول انتظاره، ولعله ما كان حب أب لولد كما كان حب إبراهيم، وهنا كانت محطة ابتلائه المبين؛ إذ كان الله قد اختاره «خليلاً» له وحده، لا يتخلل قلبه حب لشيء أعظم من الله، **فأتاه الأمر الظاهر من ربه بذبح هذا الابن**: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾[الصافات: ١٠٢]، وكان هذا الولد هبة من الله، وقد جبله كأبيه على الحلم وسعة الصدر، فأجاب أباه: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[الصافات: ١٠٢]، وهكذا كان أمرهما: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾[الصافات: ١٠٣ - ١٠٧].

وأي بلاء أعظم من بلاء إبراهيم؟، الذي به استحق جزاء المحسنين: رضا وبشرى وذرية مباركة وسلام من الله ومن عباده: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴾[الصافات: ١٠٨ - ١١٣]، **فكان حصاد معاناة الطريق الوصول، وكانت الثمرة: حب الله!**، حتى شهد الله لعبده بالوفاء بمراد الله: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴾[النجم: ٣٧]، فقد أتم الأداء موافقة لمراد الله في كل ابتلاء: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾[البقرة: ١٢٤]، **وهذه شهادة عظمى من ربٍّ خلق النجوم في السماوات، وخلق الأجنة في أرحام الأمهات، ما تشرَّف بها قبله إنسان سواه!**.

٣ ـ مقامات اختارها الله لعبد اختار الله:

يتقلب الإنسان مدة العمر في الدنيا بين مقامات متنوعة في علاقاته مع خالقه «الذي لا نظير له»، ومع الناس «النظراء من الخلق»، ومع الجمادات والحيوانات وأمثالها من قوى الأرض التي استخلفه فيها ربه «مما ليس للإنسان بنظير»، والمفلح من اختار بذل الوسع في كل وقت ومقام في **العدل** مع الخلق **وإصلاح** الجمادات **إخلاصاً** لربه[1]، وأقام نفسه في كل وقت ومكان مقاماً يحبه ربه، فكل منا مستخلف في موضع من الوجود: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[يونس: ١٤]، ولكل منا موضع يحب له ربه في الوقت المعين أن يكون فيه: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾[الصافات: ١٦٤]، وإنما يُعرف قدر العبد عند ربه بالنظر في ما أقامه ربه فيه من مقامات ومواقف في علاقاته الثلاث، كما يقول العارفون: «واذا أردت أن تعرف **قدرك** عند مولاك: **فانظر فيم أقامك**»، ولكي تعرف مقام إبراهيم عند ربه حين استخلفه ربه: انظر في ما أقامه ربه فيه من مقامات في العدل مع **الخلق**، وفي إصلاح **الأرض**، وفي إخلاصه **لرب العالمين**.

أولاً ـ إبراهيم مع الناس:

أصل العدل مع الناس أن تحب لهم ما تحبه لنفسك، وأعلى منه الإحسان، الذي يكون حين تبذل لهم دون انتظار الجزاء منهم خير ما عندك، وكان مقام

---

(١) وبهذا يكون كلام الله هادياً للعبد، وإلا فمن عدم الإخلاص لله، وظلم **الناس**، وأفسد في **الأرض**، فلن يزيده القرآن إلا ضلالاً: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٢٦ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[البقرة: ٢٦ ـ ٢٧].

إبراهيم مع الناس من هذا النوع، تعرفه في ما حكاه القرآن من موقفه حين طرق بابه **الضيفان الغرباء** الذين أتوه على غير توقُّع منه، فسلَّموا عليه فردَّ عليهم تحيتهم بأحسن منها: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝٢٤ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾[الذاريات: ٢٤ ـ ٢٥].

وكان حقيقة أمرهم أنهم قد جاؤوه مبشرين بخير من الله إليه على غير توقع منه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾[هود: ٦٩].

ومع عدم معرفته بحقيقتهم؛ فقد بذل غاية وسعه في إكرامه لهم، وتسلل مسرعاً ليذبح لهم خير ما عنده من أنعام، ويُقدِّم لهم من خير ماله، وجاء بالمائدة إليهم ولم يجئ بهم إليها، ودعاهم بكل لطف إلى تناوله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۝٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾[الذاريات: ٢٦ ـ ٢٧]، ولما لم يقربوا الطعام لم يبدِ لهم مخاوفه بشأن طبيعتهم وإنما أسرها في نفسه لئلا ينفرهم: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾[هود: ٧٠]، **ولقد كان هذا كله منه مع غرباء جاؤوه أضيافاً، ومن كان تعامله بهذه الصورة الكريمة العالية مع مَنْ لا يعرفهم ولا تربطه بهم صلة ولا ينتظر منهم ثناءً، فكيف بمن يعرفهم؟!**

ثم كانت بشراهم له رزقاً طيباً على غير توقع منه، وهبة من رب كريم: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ﴾[الذاريات: ٢٨]، وهي بشرى له ولأهله وهي تشاركه تكريم ضيوفه: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ﴾[هود: ٧١]، وكانت بشرى عجيبة: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝٥٤ قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ

ٱلْقَـٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾[الحجر: ٥٤ ـ ٥٦].

وكان لزوجه من هذا العجب نصيب: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾[الذاريات: ٢٩]، فالأمر صعب التصديق: ﴿قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾[هود: ٧٢ ـ ٧٣]؛ لأنه أمر الله: ﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾[الذاريات: ٣٠]، **وهكذا كان نصيب إبراهيم الكريم: كرم أعظم من رب حميد مجيد حكيم عليم.**

ومن قبل ذلك تقدَّم ما علمته من أدبه في العدل مع أبيه، حين دعاه إلى الحق: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا﴾[مريم: ٤٢ ـ ٤٥].

وهو خير أسلوب من ابن حريص على أبيه، لا يجاوز حده معه مهما كان الخلاف، ويريد محض بره بدعوته إلى هذا الخير، حتى لما استفزه أبوه بمقالته ورد دعوته إلى الخير: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾[مريم: ٤٦]، ما كان جواب الخليل إلا أدباً وعدلاً: ﴿قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾[مريم: ٤٧].

وكما كان إبراهيم كريماً يعطي عطاء مَنْ لا يريد من الخلق جزاءً ولا شكوراً، فقد كان **رحيماً رقيق القلب**، حتى إنه ليجادل ربه عن قوم سيحلُّ بهم عذاب قريب، لمّا سأل ضيوفه: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾[الحجر: ٥٧ ـ ٥٨]، فتناسى البشرى وحرص أولاً

على معرفة مصير لوط عليه السلام: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾[العنكبوت: ٣١ ـ ٣٢]، وأكدوا له أن لوطاً وآله بخير: ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا ۙ إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾[الحجر: ٥٩ ـ ٦٠]، فثابر ليجادل عن الناس لعله يخفف عنهم: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾[هود: ٧٤ ـ ٧٥]، ولكنه أمر الله العزيز الحكيم الذي يعلم ما لا يعلمه إبراهيم: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۖ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾[هود: ٧٦]، لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه.

ثانياً ـ إبراهيم وإصلاح الأرض:

في ظلال يقين الموت القادم، يتوق كل إنسان إلى إنجازٍ يُخلِّد مروره العابر في الدنيا، في لمسة تعليمٍ للخير أو فعلٍ يصلح الدنيا يودعهما موضعه الذي أودعه ربه فيه مدة عمره، فكل إنسان يستخلفه الله موضعاً من الأرض وينظر كيف يعمل فيه، وعلى قدر ما يترتب على عمله في ذلك الموضع ـ من الإنجازات أو اللمسات علماً أو عملاً ـ من آثار صلاح وإصلاح بعد الرحيل: يكون قدر ذلك الإنسان عند مولاه الذي خلقه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[يس: ١٢]، وهو ربٌّ قد مضت سُنَّته في تقدير جدارة وراثة الأرض: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[الأنبياء: ١٠٥].

وبهذا الصلاح والإصلاح يقاس مقام المرء بين الناس وعند الله، **وبه كان**

لإبراهيم حين استخلفه ربه في الأرض المقام الأعظم في الإصلاح، مع مقامه العظيم في تعليم الناس لُباب التوحيد، بعد أن اختار له ربه أحب بقاع الأرض إلى الله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[آل عمران: ٩٦]، ليودع فيها لمسةً تبقى آية بيِّنةً مدى التاريخ، تُخلِّد الحق الأعظم: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾[آل عمران: ٩٧]، وتكون رمزاً للتوحيد النقي، ولتظهر فيها معجزة حيّة دائمة لكل البشرية في كل عام، دالة على صدق ما جاءت به الرسل كلها من الحق، حين يشهد الناس جَمْعَ الناس الذي لا نظير له حول البيت في موسم الحج، وهم يلهجون بذكر الله الذي أرسل المرسلين، ويقصدون بيتاً رفع الله قدره على سائر ما على الأرض، ويلمسون مواضع تُذَكِّر بالرجل الحبيب الذي اختاره الله ليرفع قواعد هذا البيت: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[الحج: ٢٦].

لقد أمر الله إبراهيم وولده معه بتطهير «بيت الله»: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[البقرة: ١٢٥]، فاستجابا، وانظر إليهما خاشعين وهما يؤديان أرقى فعل يخلد إنساناً في تاريخ الخلق، يدعوان ربهما العظيم بتواضع الأنبياء النقي: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِۦمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[البقرة: ١٢٧ ـ ١٢٨].

ثم أمر الله إبراهيم بدعوة الناس لقصد بيت الله وشدِّ الرحال إليه من كل أصقاع الأرض، وهي دعوة ملأ صداها كل الأزمان: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ

بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾[الحج: ٢٧ ـ ٢٩].

وقد جعل الله قصد البيت الذي بناه إبراهيم حقاً لله بعد حق الإسلام، لا يستثنى من واجب الامتثال له إنسان: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[آل عمران: ٩٧].

وتأمَّل أن لإبراهيم نصيباً من عمل كل مَنْ زار هذا البيت وأدى هذا الحق العظيم الواجب مرة في العمر، وهو عمل يعدل كل العمر؛ إذ ليس للحج المبرور جزاء إلا الجنة، وتأمل بعد ذلك مقام إبراهيم وما ترتب على عمره في الأرض من أثر!

ثم إن الله قد بارك له في موضعٍ آخر أقام فيه من الأرض كما بارك له في البيت الحرام: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾[الأنبياء: ٧١ ـ ٧٣]، وجعل الله هذه الأرض المباركة إلى نهاية الدنيا موضعاً مقدساً عند كل أهل الأديان.

ثالثاً ـ إبراهيم مع الله:

ليس من نعيمٍ كنعيم شهود الله، فـ «النعيم وإن تنوعت مظاهره إنما هو لشهوده واقترابه، والعذاب وإن تنوعت مظاهره إنما هو لوجود حجابه، فسبب

العذاب: وجود الحجاب، وإتمام النعيم: بالنظر إلى وجهه الكريم»[١]: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾[الحج: ٦].

والناس في شهودهم للحق وتعلقهم به على مقامات، ومقام إبراهيم مع الله قد بلغ الإحسان الأعظم: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾[النساء: ١٢٥]، ذلك بأن هذا العبد المحسن قد بلغ في إخلاصه لحب ربه أن جعله الله **إمام الناس في الحب**، حتى اتخذه ربه خليلاً: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾[النساء: ١٢٥]، وهل بعد هذا المقام لعبد عند خالقه من مقام؟!.

٤ ـ ربٌّ يصف عبده:

مثلما شهد الله لعبده إبراهيم بالوفاء بمراد الله: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾[النجم: ٣٧]، فقد وصفه بأحب ما يصف به ربٌّ عبداً يحبه، وقد صنعه على عينه، وجبله على وصفٍ اختاره لنفسه، فكما وصف الله نفسه بالحلم: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[فاطر: ٤١]، جعل عبده الحبيب حليماً: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾[هود: ٧٥]، ومدَّ له هذا الخُلُق في وصف ولده: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾[الصافات: ١٠١]، ـ **والحَلِيمُ**: من تأنى وضبط نفْسه؛ وكان متروياً لا يسرع إلى الغضب، متسامحاً يتقبل الصفح عن المسيء ولا يعاجل بالعقوبة ـ، وهكذا كان **خلق إبراهيم الذي جبله عليه ربه مع الناس**، فالرب الحليم قد جعل عبده الخليل حليماً، ورزقه غلاماً حليماً.

وأما **مع نفسه** فقد كان شديداً عليها: **«أَوَّاهٌ»** كثير التفجع والتألم **لوماً**

---

(١) من حكم ابن عطاء رحمه الله.

لنفسه على تقصيرها مع ربها، وهي نفسٌ أقسم الخالق على شرف أمثالها لجلال قدرها عند ربها: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾[القيامة: ٢]، **وأما مع ربه فكان** «مُنيباً»، رجّاعاً إلى الله بالتوبة من كل نسيان لطاعة أو فتور عن طاعة، وهذا الخُلُق العظيم مع النفس ومع الخَلْق ومع الخالق علامة المصطفين من عباد الله، وكان علامة نبوة حفيد إبراهيم المبارك محمد ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم: ٤].

لقد كان وصف إبراهيم الأعظم أنه **مسلم** مستسلم بسلام في عبوديته لربه، وعلى هذا الإسلام الجميل استقام **حنيفاً** من غير عوج: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسۡلِمًا﴾[آل عمران: ٦٧]، وكما قد وصفه الله **بالإنابة** والرجوع إلى ربه، فقد وصفه **بالقنوت** ودوام الطاعة لربه: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾[النحل: ١٢٠]، وبأنه **شاكر** لنعم الله ممتلئ بذكر المنعم: ﴿شَاكِرًا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ﴾[النحل: ١٢١]، وبهذا اجتمع فيه من **الصدق مع نفسه ومع ربه** ما ذكره له ربه، وأمرنا أن نذكره: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾[مريم: ٤١]، بما أتمَّ ربه عليه النعمة: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[يوسف: ٦]، واجتباه وهداه، وجعل في ذريته النبوة والكتاب **وجعله من أولي العزم** من الرسل: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾[الأحزاب: ٧].

لقد كان إبراهيم «أُمّة»: اجتمعت فيه محابُّ الله، وتحققت فيه مرادات الله: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾[النحل: ١٢٠]، عارفاً بمراد ربه سائلاً إياه قلباً سليماً ينفعه يوم لقاء الله: ﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ٨٧ يَوۡمَ لَا

يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[الشعراء: ٨٧ ـ ٨٩]، فشهد الله له بهذه السلامة العظمى لقلبه: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[الصافات: ٨٣ ـ ٨٤]، حتى اتخذه خليلاً: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾[النساء: ١٢٥]، **واختاره ربه إماماً وقدوة لغيره من عباد الله**: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[البقرة: ١٢٤]، **وكان حقاً لله على العباد أن يحب منهم أن يتبعوا هذا الرجل الذي اجتمعت فيه محابُّ الله**: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[النحل: ١٢٣].

وكما أنه قد أحب ربه، فلقد أحب الله هذا العبد حباً بلغ حدَّ أن صار مقام صلاته في بيت الله موضعاً يحبه الله، حتى شرع لكل زائر لبيت الله الصلاة فيه إكراماً للعبد الحبيب الذي صلى فيه من قبل: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾[البقرة: ١٢٥]!، وبلغ معه العبد حدَّ **أن يحاور ربه بألفة وأنس يسأله عن إحياء الموتى**: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[البقرة: ٢٦٠]، فتأمل أي حب هذا وأي أنس؟!، وإذا كان الحب أصل كل حركة في الوجود، فإن أعظمه حب الخالق لمخلوقه، ثم حب المخلوق لخالقه.

٥ ـ بين الرب وبين العبد:

يملأ قلبَ العبدِ اليقينُ حين ينادي ربه القريب فيجيبه ربه كما وعد: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[البقرة: ١٨٦]، وكلما زادت معرفته بربه ازداد قلبه

يقيناً بوعده: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[غافر: ٦٠]، وتعلَّم قلبه إحسان الظن بربٍّ صفته أنه الوهاب الكريم، وأنه مجيب عبده بخير ما يصلح له.

وما رُزق العبد خيراً من حسن ظنه بربه، وذلك مما شهده كل عبد مدة عمره من حسن معاملة ربه له في كل تقديره وتدبيره، وبهذا عرف إبراهيم ربه، بما شهده منه من الحفاوة به وإجابته دعاءه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾[مريم: ٤٧]، فقد عرف من ربه في كل ما مضى ويمضي من عمره أنه كان رحيمًا رؤوفاً به، يجيبه إذا دعاه، وعلى هذا مضى يعيش صلة الحوار المباركة بينه وبين الله: ﴿وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾[مريم: ٤٨]، **في دعوات مباركات من العبد الصِّدِّيق الحبيب، وإجابات طيبات من ربه القريب المجيب، خلَّد بعضها القرآن:**

١ ـ **هبة الولد**: بعدما تبرأ من كل معبود سوى الله، ومن كل عابد لسوى الله، وبدأ سلوك طريق هجرته إلى ربه: ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾[الصافات: ٩٩]، اجتمعت على إبراهيم غربة ثقيلة في دينه، مع غربته عن وطنه وأهله وعشيرته، وزادتها حِدَّة وَحدته وافتقاده للولد، فنادى ربه القريب: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[الصافات: ١٠٠]، فاستجاب له ربه وبشره بإسماعيل الحليم: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾[الصافات: ١٠١]، ثم على الكبر من بعدُ بشره بإسحاق العليم: ﴿قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾[الحِجْر: ٥٣]، ومن ورائهم ذرية مباركة هداها ربها واصطفاها كما اصطفى ذرية من يحب من عباده: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾[مريم: ٥٨].

وبهذا حمد إبراهيم ربه حمداً كثيراً طيباً: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٖ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٨ ـ ٣٩].

٢ ـ **سؤال صلاح الذرية**: مثلما سأل إبراهيم ربه صلاح نفسه، فقد سأله لذريته: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤٠ ـ ٤١]، فتقبل الله دعاءه، واجتبى وهدى تلك الذرية المباركة: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ كُلًّا هَدَيْنَاۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ [الأنعام: ٨٤ ـ ٨٧].

٣ ـ **عمارة البيت الحرام**: بعد أن رفع إبراهيم القواعد من البيت كما أمره ربه، بوادٍ غير ذي زرع، يصعب تخيل موارد للرزق فيه، دعا ربه أن يعمر المكان بالناس: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٥ ـ ٣٧]، فاستجاب له ربه، وقيض له مدى الأزمان رجالاً يفدون من كل مكان إلى البيت العتيق: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِۖ

﴿فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾[الحج: ٢٧ ـ ٢٨].

٤ ـ **البلد الحرام**: وقد سأل إبراهيم ربه أن يجعل مكة بلداً آمناً: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾[البقرة: ١٢٦]، فاستجاب له ربه: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾[البقرة: ١٢٥]، كما سأل إبراهيم ربه أن يفتح على أهل هـذا البلـد من أبواب الرزق: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾[البقرة: ١٢٦]، فاستجاب له ربه، وفتح على أهل هذا البلد من ثمرات كل شيء: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[القصص: ٥٧].

٥ ـ وكان أعظمُ دعوات إبراهيم بركةً على الدنيا دعاءه ربه أن يبعث في هذا البلـد **رسـولاً يتلو آيات الله**: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[البقرة: ١٢٩]، فاستجاب الله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[الجمعة: ٢]، وببركة هذا الدعاء العظيم أرسل سيد ولد إبراهيم محمداً ﷺ رحمة ونور هداية للعالمين.

٦ ـ **الذكر الطيب**: وكان أخيراً **دعاء العبد العارف بربه**، أن يهبه ربه لسان الصـدق الذي به يمتد ذكـره الطيب بين الخلق مدى الأزمان: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾[الشعراء: ٨٣ ـ ٨٥]، فخصَّه ربه وذريته بهذه الذكرى العطرة بين الخلق: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾[ص: ٤٥ ـ ٤٧]، وجعلهم

في أعلى الخلق ذكراً مدى وجود الخلق: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾[مريم: ٤٩ ـ ٥٠]، فما خذله ربه في دعاء، وكان به حفياً، وقريباً مجيباً كما عرفه منذ أن آتاه رشده صبياً.

* **خاتمة في حب إبراهيم واتباعه:**

إن الحب قرين المعرفة، ولعل روحك قد ذاقت بعضاً من جلال روح إبراهيم بما عرفته عنه، ولعله قد تسلل إلى قلبك بعض ما يستحقه هذا الصدِّيق النبي من صادق الحب، فتعزم من بعدُ على تذوُّق شرف الانتساب إليه، وليس مثل الانتساب إلى إبراهيم نسب: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[البقرة: ١٣٠].

وهذا النسب هو خيارنا لنكون من أمةٍ هي فرعه الحق بين الخلق: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥]، وبه نعلن هويتنا: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[البقرة: ١٣٦]، فهي صبغة الله رب إبراهيم: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨]، وهو قول الله الصادق: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[آل عمران: ٩٥]، وهي الشهادة من الله: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٠]، وهي وصية إبراهيم: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ

ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[البقرة: ١٣٢].

*** حقيقة ملة إبراهيم:**

إن أصل ملة إبراهيم أن يكون العبد كله لله، حياتاً ومماتاً وصلاةً ونسكاً: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[الأنعام: ١٦١ ـ ١٦٣].

وهذا الإسلام فعلٌ للخير وركوعٌ وسجودٌ وعبادةٌ وبذلٌ للجهد لتعبيد النفس لله، والجهاد ابتغاء رضى الله، وهذه طريقة إبراهيم، وبها يشهد علينا جميعاً رسول الله وحفيد إبراهيم: محمد ﷺ، وبها نشهد نحن على الناس جميعاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾[الحج: ٧٧ ـ ٧٨].

*** مع آل إبراهيم:**

وبهذا الانتساب إلى ملّته نكون مع آل إبراهيم الذين اختارهم الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[آل عمران: ٣٣]، بما اختاروا الله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[البقرة: ١٣٣]، وهكذا فعلوا: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ

إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾[يوسف: ٣٨].

وليس الانتساب إليه بمجرد الدم، وإنما الانتساب الحقيقي لإبراهيم هو في الانتساب إلى شرف العبودية لربه، وليس هو مجرد نسب الذرية: ﴿قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[البقرة: ١٢٤]، فمن أبطأ به عمله يوم القيامة عن اجتياز جهنم عند ورودها يوم القيامة لم يسرع به نسبه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾[الحديد: ٢٦].

* **دين شيخ الدعاة:**

إنه التوحيد الأصيل على دين شيخ الدعاة نوح عليه السلام: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾[الشورى: ١٣].

وبالذين هدى الله قلوبهم لذلك التوحيد أمرنا الله أن نقتدي: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾[الأنعام: ٩٠]، والذي ما تبقى من تراثه زمن بعثة النبي ﷺ سوى ميراث إبراهيم المحرف عند مشركي العرب، وميراث التوراة والإنجيل المحرفة عند أهل الكتاب: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾[الأعلى: ١٨ ـ ١٩].

فلا تزعجنك مجادلة أهل الملل فيه: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ

فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[آل عمران: ٦٥]، وإنما هو ضيق في صدورهم وحسد: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾[النساء: ٥٤]، وهو ديدن المكذبين من قبل: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾[الحج: ٤٢ ـ ٤٤]، وإنما الحق ما نزلت به كلمات الله في وصفه وفي وصف أوليائه الحق: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[آل عمران: ٦٧ ـ ٦٨].

وبذلك نقول كما أمرنا الله: ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾[آل عمران: ٨٤]، لأن مصدر الوحي واحد: ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾[النساء: ١٦٣].

*** ذكر إبراهيم:**

أعط يا عبدالله إبراهيم من الثناء والحب ما يستحق، بسؤال الله ربك ورب إبراهيم أن يثني عليه كما يستحق، **فلا يملك عبدٌ أن يعطي هذا العبد الخليل حقَّه من الثناء**، وقل كما أمرك رب إبراهيم الذي يحبه أن تقول: «اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم

وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد».

إن الكون مرآة لصفات الله، فالجمال يدل على صانعه الجميل، والخلق العجيب في كل شيء يدل على ربه العليم بكل شيء، والرحمة المودعة في قلوب العباد تدل على الرب الرحيم بكل شيء، وسعة الكون تدل على الرب القادر على كل شيء، العظيم الذي يُستصغر دونه كل ما سواه من شيء، وكذلك فإن خالق الحب في قلب إبراهيم رب عظيم الحب، عساك بما تعلمته عن عبده المحبوب أن يحملك الشوق لتذوق حبه، فهو الله ربك «الحي» الذي فلقك من ظلمة العدم إلى نور الوجود، وهو الرب «القيوم» الذي بمدده وحْده تبقى في هذا الوجود، فعساه أن يمدك بالعزم لتسلك إليه حتى تصل إلى حبه، فهو رب حبيب يستحق الحب، ومنه يكون أعظم ما في الوجود من حب.

❑ ❑ ❑

الملحق رقم (٤)

أنموذج للبحث في
فقه الدلالة الاعتبارية لنماذج الأقوام
التي وردت في القرآن

قوم عاد ونبيهم هود

الملحق رقم (٤)

أنموذج للبحث في فقه الدلالة الاعتبارية لنماذج الأقوام التي وردت في القرآن

قوم عاد ونبيهم هود

* **عاد:**

أولى قبائل العرب وجوداً، ومن أول المجتمعات الإنسانية بعد الطوفان، وأول من نطق بالعربية، سُمُّوا «عاداً» من العود؛ لأن الحياة البشرية عادت بهم من جديد بعد الطوفان الذي أغرق الأرض: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾[الأعراف: ٦٩]، وتسمى عاد: «عاد إرم»، نسبة إلى أحد أجدادهم، وسكنوا المنطقة التي تكثر فيها الكثبان الرملية الكثيفة المتحركة المسماة «الأحقاف»: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾[الأحقاف: ٢١]، جنوب الربع الخالي من جزيرة العرب، وكانت زمنهم أرضاً زراعية خصبة.

* **مجتمع عاد:**

امتاز أهل عاد بما اختصهم الله به من ضخامة وقوة في أجسامهم: ﴿وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗ﴾[الأعراف: ٦٩]، مما زادهم فخراً في أنفسهم: ﴿وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾[فصلت: ١٥]، وبالتالي فإن **نظامهم الاجتماعي** بُني على

شعورهم بتفوقهم العرقي على من سواهم، يقودهم فيه ملأ يمثلون أهل الترف والغنى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[المؤمنون: ٣٣]، وهؤلاء بطبعهم يختصون **بالتجبر** وإرادة فرض إرادتهم على من سواهم، **وبالعناد** وصعوبة حملهم على تغيير وجهات نظرهم: ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾[هود: ٥٩].

كما امتاز هؤلاء القوم بنوع **إنجازهم الحضاري المادي**، الذي هو ثمرة تفوقهم **الاقتصادي**، حتى إن مدنهم كانت توصف بأنها لا مثيل لها: ﴿ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾[الفجر: ٨]؛ لأن الله مكنهم من قدرات الأرض تمكيناً خاصاً: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾[الأحقاف: ٢٦]، حتى كان لمدنهم أعمدة ضخمة مرفوعة: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾[الفجر: ٧]، وكانوا يشيدون في كل مرتفع أبنية ضخمة للتباهي والفخر لا للحاجة: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾[الشعراء: ١٢٨]، وكانوا يعتنون بصناعة قصورهم وزخرفتها وتفاصيلها حتى كأنهم سيخلدون فيها: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾[الشعراء: ١٢٩].

*** النظام السياسي:**

وكان **نظامهم السياسي** عرقياً قومياً، يمثل أنموذج التسلط الفئوي المطلق، من خلال تسخيرهم ما أوتوا من قوة وتفوق حضاري للعلو في الأرض والطغيان على من سواهم: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾[الفجر: ١١]، ومن خلال إرادة التجبر وفرض منطق القوة في أن تفعل ما تشاء: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾[الشعراء: ١٣٠]، فكان أن أفسدوا الأرض بالظلم: ﴿فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾[الفجر: ١٢]، ونسوا الله فأنساهم أنفسهم إذ غرتهم قوتهم وكذبوا

بلقائه: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[المؤمنون: ٣٦ ـ ٣٧].

*** هود:**

رسول الله إلى عاد، يعني اسمه: «التائب»، واشتق هذا الاسم من «الهَود»: وهو السكون ولين الجانب، وتمثلت في شخصيته ملامح ما اشتُق منه اسمه من يسر ورفق وطمأنينة ورجوع إلى ربه.

*** خطاب هود:**

كان هود عليه السلام منتمياً إلى هذه القرية العظيمة انتماء أخوة ودم: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾[الشعراء: ١٢٤]، وخاطبهم ليعبدوا الله وليتركوا الإفساد والطغيان مبتدئاً بترقيق قلوبهم ببيان أنهم قومه وأنه منهم: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[الأعراف: ٦٥].

وبيَّن مقامه فيهم: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾[الأعراف: ٦٨]، وذكرهم بنعم الله الكثيرة عليهم: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾[الشعراء: ١٣٢ ـ ١٣٤]، وتحبب إليهم بكل سبيل ليذكّرهم: ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[هود: ٥١]، ووعدهم ورغب إليهم استغفار ربهم والتوبة إليه من طغيانهم ليديم عليهم نعمه: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾[هود: ٥٢][1]،

---

(١) يلحظ أن القوة المادية والتفوق الحضاري نعمة، رغب الرسول قومه إلى إدامتها بالاستغفار، وأن الضعف والتخلف الحضاري نقمة، تدل على جهل المراد من الدور =

وحذّرهم بعد ذلك: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾[الشعراء: ١٣٥].

*** جواب عاد:**

ردَّ قوم عاد بأن اتهموا هوداً بالكذب: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا وَمَا نَحۡنُ لَهُۥ بِمُؤۡمِنِينَ﴾[المؤمنون: ٣٨]، وبالجنون: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖ﴾[هود: ٥٤]، وبالسفاهة والطيش: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ﴾[الأعراف: ٦٦]، ثم إنه مجرد رجل مثلهم: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ﴾[المؤمنون: ٣٣]، لم يأتهم بمعجزة حاسمة: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾[هود: ٥٣]، ورفضوا اتباع غير منهج الآباء، وتحدَّوه أن يأتيهم بما توعدهم به: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[الأعراف: ٧٠].

*** موقف القمة:**

بعد إقامة الحجة وتقديم الأنموذج الصالح، وقف ذلك النبي اللين الرفيق بلا خوف وقفة العمر، وحيداً أمام أمة لم يُخلق مثلها في البلاد، تلك التي كانت تبطش بكل جبروت بمن سواها، وبكل شجاعة وحزم تحداهم أجمعين: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ

= الإنساني في الحياة، أو على عقوبة ربانية مسلطة بسبب الظلم والعصيان الجماعي لأمر الله.

رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[هود: ٥٤ـ٥٦].

*** عاقبة عاد:**

إن ربنا لبالمرصاد، وقد صبّ على عاد بطغيانهم وإفسادهم العذاب صباً، فكان عذابهم على مرحلتين؛ أولاهما ما حلّ بهم من الجفاف لبضع سنين: ﴿قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌ﴾[الأعراف: ٧١]، وبدأت الثانية بصيحة أخذتهم فجأة تمهيداً للنهاية: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[المؤمنون: ٤١]، وتبعتها ريح عاتية باردة لثمانية أيام متتابعات، ظنوها غيثاً بعد الجفاف: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[الأحقاف: ٢٤]، وكانت ريحاً عقيماً: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾[الذاريات: ٤٢]، و﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾[الأحقاف: ٢٥]، فاقتلعتهم من الأرض: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾[القمر: ٢٠]، وجعلت أجسامهم الضخام هامدة على الأرض: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾[الحاقة: ٧]، فما نرى لهم اليوم من باقية.

❒ ❒ ❒

المصادر والمراجع(1)

* كتب التفسير:

- **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**: لمحمد بن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨م.
- **تأويلات أهل السنة**: لأبي منصور الماتريدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٥م.
- **زاد المسير في علم التفسير**: لابن الجوزي، جمال الدين عبد الرحمن، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٤م.

---

(١) تتوفر في المكتبة أعداد ضخمة من البحوث الخاصة بمحاولة دراسة الوحدة الموضوعية لسورة بعينها بغرض التوصل إلى العلم بمقاصدها، من مثل محاولة الدكتور محمد عبدالله دراز في كتابه العظيم (النبأ العظيم) مع سورة البقرة، والشيخ عبدالله العلمي في (مؤتمر سورة يوسف)، ومحاولات الدكتور أحمد نوفل، والدكتور حسن محمد باجودة، والدكتور محمد صالح علي مصطفى، والدكتورة حنان اللحام، وغيرهم ممن بذل جهوداً طيبة في هذا الباب مع سور بعينها، ولعل من أبرز هذه المحاولات ـ من الناحية المنهجية ـ عند الأقدمين ما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية في (رسالة في المعاني المستنبطة من سورة الإنسان)، ومن أبرزها عند المعاصرين ما قدمه الدكتور أحمد مختار البزرة في دراسته للسورة التي تُذكر فيها الأنفال، في كتاب: (في إعجاز القرآن ـ دراسة تحليلية لسورة الأنفال) والذي نشرته: (دار المأمون للتراث ـ دمشق ـ ١٩٨٨)، وهو في رأيي من أرقى المراجع في هذا الباب، ويمثل أنموذجاً متفوقاً في طرحه المنهجي وروح تعامله مع السورة القرآنية ووحدتها الموضوعية.

- **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**: لجار الله محمود الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٤م.
- **التفسير الكبير** (مفاتيح الغيب): لفخر الدين محمد الرازي، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٥م.
- **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**: لناصر الدين عبدالله البيضاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م.
- **معالم التنزيل**: الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: خالد عبد الرحمن العك، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٧م.
- **التسهيل لعلوم التنزيل**: لمحمد بن أحمد ابن جزي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٣م.
- **مدارك التنزيل وحقائق التأويل**: لعبدالله بن أحمد النسفي، دار القلم، بيروت، ١٩٨٩م.
- **الجامع لأحكام القرآن**: لمحمد الأنصاري القرطبي، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٤م.
- **النهر الماد من البحر المحيط**: لأبي حيان الأندلسي، تحقيق: بوران الضناوي وهديان الضناوي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٩٨٧م.
- **تفسير القرآن العظيم**: لعماد الدين إسماعيل ابن كثير، مكتبة الصفا، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**: لبرهان الدين البقاعي، بتعليق: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م.
- **مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور**: لبرهان الدين البقاعي.
- **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**: لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٣م.
- **لطائف الإشارات**: لأبي القاسم القشيري، دار الكتاب العربي، القاهرة، بلا تاريخ.
- **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**: لمحمد بن علي الشوكاني،

دار الأرقم، بيروت، بلا تاريخ.
ـ **حاشية الصاوي على تفسير الجلالين**، لأحمد الصاوي، دار الجيل، بيروت، بلا تاريخ.
ـ **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**: لشهاب الدين السيد محمود الآلوسي، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٧م.
ـ **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، لأبي السعود محمد العمادي، دار الفكر، بيروت، بلا تاريخ.
ـ **محاسن التأويل**: لمحمد جمال الدين القاسمي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٧م.
ـ **دروس من القران الكريم**: لمحمد عبده، دار الهلال، القاهرة.
ـ **تفسير القران الكريم، جزء عم**: لمحمد عبده، دار الكتب، الجزائر.
ـ **تفسير المنار**: لمحمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، بلا تاريخ.
ـ **التفسير القرآني للقرآن**: لعبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٠م.
ـ **تفسير القرآن الكريم**: لمحمود شلتوت، دار القلم، القاهرة.
ـ **إلى القران الكريم**: لمحمود شلتوت، دار الهلال، القاهرة.
ـ **المصحف المفسر**: لمحمد فريد وجدي، الدار العربية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٥م.
ـ **تفسير المراغي**: لأحمد مصطفى المراغي، دار البحوث العلمية، بيروت، ١٩٧٤م.
ـ **مفتاح علوم السر في تفسير سورة والعصر**: للشيخ أحمد العلاوي.
ـ **تفسير التحرير والتنوير**: لمحمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.
ـ **التفسير الحديث**: لمحمد عزة دروزة، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٢م.
ـ **في ظلال القرآن**: لسيد قطب، دار الشروق، بيروت، ١٩٧٨م.

- **التفسير الواضح**: للدكتور محمد محمود حجازي، مطبعة الاستقلال الكبرى، القاهرة، ١٩٦٩م.

- **زهرة التفاسير**: لمحمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة.

- **تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن**: لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، مؤسسة الرسالة، بيروت، بلا تاريخ.

- **الأساس في التفسير**: لسعيد حوى، دار السلام، القاهرة، ١٩٨٩م.

- **من أنوار القران الكريم**: ليوسف كمال محمد، دار القلم، القاهرة، ٢٠٠٢م.

- **من موضوعات سور القران الكريم**: لعبد الحميد محمود طهماز، دار القلم، دمشق، ١٩٩٩م.

- **إيجاز البيان في سور القرآن**: لمحمد علي الصابوني، مكتبة الغزالي، ١٩٧٩م.

- **قبس من نور القرآن الكريم**: لمحمد علي الصابوني، دار الجيل، بيروت، ٢٠٠١م.

- **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم**: لمحمد الغزالي، دار الشروق، بيروت، ١٩٩٧م.

* * *

*** اللغة وغريب القرآن:**

- **تفسير غريب القرآن**: لعبدالله بن مسلم ابن قتيبة، بتحقيق: السيد أحمد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨م.

- **تأويل مشكل القرآن**: لعبدالله بن مسلم ابن قتيبة، بتحقيق: السيد أحمد صقر، المكتبة العلمية، بيروت، ١٩٨١م.

- **كتاب العين**: للخليل بن أحمد الفراهيدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.

- **معجم مقاييس اللغة**: للحسين بن أحمد بن فارس، بتحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٩م.
- **مفردات ألفاظ القرآن**: للراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان داودي، دار القلم، دمشق، ١٩٩٢م.
- **لسان العرب**: لجمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، دار صادر، بيروت، ١٩٩٧م.
- **القاموس المحيط**: لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٧م.
- **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**: لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي.

* * *

* **مراجع متنوعة**:

- **اختصار النكت للماوردي**: عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، تحقيق د. عبدالله الوهيبي، دار ابن حزم، بيروت، ١٩٩٦م.
- **جامع الرسائل ـ رسالة في المعاني المستنبطة من سورة الإنسان ـ**: لأحمد بن تيمية، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، ١٩٨٤م.
- **التبيان في أقسام القرآن**: لابن قيم الجوزية، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٩٨٨م.
- **بدائع الفوائد**: لشمس الدين محمد ابن قيم الجوزية، دار إحياء العلوم، بيروت.
- **معترك الأقران في إعجاز القرآن**: لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م.
- **تهذيب التهذيب**: لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٤م.
- **طبقات المفسرين**: لشمس الدين محمد الداودي، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٧٢م.

- **البرهان في تناسب سور القرآن**: لأحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي، إدارة الثقافة والنشر، جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٩٨٨م.
- **تناسق الدرر في تناسب السور**: لجلال الدين السيوطي، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٧م.
- **جواهر البيان في تناسب سور القرآن**: لعبدالله الغماري.
- **سبق الغايات في نسق الآيات**: لمولانا أشرف علي تهانوي، مخطوط، الجامعة الإسلامية، بغداد.
- **الوحدة الموضوعية في القران الكريم**: للدكتور محمد محمود حجازي، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٧٠م.
- **الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية**: للدكتور رفعت فوزي عبد المطلب، دار السلام، القاهرة، ١٩٨٦م.
- **أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم**: للدكتور عبدالله محمود شحاتة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦م.
- **تفسير القران المرتب**: للدكتور أسعد أحمد علي، دار السؤال، دمشق، ١٩٧٩م.
- **التفسير الموضوعي للقرآن الكريم في كفتي ميزان**: للدكتور عبد الجليل عبد الرحيم، عمان، ١٩٩١م.
- **المدخل إلى التفسير الموضوعي**: للدكتور عبد الستار فتح الله سعيد، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ١٩٩١م.
- **دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني**: للدكتور أحمد جمال العمري، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- **منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم**: للدكتور زياد خليل محمد الدغامين، دار البشير، عمان، ١٩٩٥م.
- **مباحث في التفسير الموضوعي**: للدكتور مصطفى مسلم، دار القلم، دمشق، ١٩٩٧م.

- **التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق**: للدكتور صلاح الخالدي، دار النفائس، عمان، ١٩٩٧م.
- **مصادر التفسير الموضوعي**: للدكتور أحمد رحماني، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٩٨م.
- **النبأ العظيم**: للدكتور محمد عبدالله دراز، دار الثقافة، الدوحة، ١٩٨٥م.
- **الصحيح المسند من أسباب النزول**: لمقبل بن هادي الوادعي، دار الأرقم، الكويت، بلا تاريخ.
- **معجم القراءات القرآنية**: لأحمد مختار عمر وزميله، ذات السلاسل، الكويت، ١٩٨٨م.
- **في إعجاز القرآن ـ دراسة تحليلية لسورة الأنفال ـ**: للدكتور أحمد مختار البزرة، دار المأمون للتراث، دمشق، ١٤٠٧هـ.
- **معجم تفاسير القرآن الكريم**: للدكتور عبد القادر زمامة وزملائه، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم، ١٩٩٧م.
- **البناء الموضوعي للسورة التي تُذكر فيها العاديات**: لأحمد الوتاري، بحث مقدم إلى جامعة بغداد، كلية العلوم الإسلامية، ١٩٩٩م.
- **دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم**: للدكتور زاهر بن عواض الألمعي، مكتبة الرشد، الرياض، ٢٠٠١م.
- **البرهان في نظام القرآن**: للدكتور محمد عناية الله سبحاني، دار عمار، عمان، ٢٠٠٣م.
- **إمعان النظر في نظام الآي والسور**: لمحمد عناية الله أسد سبحاني، دار عمار، عمان، ٢٠٠٣م.
- **تفهيم القرآن الكريم**: لمحمد فاروق الزين، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٤م.
- **خواطر قرآنية ـ نظرات في أهداف سور القرآن ـ**: لعمرو خالد، الدار العربية للعلوم، بيروت، ٢٠٠٤م.
- **الوحدة التاريخية للسورة القرآنية**: لعمران سميح نزال، دار قتيبة، دمشق، ٢٠٠٦م.

- محاضرات في التفسير الموضوعي: لعباس عوض الله عباس، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٧م.

❐ ❐ ❐

فهرس الموضوعات

السيرة الذاتية للمؤلف

* **الاسم**: أحمد عدنان عبدالله الوتاري.



* **المواليد**: ١٩٦٣ بغداد.
* **الجنسية**: عراقي.
* **محل الإقامة**: دبي ـ دولة الإمارات العربية المتحدة.
* **موبايل**: ٠٠٩٧١٥٠٢٥٠٦١١٦
* **البريد الإلكتروني**: wattary@yahoo . com
* **التحصيل الأكاديمي**:

١ ـ بكالوريوس الهندسة المعمارية ـ جامعة بغداد ـ ١٩٨٦م.

٢ ـ بكالوريوس العلوم الإسلامية (بامتياز مع مرتبة الشرف) ـ جامعة بغداد ـ ١٩٩٩م.

* **اللغات**:

إجادة تامة للغتين العربية والإنكليزية.

* **الممارسة العملية الأدبية**:

١ ـ مجموعة بحوث في البناء الموضوعي للسورة القرآنية، تمتاز بأصالتها وبجدة منهجها البحثي، بلغت حتى الآن بحدود ٢٠ بحثاً، انتظم بعضها كتاب (فقه السورة القرآنية)، المتضمن لمقدمة في الأصول العامة لمنهج دراسة البناء الموضوعي للسورة القرآنية، مع ستة عشر أنموذجاً تطبيقياً، وقد تم تقييم أصالة البحوث وجدارتها العلمية من خيرة من علماء المسلمين في العراق وغيره.

٢ ـ كتاب (فقـه الهجـرة الى الله)، وهو أنمـوذج متفرد لإعادة تشـكيل فسيفساء من الجمل المتناثرة الحكيمة، التي سـطرتها روح ابن عطاء الله السكندري قبل أكثر من ٧٠٠ سنة، تمَّت إعادة تشكيلها لتنتظم في جملة واحدة، وليكون العمل وكأنه قطعة بروح واحدة، برغم هذا الحاجز الزمني الكبير بكل ما يعنيه من اختلافات في فقه اللغة والمصطلح والتغير الحضاري.

٣ ـ كتاب (فقه الوجود)، وهو محاولة على طريق إعادة تأسيس الوعي الإسلامي في فقه الحياة وفقه الموت وفقه الجنة، وفق قراءة معاصرة.

٤ ـ مجموعة واسعة من المقالات السـياسية والأدبية والافتتاحـيات، من خلال العمل كرئيس تحرير لجريدة (الساعة) الأسبوعية في بغداد، (صاحب الامتياز ورئيس مجلس الإدارة الدكتور أحمد الكبيسي) ٢٠٠٥ ـ ٢٠٠٦م.

٥ ـ كتابات متنوعة في مجال إعادة تشكيل الوعي العربي والإسلامي، بعضها منشور وأكثرها لم ينشر بعد، بسبب ظروف العراق قبل الاحتلال وبعده.

*** الممارسة العملية الهندسية:**

١ ـ مدير التصاميم في شركة سي أس أتش كيه دبي المحدودة، دبي ٢٠٠٦ ـ ٢٠٠٩م.

٢ ـ صاحب الامتياز ومدير مكتب المهندس المعماري الاستشاري أحمد الوتاري ـ بغداد ١٩٩١ ـ ٢٠٠٥م.

❑ ❑ ❑